



التوحيد أولاً

وعلوُّ الهمة في رعاية حقوق الله
والتمسك بعقيدة سلفنا الصالح
أهل السنة والجماعة ومنهجهم

التوحيد أولاً وعلو الهمة في رعاية حقوق الله

والتمسك بعقيدة سلفنا الصالح

أهل السنة والجماعة ومنهجهم

﴿ التوحيد هو أس دعوة رسل الله أجمعين، وبه الفلاح في الدارين. □ قال العلامة ابن أبي العزِّ الحنفي: «اعلم أن التوحيد أوَّل دعوة الرسل، وأوَّل منازل الطريق، وأوَّل مقام يقوم فيه السالك إلى الله وَجَلَّ. * قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

* وقال هود عليه السلام لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾

[الأعراف: ٦٥].

* وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. ولهذا كان أول واجب يجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله، لا النَّظْرَ، ولا القصد إلى النظر، ولا الشك، كما هي أقوال لأرباب الكلام المذموم، بل أئمة السلف كلهم متفقون على أن أوَّل ما يؤمر به العبد الشهادتان.. فالتوحيد أوَّل ما يَدْخُلُ به العبد في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا، كما قال النبي ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»^(١).

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم في «المستدرک» عن معاذ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٤٧٩)، و«الإرواء» (٦٨٧)، و«أحكام الجنائز»

وهو أوَّل واجب، وآخر واجب، فالتوحيد أوَّل الأمرِ وآخره، أعني توحيد الألوهية»^(١).

□ والتوحيد أعظم أسباب انشراح الصِّدْر وهو أعظم درجات الأدب مع الله **وَعَزَّ وَجَلَّ**.

□ والتوحيد مَفْرَعُ أولياء الله الصالحين «يُنَجِّبُهُمْ مِنْ كُرْبَاتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَشِدَائِدِهَا؛ وَلِذَلِكَ فَرَعَ إِلَيْهِ يُونُسَ **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، فَجَاهَهُ اللَّهُ مِنْ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، وَفَرَعَ إِلَيْهِ أَتْبَاعَ الرُّسُلِ، فَجُجُوا بِهِ مِمَّا عُدِّبَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ فِي الدُّنْيَا، وَمَا أُعِدَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ.. هَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ، فَمَا دُفِعَتْ شِدَائِدُ الدُّنْيَا بِمِثْلِ التَّوْحِيدِ، وَلِذَلِكَ كَانَ دَعَاءُ الْكُرْبِ بِالتَّوْحِيدِ^(٢)، وَدَعْوَةُ ذِي النُّونِ الَّتِي مَا دَعَا بِهَا مَكْرُوبٌ إِلَّا فَرَّجَ اللَّهُ كَرْبَهُ بِالتَّوْحِيدِ، فَلَا يُلْقِي فِي الْكُرْبِ الْعِظَامَ إِلَّا الشَّرْكَ، وَلَا يُنْجِي مِنْهَا إِلَّا التَّوْحِيدِ، فَهُوَ مَفْرَعُ الْخَلْقِ وَمَلْجَأُهَا، وَحِصْنُهَا وَغِيَاثُهَا»^(٣).

□ «والتوحيد أطف شيء، وأنزهه، وأنظفه، وأصفاه» كما قال ابن القيم **رحمته** في كتابه القيم «الفوائد».

من فتاوى الشيخ الألباني **رحمته** :

التوحيد أولاً يا دعاة الإسلام:

□ سُئِلَ فضيلة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني شيخ السلفيين

(٦٤٧٩).

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي (٧٧، ٧٨).

(٢) كما رواه البخاري (٦٣٤٦)، ومسلم (٢٧٣٠) عن ابن عباس.

(٣) «الفوائد» لابن القيم، و«فوائد الفوائد» (ص ٤٤، ٤٥).

ومحدث الديار الشامية رحمته:

فضيلة الشيخ لا شك أنكم تعلمون بأن واقع الأمة الديني واقعٌ مريرٌ؛ من حيث الجهل بالعقيدة، ومسائل الاعتقاد، ومن حيث الافتراق في المناهج، وإهمال نشر الدعوة الإسلامية في أكثر بقاع الأرض طبقاً للعقيدة الأولى، والمنهج الأول؛ الذي صلحت به الأمة.

وهذا الواقع الأليم لا شك بأنه قد ولد غيراً عند المخلصين، ورغبةً في تغييره، وإصلاح الخلل، إلا أنهم اختلفوا في طريقتهم في إصلاح هذا الواقع؛ لاختلاف مشاربهم العقديّة والمنهجية - كما تعلم ذلك فضيلتكم - من خلال تعدد الحركات والجماعات الإسلامية والحزبية التي ادّعت إصلاح الأمة الإسلامية عشرات السنين، ومع ذلك لم يكتب لها النجاح والفلاح، بل تسببت تلك الحركات للأمة في إحداثِ الفتن، ونزولِ النكبات والمصائب العظيمة بسبب مناهجها وعقائدها المخالفة لأمرِ الرسول ﷺ وما جاء به، مما ترك الأثر الكبير في الحيرة عند المسلمين وخصوصاً الشباب منهم في كيفية معالجة هذا الواقع.

وقد يشعرُ الداعيةُ المسلم المتمسك بمنهاج النبوة المتبع لسبيل المؤمنين - المتمثل في فهم الصحابة والتابعين لهم بإحسانٍ من علماء الإسلام - قد يشعر بأنه حمل أمانة عظيمة تجاه هذا الواقع وإصلاحه، أو المشاركة في علاجه.

- فما هي نصيحتكم لأتباع تلك الحركات، أو الجماعات؟
- وما هي الطرق النافعة الناجحة في معالجة هذا الواقع؟
- وكيف تبرأ ذمة المسلم عند الله ﻋَزَّ وَجَلَّ يوم القيامة؟

□ فأجاب رحمته: «يجبُ العناية والاهتمام بالتوحيد أولاً، كما هو منهج الأنبياء والرسل عليهم».

بالإضافة لما ورد في السؤال السابق ذكره آنفاً من سوء واقع المسلمين. نقول: إن هذا الواقع الأليم ليس شرّاً مما كان عليه واقع العرب في الجاهلية، حينما بعث إليهم نبينا محمد ﷺ؛ لوجود الرسالة بيننا وكماها، ووجود الطائفة الظاهرة على الحق، والتي تهدي به، وتدعو الناس للإسلام الصحيح؛ عقيدةً، وعبادةً، وسلوكًا، ومنهجًا. ولا شك بأن واقع أولئك العرب في عصر الجاهلية مماثل لما عليه كثير من طوائف المسلمين اليوم!.

بناءً على ذلك نقول: العلاج هو ذلك العلاج، والدواء هو ذلك الدواء، فبمثل ما عالج النبي ﷺ تلك الجاهلية الأولى، فعلى الدعاة الإسلاميين اليوم جميعهم أن يعالجوا سوء الفهم لمعنى: «لا إله إلا الله»، ويعالجوا واقعهم الأليم بذلك العلاج والدواء نفسه.

ومعنى هذا واضح جداً إذا تدبرنا قول الله ﻋَﻠَﻴْﻬِﻤُ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝﴾

[الأحزاب].

فرسولنا ﷺ هو الأسوة الحسنة في معالجة مشاكل المسلمين في عالمنا المعاصر، وفي كل وقت وحين، ويقتضي ذلك منا أن نبدأ بما بدأ به نبينا ﷺ، وهو إصلاح ما فسد من عقائد المسلمين أولاً، ومن عباداتهم ثانياً، ومن سلوكهم ثالثاً.

ولست أعني من هذا الترتيب فصل الأمر الأول بدءاً بالأهم ثم المهم

ثم ما دونه! وإنما أريد أن يهتم بذلك المسلمون اهتمامًا شديدًا كبيرًا، وأعني بالمسلمين بطبيعة الأمر الدعاة، ولعل الأصح أن نقول: العلماء منهم؛ لأن الدعاة اليوم - مع الأسف الشديد - يدخل فيهم كل مسلم، ولو كان على فقر مدقع من العلم، فصاروا يعدُّون أنفسهم دعاةً إلى الإسلام.

وإذا تذكرنا تلك القاعدة المعروفة، لا أقول عند العلماء فقط، بل عند العقلاء جميعًا، تلك القاعدة التي تقول: «فاقد الشيء لا يعطيه»، فإننا نعلم اليوم بأن هناك طائفة كبيرة جدًا يعدون بالملايين من المسلمين، تنصرف الأنظار إليهم حين يُطلق لفظة الدعاة؛ وأعني بهم: جماعة الدعوة، أو جماعة التبليغ، ومع ذلك فأكثرهم كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف].

ومعلوم من طريقة دعوتهم أنهم قد عرضوا بالكلية عن الاهتمام بالأصل الأول، أو بالأمر الأهم من الأمور التي ذكرتُ آنفًا، وأعني العقيدة والعبادة والسلوك، وأعرضوا عن الإصلاح الذي بدأ به الرسول ﷺ، بل بدأ به كل الأنبياء، وقد بينه الله تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. فهم لا يُعنون بهذا الأصل الأصيل، والركن الأول من أركان الإسلام، كما هو معلوم لدى المسلمين جميعًا.

هذا الأصل الذي قام يدعو إليه أول رسول من الرسل الكرام، ألا وهو نوح عليه السلام، قرابة ألف سنة، والجميع يعلم أن الشرائع السابقة لم يكن فيها من التفصيل لأحكام العبادات والمعاملات ما هو معروف في ديننا

هذا؛ لأنه الدين الخاتم للشرائع والأديان، ومع ذلك فقد لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، يصرف وقته وجل اهتمامه للدعوة إلى التوحيد، ومع ذلك أعرض قومه عن دعوته، كما بين الله ﷻ ذلك في محكم التنزيل: ﴿ وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ الْهَيْكَلُ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ (٢٣) [نوح].

فهذا يدل دلالة قاطعة على أن أهم شيء ينبغي على الدعوة إلى الإسلام الحق الاهتمام به دائمًا: هو الدعوة إلى التوحيد، وهو معنى قوله تبارك وتعالى: ﴿ فَأَعْلَمْنَا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩].

□ هكذا كانت سنة النبي ﷺ عملاً وتعليماً.

أما فعله فلا يحتاج إلى بحث؛ لأن النبي ﷺ في العهد المكي إنما كان فعله ودعوته محصورة في الغالب في دعوة قومه إلى عبادة الله لا شريك له.

□ أما تعليماً: ففي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه الوارد في «الصحاحين»، أن النبي ﷺ عندما أرسل معاذاً إلى اليمن قال له: «ليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله، فإن هم أطاعوا لذلك..» الحديث (١).

فقد أمر النبي ﷺ أصحابه أن يبدأوا بها بدأ هو به، وهو الدعوة إلى التوحيد، ولا شك أن هناك فرقاً كبيراً جداً بين أولئك العرب المشركين؛ من حيث أنهم كانوا يفهمون ما يقال لهم بلغتهم، وبين أغلب العرب المسلمين اليوم الذين ليسو بحاجة أن يدعوا إلى أن يقولوا: لا إله إلا الله؛ لأنهم قائلون بها على اختلاف مذاهبهم وطرائقهم وعقائدهم، فكلهم

(١) رواه البخاري (١٣٩٥)، ومسلم (١٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

يقولون: لا إله إلا الله، لكنهم في الواقع بحاجة إلى أن يفهموا معنى هذه الكلمة الطيبة، وهذا الفرق فرق جوهرى جداً بين العرب الأولين الذين كانوا إذا دعاهم رسول الله ﷺ أن يقولوا: لا إله إلا الله، يستكبرون، كما هو مبين في صريح القرآن العظيم، لماذا يستكبرون؟ لأنهم يفهمون أن معنى هذه الكلمة: أن لا يتخذوا مع الله أنداداً، وألا يعبدوا إلا الله، وهم كانوا يعبدون غيره، فهم ينادون غير الله، ويستغيثون بغير الله، فضلاً عن النذر لغير الله، والتوسل بغير الله، والذبح لغيره، والتحاكم لسواه.. إلخ.

هذه الوسائل الشركية الوثنية المعروفة التي كانوا يفعلونها، ومع ذلك كانوا يعلمون أن من لوازم هذه الكلمة الطيبة: «لا إله إلا الله» من حيث اللغة العربية أن يتبرؤوا من كل هذه الأمور؛ لمنافاتها لمعنى: «لا إله إلا الله».

غالب المسلمين اليوم لا يفقهون معنى «لا إله إلا الله» فهما جيداً:

أما غالب المسلمين اليوم الذين يشهدون بأن: «لا إله إلا الله» فهم لا يفقهون معناها جيداً، بل لعلمهم يفهمون معناها فهماً معكوساً ومقلوباً تماماً؛ أضرب لذلك مثلاً: بعضهم أَلْف رسالة في معنى «لا إله إلا الله»، ففسرها: لا رب إلا الله!!

وهذا المعنى هو الذي كان المشركون يؤمنون به، وكانوا عليه، ومع ذلك لم ينفعهم إيمانهم هذا، قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

فالمشركون كانوا يؤمنون بأن لهذا الكون خالقاً لا شريك له، ولكنهم كانوا يجعلون مع الله أنداداً وشركاء في عبادته، فهم يؤمنون بأن الرب

واحد، ولكن يعتقدون بأن المعبودات كثيرة، ولذلك رد الله تعالى - هذا الاعتقاد - الذي سمّاه: عبادةً لغيره من دونه، بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى...﴾ [الزمر: ٣].

لقد كان المشركون يعلمون أن قول: «لا إله إلا الله» يلزم له التبرؤ من عبادة ما دون الله ﷻ، أما غالب المسلمين اليوم؛ فقد فسروا هذه الكلمة الطيبة: «لا إله إلا الله»، ب: «لا رب إلا الله!!».

فإذا قال المسلم: «لا إله إلا الله» وعبد مع الله غيره؛ فهو والمشركون سواء - عقيدة - وإن كان ظاهره الإسلام؛ لأنه يقول لفظة: «لا إله إلا الله» فهو بهذه العبارة مسلم ظاهراً، وهذا مما يوجب علينا جميعاً - بصفتنا دعاة إلى الإسلام - الدعوة إلى التوحيد، وإقامة الحجة على من جهل معنى: «لا إله إلا الله» وهو واقع في خلافها، بخلاف المشرك؛ لأنه يأبى أن يقول: «لا إله إلا الله»، فهو ليس مسلماً لا ظاهراً ولا باطناً.

• فأما جماهير المسلمين اليوم هم مسلمون؛ لأن الرسول ﷺ قال: «فإذا قالوها عصموا مني دمائهم وأمواهم، إلا بحقها، وحسابهم على الله تعالى»^(١).

لذلك، فإني أقول كلمة - وهي نادرة الصدور مني - وهي: إن واقع كثير من المسلمين اليوم شرٌّ مما كان عليه عامة العرب في الجاهلية الأولى، من حيث سوء الفهم لمعنى هذه الكلمة الطيبة؛ لأن المشركين العرب كانوا يفهمون، ولكنهم لا يؤمنون، أما غالب المسلمين اليوم، فإنهم يقولون ما لا يعتقدون، يقولون: «لا إله إلا الله»، ولا يؤمنون حقاً بمعناها.

(١) رواه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

لذلك فأنا أعتقد أن أول واجب على الدعاة المسلمين حقاً هو أن يدندنوا حول هذه الكلمة، وحول بيان معناها بتلخيص، ثم بتفصيل لوازم هذه الكلمة الطيبة؛ بالإخلاص لله ﷻ في العبادات بكل أنواعها؛ لأن الله ﷻ لما حكى عن المشركين قولهم: ﴿... مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ جعل كل عبادة توجه لغير الله كفرةً بالكلمة الطيبة: «لا إله إلا الله».

لهذا أنا أقول اليوم: لا فائدة مطلقاً من تكتيل المسلمين، ومن تجميعهم، ثم تركهم في ضلالهم دون فهم هذه الكلمة الطيبة، وهذا لا يفيدهم في الدنيا قبل الآخرة!

• نحن نعلم قول النبي ﷺ: «من مات وهو يشهد أن لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه حرّم الله بدنه على النار»، وفي رواية أخرى: «دخل الجنة»^(١).

فيمكن ضمان دخول الجنة لمن قالها مخلصاً، حتى لو كان بعد لأيٍ وعذاب يمسُّ القائل، والمعتقد الاعتقاد الصحيح لهذه الكلمة، فإنه قد يعذب بناءً على ما ارتكب واجترح من المعاصي والآثام، ولكن سيكون مصيره في النهاية دخول الجنة.

وعلى العكس من ذلك؛ من قال هذه الكلمة الطيبة بلسانه ولمّا يدخل الإيمان قلبه؛ فذلك لا يفيد شياً في الآخرة، قد يفيد في الدنيا النجاة من القتال ومن القتل إذا كان للمسلمين قوة وسلطان، وأما في الآخرة فلا يفيد شياً إلا إذا كان قائلاً لها وهو فاهم معناها أولاً،

(١) حديث صحيح: وهو مخرج في «الصحيحة» (٣٣٥٥).

ومعتقدًا لهذا المعنى ثانيًا؛ لأن الفهم وحده لا يكفي، إلا إذا اقترن مع الفهم الإيمان بهذا المفهوم، وهذه النقطة؛ أظن أن أكثر الناس عنها غافلون! وهي لا يلزم من الفهم الإيمان، بل لا بد أن يقترن كلٌّ من الأمرين مع الآخرة حتى يكون مؤمنًا، ذلك لأن كثيرًا من أهل الكتاب؛ من اليهود والنصارى كانوا يعرفون أن محمدًا ﷺ رسول صادق فيما يدعيه من الرسالة والنبوة، ولكن مع هذه المعرفة التي شهد لهم بها ربنا ﷻ حين قال: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] ومع ذلك هذه المعرفة ما أغنت عنهم من الله شيئًا، لماذا؟

لأنهم لم يصدقوه فيما يدعيه من النبوة والرسالة، ولذلك فإن الإيمان تسبقه المعرفة، ولا تكفي وحدها، بل لا بد أن يقترن مع المعرفة الإيمان والإذعان؛ لأن المولى ﷻ يقول في محكم التنزيل: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد: ١٩].

وعلى هذا فإذا قال المسلم: «لا إله إلا الله» بلسانه فعليه أن يضم إلى ذلك معرفة هذه الكلمة بإيجاز ثم بالتفصيل، فإذا عرف وصدق وآمن فهو الذي يصدق عليه تلك الأحاديث التي ذكرت بعضها آنفًا، ومنها قوله ﷻ مشيرًا إلى شيء من التفصيل الذي ذكرته آنفًا: «من قال: لا إله إلا الله نفعته يومًا من دهره»^(١)، أي: كانت هذه الكلمة الطيبة بعد معرفة معناها

(١) صحيح: «من قال لا إله إلا الله، نفعته يومًا من دهره، يصبه قبل ذلك ما أصابه» رواه البزار، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن أبي هريرة، وكذا رواه ابن الأعرابي، والطبراني في «الصغير»، وأبو نعيم في «الحلية»، والخطيب، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٩٣٢)، و«صحيح الجامع» (٦٤٣٤).

منجية له من الخلود في النار، وهذا أكرره لكي يرسخ في الأذهان، وقد لا يكون قد قام بمقتضاها من كمال العمل الصالح، والانتها عن المعاصي، ولكنه سلم من الشرك الأكبر، وقام بما يقتضيه ويستلزمه شروط الإيمان؛ من الأعمال القلبية - والظاهرية حسب اجتهاد بعض أهل العلم، وفيه تفصيل ليس هذا محل بسطه - وهو تحت المشيئة، وقد يدخل النار جزاء ما ارتكب، أو فعل من المعاصي، أو أخل ببعض الواجبات، ثم تنجيه هذه الكلمة الطيبة، أو يعفو الله عنه بفضل منه وكرمه، وهذا معنى قوله ﷺ المتقدم ذكره: «من قال: لا إله إلا الله، نفعته يوماً من دهره»، أما من قالها بلسانه، ولم يفقه معناها، أو فقه معناها، ولكنه لم يؤمن بهذا المعنى؛ فهذا لا ينفعه قول: «لا إله إلا الله» إلا في العاجلة إذا كان يعيش في ظل الحكم الإسلامي، وليس في الآجلة.

□ لذلك لا بد من التركيز على الدعوة إلى التوحيد في كل مجتمع، أو تكتل إسلامي يسعى - حقيقة وحثيئاً - إلى ما تدندن به كل الجماعات الإسلامية أو جلها، وهو تحقيق المجتمع الإسلامي، وإقامة الدولة المسلمة؛ التي تحكم بما أنزل الله على أي أرض لا تحكم بما أنزل الله.

هذه الجماعات أو هذه الطوائف لا يمكنها أن تحقق هذه الغاية التي أجمعوا على تحقيقها، وعلى السعي حثيئاً إلى جعلها حقيقة واقعية إلا بالبدء بما بدأ به ﷺ.

وجوب الاهتمام بالعميقة لا يعني إهمال باقي الشرع؛ من عبادات، وسلوك، ومعاملات، وأخلاق؛

وأعيد التنبيه بأنني لا أعني الكلام في بيان الأهم فالمهم وما دونه على

أن يقتصر الدعاة فقط على الدعوة إلى هذه الكلمة الطيبة وفهم معناها، بعد أن أتم الله ﷻ علينا النعمة بإكمال دينه!

بل لا بد لهؤلاء الدعاة أن يحملوا الإسلام كلاً لا يتجزأ، وأنا حين أقول هذا بعد ذلك البيان الذي خلاصته: أن يهتم الدعاة الإسلاميون حقاً بأهم ما جاء به الإسلام، وهو تفهيم المسلمين العقيدة الصحيحة، النابعة من الكلمة الطيبة: «لا إله إلا الله» أريد أن أسترعي النظر إلى أن هذا البيان لا يعني أن يفهم المسلم فقط أن معنى: «لا إله إلا الله»، هو: لا معبود بحق في الوجود إلا الله فقط! بل هذا يستلزم أيضاً أن يفهم العبادات التي ينبغي أن يُعبد ربنا ﷻ بها، ولا يُوجه شيء منها لعبد من عباد الله تبارك وتعالى، فهذا التفصيل لا بد أن يقترن بيانه أيضاً بذلك المعنى الموجز للكلمة الطيبة»^(١).

□ قال رحمه الله: «إن عقيدة التوحيد لكل لوازمها ومتطلباتها ليست واضحة للأسف في أذهان كثير ممن آمنوا بالعقيدة السلفية نفسها، فضلاً عن الآخرين الذين اتَّبَعُوا العقائد الأشعرية أو الماتريدية أو الجهمية»^(٢).

فضل التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله:

شهادة أن لا إله إلا الله هي سبيل الفوز بدخول الجنة والنجاة من النار، وهي سبيل السعادة في الدارين، وهي الكلمة التي أرسل الله بها رسله، وأنزل بها كتبه، ولأجلها خُلِقَت الدنيا والآخرة والجنة والنار، وفي

(١) انظر: «التوحيد أو لا يا دعاة الإسلام» (ص ٥ - ٢٣) للشيخ الألباني - طبع مكتبة المعارف - الرياض.

(٢) المصدر السابق (ص ٢٥).

شأنها تكون الشقاوة والسعادة، وبها تُؤخذ الكتب باليمين أو الشمال، وبها يثقل أو يخف الميزان، وبها أخذ الله الميثاق، وعليها الجزاء والمحاسبة، وعنهما السؤال يوم التلاق، قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف]، وهي أعظم نعمة أنعم الله ﷻ بها على عباده أن هداهم إليها، ولهذا ذكرها في سورة النحل التي هي سورة النعم، فقدمها أولاً قبل كل نعمة فقال تعالى: ﴿يُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل]، وهي كلمة الشهادة ومفتاح دار السعادة، وهي أصل الدين وأساسه، ورأس أمره، وساق شجرته وعموده، فسطاطه، وبقية أركان الدين وفرائضه متفرّعه عنها، متشعبة منها مكملات لها، مقيّدة بالتزام معناها والعمل بمقتضاها.

وهي العروة الوثقى: التي قال الله ﷻ: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦] قاله سعيد بن جبير والضحاك^(١).

وهي العهد الذي ذكر الله ﷻ: إذ يقول: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم] قال ذلك ابن عباس رضي الله عنهما قال: «هو شهادة أن لا إله إلا الله»^(٢).

وهي الحسنی: التي قال الله ﷻ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنِيئَةٌ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الليل]. قاله أبو عبد الرحمن السلمي

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/٣١٩).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/١٤٥).

والضحاك^(١).

وهي كلمة الحق:

قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٦﴾ [الزخرف] قاله
البيهقي^(٢).

وهي كلمة التقوى: قال تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا
وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح]^(٣).

وهي القول الثابت: الذي ذكر الله ﷻ إذ يقول تعالى: ﴿يَثِبْتُ اللَّهُ
الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]
أخرجاه في الصحيحين عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ^(٤).

وهي الكلمة الطيبة: المضروبة مثلاً قبل ذلك إذ يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ
كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي
السَّمَاءِ﴾ ﴿٢٤﴾ [إبراهيم: ٢٤].

□ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أصلها ثابت في قلب المؤمن، وفرعها العمل
الصالح في السماء صاعد إلى الله ﷻ». وكذا قال الضحاك وسعيد بن جبير
وعكرمة ومجاهد^(٥).

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/٥٥٣ - ٥٥٤)، و«معالم التنزيل» للبيهقي
(٥٨٣/٥).

(٢) «معالم التنزيل» للبيهقي (٥/١١٠).

(٣) «تفسير الطبري» (٢٦/١٠٤).

(٤) البخاري (٨/٣٧٨) في تفسير سورة إبراهيم، باب: يثبت الله الذين آمنوا بالقول
الثابت.

(٥) «تفسير ابن كثير» (٢/٥٤٩).

وهي الحسنة: التي ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ إذ يقول: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعِ يَوْمِذِي عَمْتُونَ﴾ [النمل]. قال ذلك زين العابدين وإبراهيم النخعي، وهي تمحو الذنوب والخطايا (١).

وهي المثل الأعلى: الذي قال الله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧] قال ذلك قتادة ومحمد بن جرير الطبري ومحمد بن المنكدر (٢).

وهي أفضل الذكر، وأثقل شيء في ميزان العبد يوم القيامة:

• عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ نَوْحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لابنه عند موته: آمرك بلا إله إلا الله، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وُضِعْنَ في كَفَّةٍ وُضِعَتْ لآله إلا الله في كَفَّةٍ لرجحت بهنَّ لآله إلا الله، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كنَّ حلقةً مبهمَةً لفصمتهنَّ لآله إلا الله» (٣).

• وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ اللَّهَ سَيَخْلُصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُنْشَرُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ سِجْلًا، كُلُّ سِجْلٍ مِثْلُ مَدِّ الْبَصْرِ، ثُمَّ

(١) «تفسير الطبري» (٨/ ١١٠)، و«تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٠٥)، و«الدر المنثور» (٣/ ٤٠٤).

(٢) «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٨)، وابن كثير (٣/ ٤٤٠)، (٣/ ٤٤١)، وانظر: «معارج القبول» (٢/ ٤١٠ - ٤١٢).

(٣) إسناده صحيح: رواه أحمد (٢/ ٢٢٥). وسنده صحيح.

يقول: **أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟** أَظْلَمَكَ كِتَابِي الْحَافِظُونَ؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتَخْرُجُ بَطَاقَةً فِيهَا: **أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**، فيقول: **أَحْضِرْ وَزَنِّكَ**. فيقول: يا رب! ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: **فإِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، فَتَوْضِعُ السَّجَلَاتُ فِي كَفِّهِ، وَالبَطَاقَةُ فِي كَفِّهِ، فَطَاشَتْ السَّجَلَاتُ، وَثَقَلَتِ البَطَاقَةُ، وَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى شَيْءٌ**»^(١).

• عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُصَاحُ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُنْشَرُ لَهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سَجَلًا كُلُّ سَجَلٍ مِنْهَا مَدَّ البَصَرِ ثُمَّ يُقَالُ: **أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟** فيقول: لا يا رب، فيقال: **أَلَيْكَ عَذْرٌ أَوْ حَسَنَةٌ؟** فِيهَا بُ الرِّجُلِ ظَلَمَ عَلَيْكَ، فَيُخْرَجُ لَهُ بَطَاقَةٌ فِيهَا **أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**. فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: **إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، فَتَوْضِعُ السَّجَلَاتُ فِي كَفِّهِ وَالبَطَاقَةُ فِي كَفِّهِ، فَطَاشَتْ السَّجَلَاتُ، وَثَقُلَتِ البَطَاقَةُ**»^(٢).

وهي سبب النجاة من النيران:

• عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ سمع مؤذناً يقول: «أشهد أن لا إله إلا الله»

(١) صحيح: رواه أحمد (٢/٢١٣، ٢٢١-٢٢٢)، والترمذي (٥/٢٤-٢٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان»: وقال الترمذي: حديث حسن غريب، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٧٦)، و«السلسلة الصحيحة» (١٣٥).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٦٤١)، وأحمد (٢/٢١٣)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، والحاكم في «المستدرک»، وقال الشيخ أحمد شاکر في تعليقه على «المسند» رقم (١١٩٤): إسناده صحيح، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٨٠٩٥).

فقال ﷺ: «خرجت من النار»^(١).

- وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرّم الله عليه النار»^(٢).
- وفي حديث الشفاعة: «أخرجوا من النار من قال لا إله إلا الله، وكان في قلبه مثقال ذرّة من إيمان».

وهي سبب دخول الجنة سلعة الله الغالية:

- عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، وأن النار حق أدخله الله الجنة من أي أبواب الجنة الثمانية شاء»^(٣).
- وفي رواية: «أدخله الله الجنة على ما كان من عمل»^(٤).

وهي التي لا يحجبها شيء دون الله عز وجل:

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ما من عبد قال: لا إله إلا الله مُخلصاً إلا فُتحت لها أبواب السماء حتى تُفضي إلى العرش»^(٥).

(١) رواه مسلم (١/٢٨٨/ح ٣٨٢).

(٢) رواه مسلم (١/٥٧-٥٨/ح ٢٩).

(٣) رواه البخاري (٦/٤٧٤) - كتاب الأنبياء - باب قول الله تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ

الْكِتَابَ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ ، ومسلم (١/٥٧-)

(٣٨) - كتاب الإيمان - باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً.

(٤) نفس الهامش السابق.

(٥) إسناده حسن: رواه الترمذي (٥/٥٧٥/ح ٣٥٩٠) في الدعوات، باب: رقم

وهي أعلى شعب الإيمان:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون - شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق» ^(١).

التوحيد أصل الدين:

□ قال ابن تيمية رحمته الله: «والتوحيد هو أصل الدين الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين ديناً غيره، وبه أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، كما قال الله: ﴿ وَسَأَلْنَا مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبُدُونَ ﴾ [٤٥] ﴿ [الزخرف].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [٢٥] ﴿ [الأنبياء].. وقد ذكر الله ﷻ عن كل من الرسل أنه افتتح دعوته بأن قال لقومه: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [هود: ٥٠].

والمشركون - من قريش وغيرهم - الذين أخبر القرآن بشركهم واستحل النبي ﷺ دماءهم وأموالهم، وسبى حريمهم وأوجب لهم النار - كانوا مقربين بأن الله وحده خلق السماوات والأرض كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [لقمان].

وكان المشركون الذين جعلوا مع الله آلهة أخرى مقربين بأن آلهتهم

(١٢٧)، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(١) رواه البخاري (٥١/١) في الإيمان - باب أمور الإيمان، ومسلم

(١/٦٣ ح/٣٥) في الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها.

مخلوقة، ولكنهم كانوا يتخذونهم شُفَعَاءَ وَيَتَقَرَّبُونَ بِعِبَادَتِهِمْ إِلَيْهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْتَبِهُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ، وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس] (١).

□ وقال أيضاً: «الدَّاخِلُونَ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا لَمْ يَحْقُقُوا التَّوْحِيدَ وَاتَّبَعَ الرَّسُولِ، بَلْ دَعَوْا الشُّيُوخَ الْغَائِبِينَ وَاسْتَعَاثُوا بِهِمْ، فَلَهُمْ مِنَ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ نَصِيبٌ بِحَسَبِ مَا فِيهِمْ مِمَّا يُرْضِي الشَّيْطَانَ. وَمِنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ فِيهِمْ عِبَادَةٌ وَدِينٌ مَعَ نَوْعٍ جَهْلٍ.

وَدِينُ الْإِسْلَامِ مَبْنِيٌّ عَلَى أَصْلَيْنِ: عَلَى أَنْ يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا يَشْرِكُ بِهِ شَيْءٌ، وَعَلَى أَنْ يُعْبَدَ اللَّهُ بِمَا شَرَعَهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ. وَهَذَانِ هُمَا حَقِيقَةُ قَوْلِنَا: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ». فَالْإِلَهَ هُوَ الَّذِي تَأَلَّهُ الْقُلُوبُ عِبَادَةً وَاسْتِعَانَةً وَحُبَّةً وَتَعْظِيمًا وَخَوْفًا وَرَجَاءً وَإِجْلَالًا وَإِكْرَامًا. وَاللَّهُ جَلَّ لَهُ حَقٌّ لَا يَشْرِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ، فَلَا يُعْبَدُ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يُدْعَى إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يُخَافُ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يُطَاعُ إِلَّا اللَّهُ» (٢).

□ وقال عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ وقوله أي: محمد بن عبد الوهاب -: «أَنْ يُعْبَدُوهُ وَلَا يَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» أَي: يُؤَحِّدُوهُ بِالْعِبَادَةِ، فَلَا بُدَّ مِنَ التَّجَرُّدِ مِنَ الشَّرِكِ فِي الْعِبَادَةِ، وَمَنْ لَمْ يَتَجَرَّدْ مِنَ الشَّرِكِ فِي هَذِهِ الْعِبَادَةِ لَمْ يَكُنْ آتِيًا بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، بَلْ هُوَ مُشْرِكٌ قَدْ جَعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً.. وَفِيهِ أَيْضًا: أَنَّ الْعِبَادَةَ هِيَ التَّوْحِيدُ؛ لِأَنَّ الْخِصُومَةَ فِيهِ. وَفِي بَعْضِ الْأَثَارِ الْإِلَهِيَّةِ:

(١) «فَاعِدَةٌ جَلِيلَةٌ فِي التَّوَسُّلِ وَالْوَسِيلَةِ» ابْنُ تَيْمِيَّةٍ (١٦، ١٧) بِإِخْتِصَارٍ.

(٢) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ (١٧٩، ١٨٠) بِإِيجَازٍ.

«إني والجنّ والإنس في نبأ عظيم، أخلق ويُعبدُ غيري، أرزُقُ ويُشكّرُ سِوَايَ، خيري إلى عِبَادِي نَازِلٌ، وَشُرُّهُمُ إِلَيَّ صَاعِدٌ، أَحَبُّ إِلَيْهِمُ بِالنَّعْمِ، وَيَتَبَغَّضُونَ إِلَيَّ بِالْمَعَاصِي...»^(١).

معنى كلمة التوحيد «لا إله إلا الله»:

□ قال شارح «العقيدة الطحاوية»: «هذه كلمة التوحيد التي دعت إليها الرُّسُلُ كُلُّهُمُ، وإثباتُ التوحيد بهذه الكلمة باعتبار النفي والإثباتِ المقتضي للحضرة، فإنَّ الإثباتَ المُجَرَّدَ قد يتطرقُ إليه الاحتمال. ولهذا - والله أعلم - لما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، قال بعده: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة]. فإنه قد يخطر ببال أحدٍ خاطِرٌ شيطانيٌّ: هبْ أَنْ إِلَهَنَا وَاحِدٌ، فلغيرنا إلهٌ غيره، فقال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

وقد اعترض صاحبُ «المنتخب» على النحويين في تقدير الخبر في «لا إله إلا هو» فقالوا: تقيده: لا إله في الوجود إلا الله، فقال: يكون ذلك نفيًا لوجود الإله. ومعلومٌ أنَّ نفيَ الماهية أقوى في التوحيد الصرف من نفي الوجود، فكان إجراء الكلام على ظاهره والإعراض عن هذا الإضمار أولى. وقد أجاب أبو عبد الله المرسبي في «ريِّ الظُّمَانِ» فقال: هذا كلام من لا يعرف لسان العرب، فإنَّ «إله» في موضع المبتدأ على قول سيبويه، وعند غيره اسمٌ «لا»، وعلى التقديرين فلا بُدَّ من خير المبتدأ، وإلا فما قاله من الاستغناء عن الإضمارِ فاسدٌ^(٢).

(١) «فتح المجيد» شرح كتاب التوحيد (٢٨).

(٢) «شرح العقيدة الطحاوية» (١٠٩ - ١١١).

وقد علّق سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز على ذلك فقال: ما قاله صاحب المنتخب ليس بجيد، وهكذا ما قاله النحاة وأيدّه الشيخ أبو عبد الله المرسي من تقدير الخبر بكلمة «في الوجود» ليس بصحيح؛ لأن الآلهة المعبودة من دون الله كثيرة وموجودة، وتقدير الخبر بلفظ: «في الوجود» لا يحصل به المقصود من بيان أحقية ألوهية الله سبحانه، وبطلان ما سواها؛ لأن لقائل أن يقول: كيف تقولون: «لا إله في الوجود إلا الله»؟ وقد أخبر الله سبحانه عن وجود آلهة كثيرة للمشركين، كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [هود: ١٠١]، وقوله سبحانه: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ [الأحقاف: ٢٨] الآية.

فلا سبيل إلى التخلّص من هذا الاعتراض وبيان عظمة هذه الكلمة وأنها كلمة التوحيد المبطلّة لآلهة المشركين وعبادتهم من دون الله إلا بتقدير الخبر بغير ما ذكره النحاة، وهو كلمة «حق»؛ لأنها هي التي توضح بطلان جميع الآلهة وتبين أن الإله الحق والمعبود بالحق هو الله وحده، كما نبّه على ذلك جمع من أهل العلم منهم أبو العباس ابن تيمية وتلميذه العلامة ابن القيم وآخرون - رحمهم الله -.

ومن أدلة ذلك قوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢] فأوضح سبحانه في هذه الآية أنه هو الحق، وأن ما دعاه الناس من دونه هو الباطل، فشمّل ذلك جميع الآلهة المعبودة من دون الله من البشر والملائكة والجنّ وسائر المخلوقات، واتّضح بذلك أنه المعبود بالحق وحده، ولهذا أنكر المشركون هذه الكلمة وامتنعوا من الإقرار بها لعلمهم بأنها تُبطل آلهتهم؛ لأنهم فهموا أن المراد

بها نفى الألوهية بحق عن غير الله - سبحانه - ولهذا قالوا جواباً لنبينا محمد ﷺ لما قال لهم: «قولوا لا إله إلا الله» ﴿أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص]، وقالوا أيضاً: ﴿أَيْنَا لَتَارِكُوا إِلَهَيْنَا لِشَاعِرٍ تَجْنُونِ﴾ ﴿٣٦﴾ [الصفات] وما في معنى ذلك من الآيات. وبهذا التقدير يزول جميع الإشكال ويتضح الحق المطلوب^(١).

□ وقال الشيخ عبد الله بن جبر بن جبرين: «معنى لا إله إلا الله، هو عبادة الله وترك عبادة ما سواه، وهو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، فتضمنت هذه الكلمة العظيمة أن ما سوى الله ليس بإله، وأن إلهية ما سواه من أبطل الباطل، وإثباتها أظلم الظلم، فلا يستحق العبادة سواه، كما لا تصلح الإلهية لغيره، فتضمنت نفي الإلهية عما سواه، وإثباتها له وحده لا شريك له، وذلك يستلزم الأمر باتخاذها إلهًا وحده، والنهي عن اتخاذ غيره معه إلهًا، وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفي والإثبات.. وقد دخل في الإلهية جميع أنواع العبادة الصادرة عن تأله القلب لله بالحب والخضوع، والانقياد له وحده لا شريك له، فيجب إفراد الله تعالى بها كاللذعاء والخوف والمحبة، والتوكل والإنابة والتوبة والذبح والنذر والسجود، وجميع أنواع العبادة، فيجب صرف جميع ذلكم لله وحده لا شريك له، فمن صرف شيئاً مما لا يصلح إلا من العبادات لغير الله فهو مشرك ولو نطق بـ «لا إله إلا الله» إذا لم يعمل بما تقتضيه من التوحيد والإخلاص»^(٢).

(١) تعليق الشيخ عبد العزيز بن باز في هامش (ص ١٠٩ - ١١٠) «شرح العقيدة الطحاوية».

(٢) «الشهادتان.. معناها وما تستلزمه كل منهما» (٢٢، ٢٣).

شروط لا إله إلا الله:

ذكر صاحب المعارج شروطاً سبعة حتى تنفع صاحبها في الآخرة وهي مستنبطة من الكتاب والسنة وهي:

الأول: العلم بمعناها نفيًا، وإثباتًا:

نفيًا للألوهية، واستحقاق العبادة عن غير الله، وهو الكفر بالطاغوت. وإثباتًا للألوهية لله وحده وهو -الإيمان بالله، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، فبدأ بالعلم قبل العمل، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فسرها غير واحد من السلف أنها: لا إله إلا الله.

• عن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١).

كمال العلم بالله في معرفة خمسة أشياء:

كمال العلم بالله يكمن في معرفة خمسة أشياء:

أولها: معرفة الخالق تبارك وتعالى وهو العلم بتوحيد الربوبية أي اعتقاد انفراده سبحانه وتعالى بالخلق والرزق والتدبير والإحياء والإماتة والنفع والضرّ والخفض والرفع والعطاء والمنع.
□ وانفراده بالملك والمُلك التام.

(١) رواه أحمد في «مسنده»، ومسلم (١/٥٥/٤٣) في كتاب الإيمان -باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً.

* وانفراده سبحانه بالأمر والنهي والتشريع والسيادة، قال تعالى:

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف].

ثانيها: معرفة أسمائه وصفاته وهو العلم بتوحيد الأسماء والصفات وهو أشرف أنواع العلم.

ثالثها: معرفة الطريق الموصل إلى الله وَجَعَلَهُ وهو العلم بتوحيد العبودية قال ابن تيمية رحمته: «مَنْ أَرَادَ السَّعَادَةَ الْأَبَدِيَةَ فَلْيَلْزِمْ عَتَبَةَ الْعِبُودِيَّةِ».

رابعها: معرفة عوائق الطريق وآفاته، وهو الشرك بجميع أنواعه وتقسياته وخطوات الشيطان وشبهاته.

خامسها: معرفة النَّفْسِ وعيوبها، والصبر على مداواتها من آفاتها، والاستعانة بالله في حفظها على منهج العبودية والتوحيد ^(١).

قال ابن القيم رحمته: «استكمال القوة العلمية إنما يكون بمعرفة فطره وبارئه ومعرفة أسمائه وصفاته، ومعرفة الطريق التي توصل إليه، ومعرفة آفاتها، ومعرفة نفسه ومعرفة عيوبها، فهذه المعارف الخمسة يحصل كمال قوته العلمية، وأعلم الناس أعرَفهم بها وأفقههم فيها» ^(٢).

وهذه المعرفة توجب الحياء منه، والمحبة له، وتعلُّق القلب به، والشوق إلى لقائه، وخشيته، والإنابة إليه، والأنس به، والفرار من الخلق إليه وتفاوتهم فيها لا يُحْصِيهِ إِلَّا الَّذِي عَرَفَهُمْ بِنَفْسِهِ، وكشف لقلوبهم من معرفته ما أخفاه عن سواهم، وكُلُّ أَشَارٍ إِلَى هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ بِحَسَبِ مَقَامِهِ،

(١) انظر: «شروط لا إله إلا الله» (ص ٢٤) للدكتور محمود عبد الرازق الرضواني -

مكتبة سلسبيل.

(٢) «الفوائد» لابن القيم (ص ٧٨).

وما كُشِفَ له منها.

• وقد قال أعرف الخلق به ﷺ: «لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»^(١).

وأخبر أنه سبحانه يفتح عليه يوم القيامة من محامده بما لا يُحْسِنُه
الآن»^(٢)،^(٣).

□ ومن أَعَزُّ أنواع المعرفة معرفة الله سبحانه بالجمال، وهي معرفة
خواص الخلق، وكلهم عرفه بصفة من صفاته، وأتمهم معرفة من عرفه
بكماله وجلاله وجماله سبحانه»^(٤).

وَجَمَّاعُ ذلك: الفقه في معاني أسمائه الحسنى، وجلالها وكمالها، وتفردِه
بذلك، وتعلُّقها بالخلق والأمر، فيكونُ فقيهاً في أوامره ونواهيه، وفقياً في
قضائه وقدره، فقيهاً في أسمائه وصفاته، فقيهاً في الحكم الديني الشرعي
والحكيم الكوني القدري. و ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ﴾^(٥) [الحديد].

الشرط الثاني: اليقين المنافي للشك:

بأن يكون قائلها مُستيقناً بمدلول هذه الكلمة يقيناً جازماً، فإنَّ الإيمان
لا يُغني فيه إلا علم اليقين لا علم الظن، فكيف إذا دخله الشك، قال الله

(١) جزء من حديث مسلم (٤٩٦) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) أي: النبي ﷺ، كما في حديث الشفاعة عند البخاري (٤٢٠٦)، ومسلم (١٩٣)
عن أنس رضي الله عنه.

(٣) «الفوائد» لابن القيم.

(٤) المصدر السابق.

وَعَلَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [١٥] [الحجرات].

فاشترط في صدق إيمانهم بالله ورسوله كونهم لم يرتابوا، أي لم يشكوا، فأما المرتاب فهو من المنافقين - والعياذ بالله - الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّمَا يَسْتَعِذُّنَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [١٥] [التوبة].

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقي الله بهما عبدٌ غير شاكٍّ فيهما إلا دخل الجنة»^(١).
وفي رواية: «لا يلقي الله بهما عبدٌ غير شاكٍّ فيهما فيُحجب عن الجنة»^(٢).

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا قعودًا حول رسول الله ﷺ، معنا أبو بكر وعمر، في نفرٍ، فقام رسول الله ﷺ من بين أظهرنا فأبطأ علينا وخشنا أن يُنقطع دُوننا وفزعنا فقمنا، فكنت أول من فزع، فخرجتُ أبتغي رسول الله ﷺ حتى أتيتُ حائطًا للأَنْصَارِ لبني النَّجَّارِ، فذرتُ به هل أجدُ له بابًا؟ فلم أجدُ، فإذا ربيعٌ يدخل في جوفِ حائطٍ من بئرٍ خارجةٍ - والربيعُ: الجدول) فأحتفزتُ كما يَحْتَفِزُ الثَّعْلَبُ^(٣)، فدخلتُ على رسول الله ﷺ، فقال: «أبو هريرة؟»، فقلتُ: نعم يا رسول الله. قال: «ما شأنك؟» قلتُ:

(١) رواه مسلم (٢٧)، وأحمد (١١/٣)، وابن حبان (إحسان - ٦٥٣٠)، وابن منده في «الإيمان» (٨٩).

(٢) رواه مسلم (٥٩/١ - ٦٠/٣١) - كتاب الإيمان - باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا.

(٣) احتفزت: أي تضاممت ليسعني المدخل.

كنت بين أظهرنا، فقامت فأبطأت علينا، فخشينا أن تقطع دوننا، ففرغنا، فكنت أول من فرغ، فأتيت هذا الحائط فاحتفرت كما يحتفر الثعلب، وهؤلاء الناس ورائي، فقال: «يا أبا هريرة -وأعطاني نعليه- قال: اذهب بنعلي هاتين، فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه بשרه بالجنة» فكان أول من لقيت عمر، فقال: ما هاتان النعلان يا أبا هريرة؟ فقلت: هاتان نعلا رسول الله ﷺ، بعثني بهما، من لقيت يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه، بשרه بالجنة. فضرب عمر يده بين ثديي فخرزت لاستي فقال: ارجع يا أبا هريرة. فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأجهشت بكاءً وركبني عمر فإذا هو على أثري، فقال لي رسول الله ﷺ: «ما لك يا أبا هريرة؟» قلت: لقيت عمر فأخبرته بالذي بعثني به، فضربني بين ثديي ضربة خرزت لاستي، قال: ارجع. فقال له رسول الله ﷺ: «يا عمر، ما حملك على ما فعلت؟» قال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي أبعت أبا هريرة بنعليك، من لقي^(١) يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه، بשרه بالجنة؟ قال: «نعم» قال: فلا تفعل، فإني أخشى أن يتكلم الناس عليها، فخلهم يعملون. قال رسول الله ﷺ: «فخلهم»^(٢).

□ وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «اليقين الإيمان كله»^(٣).

وأساس الرسالة هو تصديق الخبر وتنفيذ الأمر، والصحابة رضي الله عنهم

(١) أي: من لقيه أبو هريرة وهو يشهد أن لا إله إلا الله.

(٢) رواه مسلم (٣١).

(٣) البخاري في «الإيمان»، باب: الإيمان وقول النبي ﷺ بني الإسلام على خمس

صَدَقُوا تَصَدِيقًا جَازِمًا لَيْسَ فِيهِ وَهْمٌ وَلَا شَكٌّ وَلَا ظَنٌّ وَلَا تَرَدُّدٌ فِي كُلِّ مَا أَخْبَرَهُمْ عَنِ اللَّهِ وَعِنْدَهُ ﷺ وَهَذَا الْحَالُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ كُلُّ مُسْلِمٍ حَتَّى يَنْفَعَهُ فِي الْبَرْزَخِ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ وَيُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْمَيِّتَ يَصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ فَيُجَلِّسُ الرَّجُلُ الصَّالِحَ فِي قَبْرِهِ غَيْرَ فَرْعٍ وَلَا مَشْغُوفٍ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: فِيمَ كُنْتَ؟ فَيَقُولُ: كُنْتُ فِي الْإِسْلَامِ؟ فَيُقَالُ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَصَدَّقْنَاهُ فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ اللَّهَ؟ فَيَقُولُ: مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَرَى اللَّهَ، فَيُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قَبْلَ النَّارِ فَيَنْظُرُ إِلَيْهَا يَحْطُمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَا وَقَاكَ اللَّهُ، ثُمَّ يُفْرَجُ لَهُ قَبْلَ الْجَنَّةِ فَيَنْظُرُ إِلَى زَهْرَتِهَا وَمَا فِيهَا، فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا مَقْعُدُكَ، وَيُقَالُ لَهُ: عَلَى الْيَقِينِ كُنْتَ وَعَلَيْهِ مُتَّ وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»^(١).

□ وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاوزنا بها خير جَارٍ، النَّجَاشِيِّ، أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا، وَعَبَدْنَا اللَّهَ لَا نُؤَدِّي، وَلَا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ، فَلَمَّا بَلَغَ قَرِيشًا اتَّخَمَرُوا أَنْ يَبْعَثُوا إِلَى النَّجَاشِيِّ فِينَا رَجُلَيْنِ جَلْدَيْنِ^(٢)، وَأَنْ يَهْدُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَا مِمَّا يَسْتَرْفُ مِنْ مَتَاعِ مَكَّةَ.. ثُمَّ إِنَّهُمَا قَرَّبَا هَدَايَا مِمَّا يَسْتَرْفُ مِنْ مَتَاعِ مَكَّةَ.. ثُمَّ إِنَّهُمَا قَرَّبَا هَدَايَاهُمْ إِلَى النَّجَاشِيِّ، فَقَبِلَهَا مِنْهُمَا ثُمَّ كَلَّمَاهُ فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّهُ قَدْ صَبَا إِلَى بَلَدِكَ مِنَّا غِلْمَانٌ سَفَهَاءُ فَارْقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ، وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ لَا

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه في «الزهد» - باب ذكر القبر والبلبي (١٤٢٦/٢)

(٢٦٨)، وصححه الألباني (١٤٢٦/٢).

(٢) جلدَيْن: مثنى جلد وهو الرجل القوي في نفسه وجسده.

عرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم ليرُدُّهُمْ إليهم، فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه، قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشي كلامهم. فقالت بطارقتة حوله: صدقوا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم، قال: فغضب النجاشي ثم قال: لاها الله، وأيم الله، إذن لا أسلمهم إليهما ولا أكاد، قومًا جاوروني نزلوا بلادي واختاروني على من سواي، حتى أذعوههم فأسألهم ماذا يقول هذان في أمرهم؟ فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسن جوارهم ما جاوروني، قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض، ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول: والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا ﷺ، كائن في ذلك ما هو كائن، فلما جاءوا وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله، سألم فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الأمم؟ قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب، فقال له: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله، لئوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن

الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، قال: فعَدَدَ عليه أمور الإسلام -فصدَّقناه وأمنَّا، وأتبعناه على ما جاء به، فعبَدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرَّمنا ما حرَّم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعَدَّبونا وفتنونا عن ديننا، ليرُدُّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحلَّ ما كُنَّا نستحلُّ من الخبائث، فلما قهرُّونا وظلمونا وشقُّوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظلمَ عندك أيُّها الملكُ، قالت: فقال له النَّجاشيُّ: هل معك ممَّا جاء به عن الله من شيءٍ؟ قالت: فقال جعفرٌ: نعم. فقال النَّجاشيُّ: فأقرأه عليٌّ، فقرأ صدرًا من ﴿كَهَيْعَصَ﴾، قالت: فبكى والله النَّجاشيُّ حتى أخضَلَ لحيتهُ، وبكت أساقفتهُ حتى أخضلوا، مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثمَّ قال النَّجاشيُّ: إنَّ هذا والله والذي جاء به موسى ليخرُج من مشكاةٍ واحدةٍ، انطلقا، فوالله لا أسلِمهم إليكم أبدًا ولا أكادُ..»^(١).

• وقال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ وَهِيَ تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، يَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى قَلْبٍ مُوَفَّقٍ إِلَّا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ»^(٢).

□ وقد بيّن ابن القيم أن أساس التوحيد والهداية التي منَّ الله بها على

(١) صحيح: رواه أحمد (١/٢٠٢ - ٢٠٣) برقم (١٧٤٠)، ورقم (١٦٤٩)، وقال

الشيخ شاكر: إسناده صحيح، وصححه الألباني في «فقه السيرة» (ص ١٥).

(٢) حسن: رواه أحمد، والنسائي، وابن ماجه عن معاذ، وكذا رواه الحميدي وابن

حبان، وحسنه الألباني في «الصحيححة» (٢٢٧٨)، و«صحيح الجامع» (٥٧٩٣).

الموحدين يترتب على تصديق خبر الله من غير اعتراض شبهة تقدح في تصديقه، وامثال أوامره من غير اعتراض شهوة تمنع امتثاله، ثم قال ﷺ: «وعلى هذين الأصلين مدار الإيمان، وهما تصديق الخبر وطاعة الأمر، ويتبعهما أمران آخران، وهما نفْيُ شبهات الباطل الواردة عليه المانعة من كمال التصديق، وأن لا يخمش بها وجه تصديقه، ودفع شهوات الغيِّ الواردة عليه المانعة من كمال الامتثال»^(١).

وقال أيضًا: «وأما الدين فجماعه شيان تصديق الخبر، وطاعة الأمر، ومعلوم أن التنعم بالخبر بحسب شرفه وتصديقه، والمؤمن معه من الخبر الصادق عن الله وعن مخلوقاته ما ليس مع غيره، فهو من أعظم الناس نعيمًا بذلك، بخلاف من يكثر في أخبارهم الكذب، وأما طاعة الأمر فإن من كان ما يؤمر به صلاحًا وعدلًا ونافعًا يكون تنعمه به أعظم من تنعم من يؤمر بما ليس بصلاح ولا عدل ولا نافع، وهذا من الفرق بين الحق والباطل»^(٢).

□ والإيمان في باب الأخبار له ستة أركان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، ولا يكون الإيمان بهذه الأركان إلا باليقين الذي لا شك فيه، وهو التصديق الجازم الذي لا تكذيب فيه»^(٣).

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/٤٠).

(٢) «قاعدة في المحبة» (ص ١٥٥).

(٣) انظر: «شروط لا إله إلا الله» (ص ٤١) للدكتور محمود عبد الرازق الرضواني - طبع مكتبة سلسبيل.

والإيمان في باب الأوامر هو تصديق بالجنان، وقول باللسان، وعمل بالأركان.

الشرط الثالث: القبول المنافي للاستكبار:

* لقول الله تعالى عن الكافرين أهل النار: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣٥) وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَ هِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ [الصفات]. فجعل الله تعالى علة تعذيبهم وسببه هو استكبارهم عن قول لا إله إلا الله (١).

• عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلاً والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعانٌ لا تُمسك ماءً ولا تُنبت كلاً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» (٢).

الشرط الرابع: الانقياد المنافي للإباء والرد والترك:

* قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢].

* وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ

(١) «معارج القبول» (٢/٤٢١).

(٢) رواه البخاري (١/١٧٥) في العلم - باب فضل من علم وعلم، ومسلم

(٤/١٧٨٧ ح/٢٢٨٢) في الفضائل، باب: بيان مثل ما بعث النبي صلى الله عليه وسلم من

الهدى والعلم.

بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

[النساء].

* وقال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِينَ﴾ ﴿٣٤﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿وَإِنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسَلِمُوا لِلَّهِ﴾ [الزمر: ٥٤].

* وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾

[النساء: ١٢٥].

ومعنى يُسَلِّم وجهه أي ينقاد، وهو محسن موحد.

والمقصود بالانقياد -الذي هو شرط في أصل الإيمان: انقياد القلب، وهو شيء زائد على مجرد المعرفة والتصديق، فهو رؤية العبد أن عليه أن يطيع الله ﷻ، وإذا قصر في الطاعة، أو عصى؛ فهو ظالم لنفسه، وأما الانقياد بالجوارح، وترك المعاصي فهو شرط في كمال الإيمان الواجب، لا في أصل الإيمان، وتأمل قصة آدم وإبليس لتعرف الفرق: فآدم عليه السلام عصى ربه، وأكل من الشجرة، ولكنه لم يفقد من قلبه الانقياد فقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّنَا لَرِغْفَرٌ لَّنَا وَتَرَحَّمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخٰسِرِينَ﴾ [الأعراف].

* وإبليس عصى، ورد الأمر على الله فقال: ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ﴾ [الحجر]:

[٣٣]. مع كونه كان مصدقاً بالأمر، عارفاً بوجود الله، وربوبيته، فكفر

بذلك الإباء والرد لانتفاء الانقياد الباطن، واستحلال المعصية، وترك

الواجب، فمعصية آدم لم تكن كفراً، ومعصية إبليس كانت كفراً، فتنبه لهذا

الفرق. ولا خلاف بين أهل السنة في ذلك: أن من انتفى عنه الانقياد

الظاهر مع بقاء الانقياد الباطن لا يكفر، إلا ما كان من اختلافهم في تكفير

تارك الصلاة تكاسلاً، وكذا الصوم، والزكاة والحج»^(١).

الشرط الخامس: الصدق المنافي للكذب:

* قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة].

• وفي «الصحيحين» عن معاذ رضي الله عنه مرفوعاً: «ما من أحدٍ يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار»^(٢).

• وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يا معاذُ بنَ جَبَلٍ» - ومعاذُ رديفه على الرَّحْلِ -، قال: لَبَّيْكَ يا رسولَ الله وسَعَدَيْكَ، قال: «يا معاذُ» . قال: لبيك يا رسولَ الله وسَعَدَيْكَ، ثلاثاً، قال: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صَدَقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ»، قال: يا رسولَ الله، أَفَلَا أُخْبِرُ بِهِ النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا، قال: «إِذَا يَتَكَلَّمُوا، وَأَخْبِرُ بِهَا مَعَاذُ عِنْدَ الْمَوْتِ تَأْتِي»^(٣).

• وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَبْشِرُوا، وَبَشِّرُوا مَنْ وَرَاءَكُمْ، أَنَّهُ مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ صَادِقًا بِهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٤).

(١) «فضل الغني الحميد» للدكتور ياسر برهامي (ص ٥٥، ٥٦).

(٢) رواه البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢).

(٣) رواه البخاري - كتاب العلم، باب: مَنْ خَصَّ بِالْعِلْمِ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ (٥٩/١) (١٢٨)، وأحمد، ومسلم.

(٤) صحيح: رواه أحمد، والطبراني عن أبي موسى، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٧١٢)، و«صحيح الجامع» (٣٥).

الشرط السادس: الإخلاص المنافي للشرك:

* قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

• عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قيل يا رسول الله، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوْلَّ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَيَّ الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسَ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ».

وفي رواية: «خَالِصًا مُخْلِصًا مِنْ قَلْبِهِ»^(١).

• وقال رسول الله ﷺ: «أُذِّنُ فِي النَّاسِ أَنَّهُ مِنْ شَهِدٍ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ مُخْلِصًا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٢).

• وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ»^(٣).

• وقال رسول الله ﷺ: «لَنْ يُؤَافِيَ عَبْدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ»^(٤).

• وقال رسول الله ﷺ: «مَا قَالَ عَبْدٌ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قَطُّ مُخْلِصًا، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ حَتَّى تُفْضِيَ^(٥) إِلَى الْعَرْشِ مَا اجْتَنَبَ

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب: صفة الجنة والنار (٢٤٠٢/٥) (٦٢٠١).

(٢) صحيح: رواه البزار، وأبو يعلى عن عمر، وصححه الألباني «السلسلة» رقم (١٣٥)، و«صحيح الجامع» (٨٥١).

(٣) رواه البخاري (٥١٨/١١)، ومسلم (٤٥٦/١ ح ٢٦٤) عن عتبان بن مالك.

(٤) رواه أحمد، والبخاري عن عتبان بن مالك.

(٥) تصل.

الكبائر»^(١).

• وقال رسول الله ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله مُخْلِصًا دخل

الجنة»^(٢).

الإخلاص المنافي للشرك يقوّم على البراءة من التشبيه^(٣):

الإخلاص الذي يُنافي الشرك يقوم في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ على نفي التشبيه، وهو أساس التوحيد والبراءة من الشرك، وهو ثلاثة أنواع:

النوع الأول: البراءة من التشبه بالخالق وهو نفي شرك الربوبية.

النوع الثاني: البراءة والخلاص من شرك الألوهية، وهو من أقبح

أنواع الشرك.

النوع الثالث: البراءة والخلاص من شرك الأسماء والصفات وهو

تشبيه الخالق بالمخلوق، فشرك الأسماء والصفات يهدم التوحيد.

الإخلاص مانع لنوعين من الرياء:

النوع الأول: الرياء الأكبر وهو النفاق المخرج عن الملة كما كان شأن

المنافقين في عهد النبي ﷺ كعبد الله بن أبي بن سلول وغيره من المنافقين.

والنوع الثاني: الرياء الأصغر ومثاله التصنع للمخلوق وعدم

(١) حسن: رواه الترمذي عن أبي هريرة، وحسنه الألباني في «تحقيق المشكاة»

(٢٣١٤)، و«صحيح الجامع» (٥٦٤٨).

(٢) صحيح: رواه البزار عن أبي سعيد، ورواه أحمد، وابن حبان، وأبو نعيم في

«الحلية» عن جابر، وأبو نعيم في «الحلية» عن أنس، وصححه الألباني في

«الصحيحة» (٢٣٥٥)، و«صحيح الجامع» (٦٤٣٣).

(٣) انظر: «شروط لا إله إلا الله» (ص ٦٢، ٦٧، ٧٧).

الإخلاص لله تعالى في العبادة، بل يعمل المرائي لحِظِّ نفسه تارة ولطلب الدنيا تارة أخرى، ولطلب المنزلة والجاه عند الخلق تارة ثالثة، فله من عمله نصيب ولغيره منه نصيب، وذلك هو الشرك الخفي، وهو لا يُخرج من الملة كالشرك الأكبر الجلي، ولكنه يُنقص ثواب العمل وقد يجبطه إذا زاد واستفحل»^(١).

الشرط السابع: المحبة المنافية للبعض:

وهي محبة الله ورسوله والمؤمنين وبعض الكافرين والمنافقين.

* قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِمْ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ ءَأَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ءَعَزَّةٌ عَلَى الْكٰفِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

• وقال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده، وولده، والناس أجمعين»^(٢).

* وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ءَأندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده»^(٣).

□ قال ابن القيم: «وأصل العبادة وتمامها وكمالها هو المحبة وإفراد

(١) المصدر السابق (ص ٨٢).

(٢) رواه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤)، والنسائي (١٠٠/٨)، وابن ماجه (٦٧)، وأحمد (١٧٧/٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري (١٤/١) (١٤).

الرب سبحانه بها، فلا يُشرك العبد فيها غيره، والكلمة المتضمنة لهذين الأصليين هي الكلمة التي لا يدخل في الإسلام إلا بها، ولا يُعصم دمه وماله إلا بالإتيان بها، ولا ينجو من عذاب الله إلا بتحقيقها بالقلب واللسان وذكرها أفضل الذكر: لا إله إلا الله^(١).

ومدارُ كتب الله تعالى المنزلة من أولها إلى آخرها على الأمر بتلك المحبة ولوازمها، والنهي عن محبة ما يضادها وملازماتها.

فمحبة الله ﷻ هي أصل المحاب المحمودة في قلوب العبيد، وأصل الإيثار بالله والتوحيد، وأصل دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم.

• وعن عبد الله بن هشام رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخذٌ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحبُّ إليَّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: «لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك». فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحبُّ إليَّ من نفسي، فقال النبي ﷺ: «الآن يا عمر»^(٢)، فإذا كان هذا شأن محبة الرسول ﷺ فما ظنك بمحبة الله سبحانه وتعالى.

□ والله در ثامة بن أثال حين قال للنبي ﷺ عند إسلامه: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، يا محمد، والله ما كان على وجه الأرض وجهٌ أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحبَّ الوجوه إليَّ، والله ما كان من دينٍ أبغض إليَّ من دينك، فأصبح دينك أحبَّ الدين إليَّ...»^(٣).

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/١٣٤).

(٢) رواه البخاري (٦/٢٤٤٥) (٦٢٥٧).

(٣) جزء من حديث رواه البخاري- كتاب الخصومات- باب: التوثق ممن

وشرك المحبة شرك أكبر متعلق بالقلب، فمن أشرك مع الله في المحبة التي لا تصلح إلا لله وقع في الشرك الأكبر.

الشرط الثامن: الكفر بالطاغوت:

* وهو الكفر بما يُعبد من دون الله قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة].

التوحيد لا يتحقق إلا بنفي وإثبات:

لا يتحقق التوحيد إلا بنفي وإثبات، والمقصود نفي صفات الألوهية عما سوى الله وإثباتها لله وحده، فلا يتم التوحيد حتى يشهد أن لا إله إلا الله وأنه لا معبود بحق سواه فلا بُدَّ لصحة الإيمان بلا إله إلا الله من نفي عبادة ما سواه، أو الكفر بما يُعبد من دون الله ثم إثبات عبادة الله وحده، وهذه حقيقة التوحيد التي جاءت بها رسالة السماء ودعا إليها سائر الرسل والأنبياء.

• وعن والد أبي مالك الأشجعي أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ حُرْمَ مَالِهِ وَدَمِّهِ وَحَسَابِهِ عَلَى اللَّهِ» (١).

أصول الطواغيت التي تُعبد من دون الله:

«أصول الطواغيت التي تُعبد من دون الله محصورة في أصليْن من

تخشى معرفته (٢/٨٥٣) (٢٢٩٠).

(١) رواه أحمد، ومسلم (١/٥٣) (٢٣) - كتاب الإيمان - باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويؤمنوا بجميع ما جاء به النبي ﷺ (١/٥٣) (٢٢).

أبواب الضلال:

الأصل الأول: عبودية الهوى، وما يتعلق به من أصناف الدنيا وأنواع
المشتهيات.

والأصل الثاني: عبودية الشيطان وما يبثه في قلب الإنسان من
شبهات. وأعظم دعاوي الشيطان أن يشرك الإنسان بالله؛ ولذلك حذرنا
الله من الشرك كأعظم ذنب يقع فيه العبد، وأخذ العهد علينا والميثاق ألا
نقع في هذا الظلم العظيم فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ
ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ
الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا
ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَنُهَلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ [الأعراف].

• ومن حديث أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «جمّعهم فجعلهم أرواحاً، ثم
صوّرهم فاستنطقهم فتكلموا، ثم أخذ عليهم العهد والميثاق وأشهدهم
على أنفسهم ألسنتُ بربكم؟ قال: فإني أشهدُ عليكم السماوات السبع
والأرضين السبع وأشهدُ عليكم أبائكم آدم أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم
بهذا، اعلموا أنه لا إله غيري ولا ربّ غيري فلا تُشركوا بي شيئاً، وإني
سأرسلُ إليكم رسلي يذكرُّونكم عهدي وميثاقي وأنزل عليكم كتبي،
قالوا: شهدنا بأنك ربنا وإلهنا لا ربّ لنا غيرك، فأقرُّوا بذلك»^(١).

(١) حسن: رواه أحمد في «مسنده» (٢٠٧٢٦)، والحاكم في «المستدرک» (٣٥٣/٢) (٣٢٥٥)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وحسنه الألباني في «تحقيق المشكاة» (١٢٢).

□ قال ابن القيم رحمته: «والطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبودٍ أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة الله فهذه طاغوت العالم»^(١).

□ قال الشيخ ابن باز رحمته في شروط «لا إله إلا الله»:

علم يقين وإخلاص وصدق مع محبة وانقياد والقبول لها

وزيد ثامنها الكفران منك بما سوى الإله من الأشياء قد أها^(٢)

هام هام هام:

١- اعلم: أن شروط كلمة التوحيد ليست منحصرة في الشروط السبعة السابقة، بل كل عمل من أعمال القلب الواجبة شرط في قبولها يوم القيامة كذلك، كما يدل عليه القرآن.

فالتوكل من شروطها: قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

﴿المائدة﴾ [١٣].

والخوف من الله من شروطها: قال تعالى: ﴿وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

﴿آل عمران﴾ [١٧٥].

والرجاء والرغبة إلى الله من شروطها، قال الله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَكَ رَغْبًا

وَرَهْبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]. ولا يتصور مؤمن ليس في قلبه ولو مثقال ذرة من

التوكل، والخوف، والرجاء، وشكر نعمة الله، والصبر، والرضا، وسائر

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ٥٠).

(٢) «شروط لا إله إلا الله» (ص ١٨٩).

أعمال القلوب - التي سبق بيانها في عبادات القلب - وكذا النطق بالشهادتين باللسان مع القدرة؛ من شروط نفعها في الآخرة فلا يكفي الاعتقاد الباطن دون نطق.

٢- هذه الشروط يتفاوت الناس فيها: زيادةً، ونقصاناً؛ لأنها من الإيمان، والإيمان يزيد وينقص عند أهل السنة، كما دل عليه القرآن والسنة، وإجماع السلف، فمثلاً، العلم يتفاوت: فحقيقة العلم بمعنى لا إله إلا الله على الكمال: هو العلم بالدين كله، إذ معناها: لا معبود بحق إلا الله. والعبادة تشمل الدين كله، وكلما ازداد الإنسان علماً بشيء من الدين؛ ازداد تحقيقاً لمعنى لا إله إلا الله، وقد يكون الإنسان جاهلاً بأن الأمر الفلاني عبادة، ثم يعلم الآية أو الحديث، فيصير بها عالماً، وكان قبل ذلك جاهلاً، ولم يكن كافراً، فالذي هو شرط في أصل الإيمان - أي: في قبول لا إله إلا الله من العبد يوم القيامة لنجاته من الخلود في النار - أصل كل شرط من هذه الشروط.

فأصل العلم شرط، أو على الصحيح ركن من أركان الإيمان، ونعني به العلم الإجمالي ومعناه أن لا يُعبد إلا الله. وأصل الانقياد شرط أو ركن من أركان الإيمان ونعني به الانقياد القلبي والخضوع الباطن لله سبحانه.

وأصل اليقين شرط أو ركن من شروط أو أركان الإيمان ونعني به زوال الشك والتكذيب. وهكذا، وإلا فاليقين أيضاً يتفاوت وليس كل نقص فيه يكون شكاً، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَئِن لَّيُطَمِّئِنَّ قُلُوبَهُ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وكمال هذه

الشروط؛ شرط في كمال الإيمان وجوبًا واستحبابًا.

٣- هذه الشروط ليست شروطًا في قبول الإسلام الظاهر في الدنيا بل في نفع صاحبه في الآخرة، وتأمل جميع الأدلة التي ذكرت في كون هذه الأعمال شروطًا تجدها إنما هي في أمر الآخرة «حرمه الله على النار»، و«دخل الجنة»، ونحو ذلك، وليس في ثبوت عصمة الدم، والمال، بل النطق بها مع شهادة أن محمدًا رسول الله، كافٍ في عصمة الدم، والمال، وثبوت حكم الإسلام ظاهرًا، وجريان أحكام الإسلام على صاحبها في الدنيا، كما سيأتي له مزيد بيان - إن شاء الله - واحذر مما وقع فيه أهل البدع من الخلط بين الأمرين ^(١) لكن من صرح بعد نطقه بكلامه الواضح الصريح أنه قد انتفى من قلبه شيء من هذه الشروط، كمن سمعناه يقول بلسانه أنه يشك في صدق هذه الكلمة، أو في صدق الرسول والقرآن، فهو مرتد بهذا الكلام، وليس كافرًا أصليًا، وبينهما من الفروق ما يذكر تفصيله في كتب الفقه، وذلك أنه ثبت له حكم الإسلام ظاهرًا بالنطق المجرد، ثم لما قال ذلك صار مرتدًا، وإن كان هو عند الله، وفي الآخرة - إذا كان شكه من أول نطقه بالشهادتين - كافرًا من البداية لأن اليقين وغيره من الشروط، شرط في صحة الإسلام والإيمان باطنًا، وهذا الأمر لا علم لنا به؛ لأننا لم نؤمر أن نشق عن قلوب الناس، وإنما صاحبه الذي يخبر به، فهو إن كان كذلك كان من المنافقين، وهم مسلمون في الظاهر، فلو أن ذميًا - يهوديًا أو نصرانيًا - نطق بالشهادتين، ودخل في الإسلام، ثم قال بعد ذلك: أنه عند قوله لهما لم يكن صادقًا، أو لم يكن محبًا لله، ولرسوله ﷺ، لم يقبل

(١) يعني: قبول الإسلام ظاهرًا في الدنيا ونفع صاحبه في الآخرة.

قوله ذلك حتى يجعل ذمياً يقر بالجزية كما كان، بل هو مرتد لا يقبل منه إلا الإسلام أو السيف.

٤- لا يلزم المسلم حفظ هذه الشروط وعدها، بل المقصود وجودها في قلبه، ووجود كما لها الواجب في قلبه، ولسانه، وجوارحه، وما أحسن ما قاله الشيخ أحمد حكي في «معارض القبول» حيث قال: «ومعنى استكمالها اجتماعها في العبد والتزامه إياها بدون مناقضة لشيء منها، وليس المراد من ذلك عد ألفاظها وحفظها، فكم من عامي اجتمعت فيه، والتزمها، ولو قيل له أعددها لم يحسن ذلك، وكم حافظ لألفاظها يجري فيها كالسهم، وتراه يقع كثيراً فيما يناقضها، والتوفيق بيد الله والله المستعان»^(١) اهـ^(٢).

التوحيد الذي دعت إليه الرسل جميعاً:

التوحيد الذي دعت إليه الرسل جميعاً ونزلت به الكتب نوعان:

١- توحيد المعرفة والإثبات: وهو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى، وأسمائه وصفاته، وأفعاله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١١) [الشورى] كما أخبرنا عن نفسه في كتابه، وأخبر عنه رسوله ﷺ في سننه، وهذا يتضمن إقرار العبد بتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات.

٢- وتوحيد القصد والطلب: وهو عبادة الله وحده، وخلع ما يعبد من دونه، فهو توحيد الإرادة والطلب، أو توحيد الألوهية.

فالأول: إقرار من العباد بأفعال الله، وأسمائه، وصفاته، وتوحيده

بذلك.

(١) «معارض القبول» (٢/٤١٨).

(٢) «فضل الغني الحميد» للدكتور ياسر برهامي (ص ٥٨ - ٦٠).

والثاني: توحيد الله بأفعال العباد بأن يتوجهوا بها إلى الله وحده^(١).
وتوحيد الإلهية وإفراد الله بالعبادة هو الذي أرسلت به الرسل، وهو
أصل دعوة الأنبياء ولبّ دعوتهم، وأول شيء دعت إليه الرسل.

* قال تعالى: ﴿ وَسَأَلْنَا مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ
إِلَهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [٤٥] ﴿ [الزخرف].

* وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ
إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [٤٥] ﴿ [الأنبياء].

* وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ
وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

* وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ
إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [٥٩] ﴿ [الأعراف].

* وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ
غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [٦٥] ﴿ [الأعراف].

* وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا
لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٧٣].

* وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا
لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [التوبة: ٨٥].

* وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي
بِرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ [٣٦] ﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ [٣٧] ﴿ وجعلها كلمةً باقيةً في

(١) المصدر السابق (ص ١١).

عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ [الزخرف].

* وقص الله علينا قول إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَاَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خِطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ [الشعراء].

* وقال تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَايَكَ إِذْ رَأَيْتَهُ وَإِسمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ [البقرة].

* وقال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ لَا يَا بَنِيَّ كَمَا طَعَّمْتُ زُرْقَانِيهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمْ بِأَبِيهِ قَبْلَ أَنْ يَا بَنِيَّ كَمَا دَلَّكُمْ مَعًا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِذْ رَأَيْتَهُمْ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَلْبِغِي السِّجْنَءَ رَبَّابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَاَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ أَنْفَقْتُمْ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ [يوسف].

* وعلى لسان موسى عليه السلام: ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ [الأعراف].

والعبودية هي الحبُّ التام مع الذل التام.

وتوحيد الألوهية يعني صرف العبادات لله وحده بجميع أنواعها:

القلبية والقوليّة، والعملية والمالية.

بعض أنواع العبادات:

أ- **العبادات القلبية:** وهي أهم أنواع العبادات، وأساس لما وراءها ومنها: حب الله وحده، والخوف منه وحده، والإخلاص، والرجاء والرغبة وحسن الظن، والتوكل والصبر، والحمد والشكر، والتوبة، والمراقبة، والمحاسبة، والتفكير، والإخبارات، والذل، والزهد، والورع، وتعظيم حرّمات الله، والتواضع، والافتقار إلى الله، والغنى عن الخلق، والأنس بالله، والشوق إلى لقائه، وكف القلب عن المحرمات، كالحسد، والغلّ، والضغينة، والرياء، وسوء الظن بالله، والشك، وسوء الظن بالمسلمين، ومودة الكافرين.

«واعلم أن هذه العبادات القلبية روح التوحيد، وحقيقته توحيد القصد والطلب، وتوحيد الألوهية، ومعنى زكاة النفس هو: حصول هذه العبادات فيها، وإنما يتفاضل الناس يوم القيامة بما في قلوبهم من معرفة الله وعبادته، وهذه العبادات القلبية أكثرها - إن لم تكن جميعها - واجبة، لا تنقص من القلب إلا انتقص الإيوان، فلا تظن أن التوحيد هو: مجرد ترك ما يفعله الجهال عند القبور، بل حقيقته - مع ترك هذا الشرك وغيره - هي هذه العبادات القلبية، أن تصرف لله وحده، ولا يصرف شيء منها لغيره، وهي مسؤولية شخصية لكل واحد منا أن يسعى في تزكية نفسه بهذا الأمر العظيم، الذي مهما طالّت العبارة في شرحه فلن تفي المقام حقه، ولا توجد هذه العبادات بمجرد المعرفة، ففرق بين العلم والحال، ولكن بدوام تعاهد القلب، وأحواله، والتفكير، والتدبر، مع أداء العبادات الظاهرة،

عسى الله أن يمن علينا بصلاح قلوبنا، وتزكية نفوسنا، فاللهم آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها. آمين^(١).

ب- ومنها العبادات القولية :

كالذكر، والدعاء، وتلاوة القرآن، والاستغفار، والتسمية، والاستعاذة، والحلف، والنصيحة للمسلمين، والدعوة إلى الله، وكفُّ اللسان عن المحرمات: كالغيبة، والنميمة، والكذب، والبهتان، وشهادة الزور، والسبِّ، والشتم، والبذاء، والغناء.

ج- ومنها العبادات البدنية: كالصلاة وهي قلبية، وقولية وبدنية، والصيام، والحج والجهاد والرحلة في طلب العلم، وتغيير المنكرات، وغض البصر.

د- ومنها العبادات المالية: كالزكاة، والصدقة، والنفقة في الجهاد، والحج، وكذا النذر بالمال وهو عبادة قولية ومالية.

علو الهمة في معرفة أفضل العبادات ولزومها :

«إن أفضل العبادات: العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته. فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد، من صلاة الليل وصيام النهار، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض، كما في حالة الأمن.

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلاً: القيام بحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل.

(١) «فضل الغني الحميد» (ص ٣٤).

والأفضل في أوقات السحر: الاشتغال بالصلاة والقرآن والدعاء والذكر والاستغفار.

والأفضل في وقت استرشاد الطالب، وتعلم الجاهل: الإقبال على تعليمه والاشتغال به.

والأفضل في أوقات الأذان: ترك ما هو فيه من ورده والاشتغال بإجابة المؤذن.

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس: الجد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أول الوقت، والخروج إلى الجامع، وإن بعد كان أفضل.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاء، أو البدن أو المال: الاشتغال بمساعدته، وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك.

والأفضل في وقت قراءة القرآن: جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به، فتجمع قلبك على فهمه وتدبره، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك.

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة: الإكثار من التعبد، لا سيما التكبير والتهليل والتحميد. فهو أفضل من الجهاد غير المتعين.

والأفضل في العشر الأخير من رمضان: لزوم المسجد فيه والخلوة

والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم وإقراءهم القرآن، عند كثير من العلماء.

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته: عيادته، وحضور جنازته وتشييعه، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك.

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك: أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم، دون الهرب منهم. فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه.

والأفضل خلطتهم في الخير فهي خير من عزلتهم فيه، وعزلتهم في الشر، فهي أفضل من خلطتهم فيه. فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فخالطهم حينئذ أفضل من عزلتهم.

فالأفضل في كل وقت وحال: إثارة مرضاة الله في ذلك الوقت والحال. والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه. وهؤلاء هم أهل التبعيد المطلق، والأصناف قبلهم أهل التبعيد المقيد. فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته. فهو يعبد الله على وجه واحد. وصاحب التبعيد المطلق ليس له غرض في تبعيد بعينه يؤثره على غيره، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت. فمدار تبعده عليها. فهو لا يزال منتقلاً في منازل العبودية، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى. فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره: فإن رأيت العلماء رأيتهم معهم. وإن رأيت العباد، رأيتهم معهم. وإن رأيت المجاهدين رأيتهم معهم. وإن رأيت الذاكرين رأيتهم معهم، وإن رأيت المتصدقين

المحسنين رأيتهم معهم، وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيتهم معهم، فهذا هو العبد المطلق، الذي لم تملكه الرسوم، ولم تقيد به القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه وما فيه لذتها وراحتها من العبادات. بل هو على مراد ربه ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه، فهذا هو المتحقق بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿١﴾ حقاً، القائم بهما صدقاً. ملبسه ما تهيأ، ومأكله ما تيسر، واشتغاله بما أمر به في كل وقت وبوقته، ومجلسه حيث انتهى ووجدته خالياً، لا تملكه إشارة، ولا يتعبده قيد، ولا يستولي عليه رسم، حر مجرد، دائر مع الأمر حيث دار، يدين بدين الأمر أي توجهت ركائبه، ويدور معه حيث استقلت مضاربه يأنس به كل محق، ويستوحش منه كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها وكلها منفعة حتى شوكتها. وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتهكت محارم الله، فهو لله وبالله ومع الله، قد صحب الله بلا خلق، وصحب الناس بلا نفس. بل إذا كان مع الله عزل الخلاق من البين وتخلى عنهم، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها، فوآها له. ما أغربه بين الناس، وما أشدَّ وحشته منهم، وما أعظم أنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه!! والله المستعان، وعليه التكلان» اهـ كلام ابن القيم^(١).

كلمة لله درُّ أهل البصائر في عبادة الله، وما أحلى كلامهم عن سرِّ العبودية وغايتها وحكمتها:

□ قال ابن القيم لله دره: «اعلم أن سر العبودية وغايتها وحكمتها:

(١) انظر: «مدارج السالكين» الجزء الأول، وتفسير سورة الفاتحة لابن القيم.

إنها يطلع عليها من عرف صفات الرب **وَعَزَّ وَجَلَّ**، ولم يعطلها، وعرف معنى الإلهية وحقيقتها، ومعنى كونه إلهًا، بل هو الإله الحق، وكل إله سواه فباطل، بل أبطل الباطل، وأن حقيقة الإلهية لا تنبغي إلا له، وأن العبادة موجب إلهيته وأثرها ومقتضاها، وارتباطها بها كارتباط متعلق الصفات بالصفات، وكرتباط المعلوم بالعلم، والمقدور بالقدرة، والأصوات بالسمع، والإحسان بالرحمة، والعطاء بالجود. فمن أنكر حقيقة الإلهية ولم يعرفها كيف يستقيم له معرفة حكمة العبادات وغاياتها ومقاصدها وما شرعت لأجله؟ وكيف يستقيم له العلم بأنها هي الغاية المقصودة بالخلق، ولها خلقوا، ولها أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، ولأجلها خلقت الجنة والنار؟ وأن فرض تعطيل الخليقة عنها: نسبة لله إلى ما لا يليق به، ويتعالى عنه مَنْ خلق السموات والأرض بالحق، ولم يخلقها باطلاً، ولم يخلق الإنسان عبثاً ولم يتركه سُدىً مهملاً، قال تعالى: ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ** ﴾ (١١٥) [المؤمنون]. أي لغير شيء ولا حكمة، ولا لعبادتي ومجازاتي لكم، وقد صرح تعالى بهذا في قوله: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ (٥٦) [الذاريات].

فالعبادة: هي الغاية التي خلق لها الجن والإنس والخلائق كلها. قال

الله تعالى: ﴿ **أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى** ﴾ (٣٦) [القيامة].

أي مهملاً قال الشافعي: لا يؤمر ولا يُنهي، وقال غيره: لا يثاب ولا يعاقب، والصحيح: الأمران. فإن الثواب والعقاب مترتب على الأمر والنهي، والأمر والنهي هو طلب العبادة وإرادتها، وحقيقة العبادة امتثالها.

وقال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ﴿٣١١﴾ [آل عمران].

وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥].

وقال: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية: ٢٢].

فأخبر أنه خلق السموات والأرض بالحق المتضمن: أمره ونهيه، وثوابه وعقابه.

فإذا كانت السموات والأرض وما بينهما خلقت لهذا، وهو غاية الخلق، فكيف يقال: إنه لا علة له، ولا حكمة مقصودة هي غايته؟ أو إن ذلك لمجرد استئجار العباد حتى لا ينكد عليهم الثواب بالمنة، أو لمجرد استعداد النفوس للمعارف العقلية. وارتياضها بمخالفة العوائد؟.

فليتأمل اللبيب الفرقان بين هذه الأقوال، وبين ما دل عليه صريح الوحي يجد أن أصحاب هذه الأقوال ما قدروا الله حق قدره، ولا عرفوه حق معرفته.

فالله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته الجامعة لكمال محبته. مع الخضوع له والانقياد لأمره.

فأصل العبادة: محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله الله. فلا يجب معه سواه، وإنما يجب لأجله وفيه، كما يجب أنبياءه ورسله وملائكته وأوليائه، فمحبتنا لهم من تمام محبته، وليست محبة معه، كمحبة من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحبه.

وإذا كانت المحبة له حقيقة عبوديته وسرها. فهي إنما تتحقق باتباع

أمره، واجتناب نهيهِ. فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تبين حقيقة العبودية والمحبة. ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله عَلَمًا عليها، وشاهدًا لمن ادعاها، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. فجعل اتباع رسوله مشروطًا بمحبتهم لله، وشرطًا لمحبة الله لهم، ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه وتحققه بتحقيقه فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة. فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم، فيستحيل إذاً ثبوت محبتهم لله، وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله.

□ قال ابن القيم رحمته: «وبنى ﴿إِيَّاكَ تَعْبُدُ﴾ على أربع قواعد: التحقق بها يحبه الله ورسوله ويرضاه من قول اللسان، والقلب، وعمل القلب والجوارح.

فالعبودية: اسم جامع لهذه المراتب الأربع. فأصحاب ﴿إِيَّاكَ تَعْبُدُ﴾ حقاً هم أصحابها».

أطيب الكلام وجوامعه في «العبودية»:

□ قال ابن القيم رحمته: «ورحى العبودية تدور في خمس عشرة قاعدة. من كملها كل مراتب العبودية.

وبيانها: أن العبودية منقسمة على القلب، واللسان، والجوارح. وعلى كل منها عبودية تخصه.

والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح وهي لكل واحد من القلب واللسان، والجوارح. فواجب القلب: منه متفق على وجوبه، ومختلف فيه.

فالمتفق على وجوبه: كالإخلاص، والتوكل، والمحبة، والصبر،
والإنابة، والخوف، والرجاء، والتصديق الجازم، والنية في العبادة، وهذه
قدر زائد على الإخلاص، فإن الإخلاص هو أفراد المعبود عن غيره.
ونية العبادة لها مرتبتان.

إحدهما: تمييز العبادة عن العادة.

والثانية: تمييز مراتب العبادات بعضها عن بعض.

والأقسام الثلاثة واجبة.

وكذلك الصبر.

وأما المختلف فيه فكالرضا.. وكذلك التوكل.. وأمر بالإنابة، وأمر
بالإخلاص، وكذلك الخوف..، وكذلك الصدق، وكذلك المحبة، وهي
أفرض الواجبات، إذ هي قلب العبادة المأمور بها ونخها وروحها..

والقصد أن هذه الأعمال -واجبها ومستحبها- هي عبودية القلب
فمن عطّلها فقد عطّل عبودية الملك وإن قام بعبوديته رعيته من الجوارح.
والمقصود أن يكون ملك الأعضاء -وهو القلب- قائماً بعبوديته لله
سبحانه هو ورعيته.

وأما المحرمات التي عليه: فالكبر، والرياء، والعجب، والحسد،
والغفلة، والنفاق وهي نوعان: كفر ومعصية.

فالكفر: كالشك والنفاق والشرك وتوابعها. «والمعصية نوعان:
كبائر. وصغائر».

فالكبائر: كالرياء والعجب والكبر والفخر والخيلاء والقنوط من
رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله والفرح والسرور

بأذى المسلمين، والشهامة بمصيبتهم ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم، وحسدكم على ما آتاهم الله من فضله، وتمني زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريماً من الزنا وشرب الخمر وغيرها من الكبائر الظاهرة، ولا صلاح للقلب، ولا للجسد إلاً باجتنابها، والتوبة منها، وإلاً فهو قلب فاسد، وإذا فسد القلب فسد البدن.

وهذه الآفات إنما تنشأ من الجهل بعبودية القلب، وترك القيام بها. فوظيفة ﴿إِيَّاكَ تَعَبُدُ﴾ على القلب قبل الجوارح، فإذا جهلها وترك القيام بها امتلاً بأضدادها ولا بد. وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها.

وهذه الأمور ونحوها قد تكون صغائر في حقه، وقد تكون كبائر بحسب قوتها وغلظها وخفتها ودقتها.

ومن الصغائر أيضاً: شهوة المحرمات وتمنيها. وتفاوت درجات الشهوة في الكبر والصغر، بحسب تفاوت درجات المشتهى، فشهوة الكفر والشرك: كفر، وشهوة البدعة: فسق، وشهوة الكبائر: معصية، فإن تركها لله مع قدرته عليها أثيب. وإن تركها عجزاً عن بذله مقدوره في تحصيلها: استحق عقوبة الفاعل، لتنزله منزلته في أحكام الثواب والعقاب، وإن لم ينزل منزلته في أحكام الشرع، ولهذا قال النبي ﷺ: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار»، قالوا: هذا القاتل يا رسول الله، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»^(١). فنزله منزلة القاتل، لحرصه في الإثم دون الحكم، وله نظائر كثيرة في الثواب والعقاب.

(١) رواه البخاري (١٠٦/١)، ومسلم (٢٣٧/٥).

وقد علم بهذا مستحب القلب ومباحه.

عبوديات اللسان:

وأما عبوديات اللسان الخمس: فواجبها: النطق بالشهادتين، وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن. وهو ما يتوقف صحة صلاته عليه، وتلفظه بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمر الله بها ورسوله، كما أمر بالتسبيح في الركوع والسجود، وأمر بقول: «ربنا ولك الحمد» بعد الاعتدال، وأمر بالتشهد، وأمر بالتكبير.

ومن واجبه: رد السلام. وفي ابتدائه قولان. ومن واجبه: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهل، وإرشاد الضال، وأداء الشهادة المتعينة، وصدق الحديث.

وأما مستحبه: فتلاوة القرآن ودوام ذكر الله، والمذاكرة في العلم النافع، وتوابع ذلك.

وأما محرمه فهو النطق بكل ما يبغضه الله ورسوله، كالنطق بالبدع المخالفة لما بعث الله به رسوله، والدعاء إليها وتحسينها وتقويتها، وكالقذف وسب المسلم، وأذاه بكل قول، والكذب، وشهادة الزور، والقول على الله بلا علم، وهو أشدها تحريمًا.

ومكروهه: التكلم بما تركه خير من الكلام به، مع عدم العقوبة عليه. وقد اختلف السلف. هل في حقه كلام مباح متساوي الطرفين؟ على قولين. ذكرهما ابن المنذر وغيره.

أحدهما: أنه لا يخلو كل ما يتكلم به: إما أن يكون له أو عليه. وليس في حقه شيء لاله ولا عليه.

وقالت طائفة: بل هذا الكلام مباح لا له ولا عليه كما في حركات الجوارح.

قالوا: لأن كثيراً من الكلام لا يتعلق به أمر ولا نهي. وهذا شأن المباح.

والتحقيق: أن حركة اللسان بالكلام لا تكون متساوية الطرفين بل إما راجحة وإما مرجوحة. لأن للسان شأنًا ليس لسائر الجوارح، وإذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، تقول: اتق الله فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وأن اعوججت اعوججنا. وأكثر ما يُكَبُّ الناس على مناخرهم في النار حصائد ألسنتهم، وكل ما يتلفظ به اللسان، فإما أن يكون مما يرضي الله ورسوله أو لا، فإن كان كذلك فهو الراجح، وإن لم يكن كذلك فهو المرجوح. وهذا بخلاف حركات سائر الجوارح، فإن صاحبها ينتفع بتحريكها في المباح المستوي الطرفين، لما له في ذلك من الراحة والمنفعة، فأبيح له استعمالها فيما فيه منفعة له، ولا مضرة عليه فيه في الآخرة، وأما حركة اللسان بما لا ينتفع به فلا يكون إلا مضرة. فتأمل.

عُبودِيَّاتُ الجوارح:

وأما العبوديات الخمس على الجوارح: فعلى خمس وعشرين مرتبة أيضًا: إذ الحواس خمسة؛ وعلى كل حاسة خمس عبوديات، فعلى السمع: وجوب الإنصات والاستماع لما أوجبه الله ورسوله عليه، من استماع الإسلام والإيمان وفروضهما، وكذلك استماع القراءة في الصلاة إذا جهر بها الإمام، واستماع الخطبة للجمعة في أصح قولي العلماء.

ويحرم عليه استماع الكفر والبدع، إلا حيث يكون في استماعه مصلحة

راجحة. من رده، أو الشهادة على قائله، أو زيادة قوة الإيمان والسنة بمعرفة ضدهما من الكفر والبدعة ونحو ذلك، وكاستماع أسرار من يهرب عنك بسرّه، ولا يجب أن يطلعك عليه، ما لم يكن متضمناً لحق الله يجب القيام به، أو لأذى مسلم يتعين نصحه، وتحذيره منه.

وكذلك استماع أصوات النساء الأجانب التي تخشى الفتنة بأصواتهن، إذا لم تدع إليه حاجة، من شهادة، أو معاملة، أو استفتاء، أو محاكمة، أو مداواة ونحوها.

وكذلك استماع المعازف وآلات الطرب واللهو، كالعود والطنبور واليراع ونحوها. ولا يجب عليه سدُّ أذنه إذا سمع الصوت، وهو لا يريد استماعه، إلا إذا خاف السكون إليه والإنصات، فحينئذٍ يجب تجنب سماعها وجوب سد الذرائع.

ونظير هذا المحرم: لا يجوز له تعمد شم الطيب، وإذا حملت الريح رائحته وألقتها في مشامه لم يجب عليه سد أنفه، ونظير هذا: نظرة الفجأة لا تحرم على الناظر، وتحرم عليه النظرة الثانية إذا تعمدها.

وأما السمع المستحب: فكاستماع المستحب من العلم، وقراءة القرآن، وذكر الله، واستماع كل ما يحبه الله، وليس بفرض.

والمكروه: وهو استماع كل ما يكرهه ولا يعاقب عليه، والمباح ظاهر.

وأما النظر الواجب: فالنظر في المصحف وكتب العلم عند تعين تعلم الواجب منها، والنظر إذا تعين لتمييز الحلال والحرام في الأعيان التي يأكلها وينفقها ويستمتع بها، والأمانات التي يؤديها إلى أربابها ليميز بينها،

ونحو ذلك.

والنظر الحرام: النظر إلى الأجنبية بشهوة مطلقاً، وبغيرها إلاّ لحاجة، كنظر الخاطب، والمستام والمعامل، والشاهد، والحاكم، والطبيب، وذو المحرم.

والمستحب: النظر في كتب العلم والدين التي يزداد بها الرجل إيماناً وعلماً والنظر في المصحف ووجوه العلماء الصالحين والوالدين، والنظر في آيات الله المشهودة، ليستدل بها على توحيده ومعرفته وحكمته.

والمكروه: فضول النظر الذي لا مصلحة فيه. فإن له فضولاً كما للسان فضولاً، وكم قاد فضولها إلى فضول عزّ التخلص منها، وأعْيى دواؤها. وقال بعض السلف: كانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام.

والمباح: النظر الذي لا مضرة فيه في العاجل والآجل ولا منفعة.

ومن النظر الحرام: النظر إلى العورات. وهي قسمان:

عورة وراء الثياب، وعورة وراء الأبواب.

ولو نظر في العورة التي وراء الأبواب فرماه صاحب العورة ففقاً عينه لم يكن عليه شيءٌ، وذهبت هدرًا، بنص^(١) رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته. وإن ضعفه بعض الفقهاء، لكونه لم يبلغه النص، أو

(١) يقصد ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لو أن امرءًا اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقات عينه لم يكن عليك جناح». رواه البخاري في «الديات» (٢٥٣/١٢) باب: من اطلع في بيت قوم. ومسلم (٤/٨٦٦) في «الآداب»، باب: تحميم النظر.

تأوله، وهذا إذا لم يكن للنظر سبب يباح النظر لأجله، كعورة له هناك ينظرها، أو ريبة هو مأمور أو مأذون له في اطلاعها.

وأما الذوق الواجب: فتناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه، وخوف الموت. فإن تركه حتى مات، مات عاصياً قاتلاً لنفسه. قال الإمام أحمد وطاووس: من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات، دخل النار. ومن هذا: تناول الدواء إذا تيقن به من الهلاك، على أصح القولين. وإن ظن الشفاء به، فهل هو مستحب مباح، أو الأفضل تركه؟ فيه نزاع معروف بين السلف والخلف.

والذوق الحرام: كذوق الخمر والسموم القاتلة. والذوق الممنوع منه للصوم الواجب.

وأما المكروه: فكذوق المشتبهات، والأكل فوق الحاجة، وذوق طعام الفجاءة، وهو الطعام الذي تفجأ أكله، ولم يرد أن يدعوك إليه، وكأكل أطعمة المرائين في الولائم والدعوات ونحوها، وفي السنن: أن رسول الله ﷺ: «نهى عن طعام المتبارين»^(١) وذوق طعام من يطعمك حياء منك لا بطيبة نفس.

والذوق المستحب: أكل ما يعينك على طاعة الله ﷻ، مما أذن الله فيه، والأكل مع الضيف ليطيب له الأكل، فينال منه غرضه. والأكل من طعام

(١) رواه أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما (١٠) في الأطعمة، باب: في طعام المتبارين وأشار أبو داود إلى إرساله عن عكرمة رضي الله عنها وصحح ذلك البغوي في «المشكاة» (٢/٩٦٢ - ٩٦٣)، ورواه الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما (٤/١٢٨ - ١٢٩)، وصححه ووافقه الذهبي.

صاحب الدعوة الواجب إجابتها أو المستحب.

وقد أوجب بعض الفقهاء الأكل من الوليمة الواجب إجابتها، للأمر به عن الشارع.

والذوق المباح: ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان.

وأما تعلق العبوديات الخمس بحاسة الشم، فالشم الواجب: كل شم تعين طريقاً للتمييز بين الحلال والحرام، كالشم الذي يعلم به هذه العين هل هي خبيثة أو طيبة؟ وهل هي سم قاتل أو لا مضرة فيه؟ أو يميز به بين ما يملك الانتفاع به، وما لا يملك؟ ومن هذا شم المقوم وربُّ الخبزة عند الحكم بالتقويم، والعييد ونحو ذلك.

وأما الشم الحرام: فالتعمد لشم الطيب في الإحرام، وشم الطيب المغصوب والمسروق، وتعمد شم الطيب من النساء الأجنبية للافتتان بها وراءه.

وأما الشم المستحب: فشم ما يعينك على طاعة الله ويقوي الحواس، ويبسط النفس للعلم والعمل. ومن هذا: هدية الطيب والريحان إذا أهديت لك. ففي «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ: «من عُرِضَ عَلَيْهِ رِيحَانٌ فَلَا يَرُدُّهُ؛ فَإِنَّهُ طِيبُ الرِّيحِ، خَفِيفُ الْمَحْمَلِ»^(١).

والمكروه: كشم طيب الظلمة، وأصحاب الشبهات، ونحو ذلك.

والمباح: ما لا منع فيه من الله ولا تبعة، ولا فيه مصلحة دينية ولا تعلق له بالشرع.

(١) رواه مسلم (١٠٩/٥) في الألفاظ، باب: استعمال المسك. وأبو داود (٢٢٩/١١)، والنسائي (١٨٩/٨).

وأما تعلق هذه الخمسة بحاسة اللمس. فاللمس الواجب: كلمس الزوجة حين يجب جماعها والأمة الواجب إعفافها. والحرام: لمس ما لا يجلب من الأجنيات. والمستحب: إذا كان فيه غض بصره وكف نفسه عن الحرام وإعفاف أهله.

والمكروه: لمس الزوجة في الإحرام للذة، وكذلك في الاعتكاف، وفي الصيام إذا لم يأمن على نفسه.

ومن هذا لمس بدن الميت -لغير غاسله- لأن بدنه قد صار منزلة عورة الحي تكريمًا له، ولهذا يستحب ستره عن العيون وتغسيله في قميص في أحد القولين و لمس فخذ الرجل، إذا قلنا: هو عورة.

والمباح ما لم يكن فيه مفسدة ولا مصلحة دينية.

وهذه المراتب أيضًا مُرتَّبة على البطش باليد والمشى بالرجل، وأمثلتها لا تحفى.

فالتكسب المقدور للنفقة على نفسه وأهله وعياله: واجب. وفي وجوبه لقضاء دينه خلاف، والصحيح: وجوبه ليتمكنه من أداء دينه، ولا يجب لإخراج الزكاة، وفي وجوبه لأداء فريضة الحج نظر، والأقوى في الدليل: وجوبه لدخوله في الاستطاعة، وتمكنه بذلك من أداء النسك، والمشهور عدم وجوبه.

ومن البطش الواجب: إعانة المضطر ورمي الجمار، ومباشرة الوضوء والتيمم.

والحرام: كقتل النفس التي حرم الله، ونهب المال المغصوب، وضرب

من لا يجل ضربه ونحو ذلك، وكأنواع اللعب المحرم بالنص كالنرد، أو ما هو أشد تحريمًا منه عند أهل المدينة كالشطرنج، أو مثله عند فقهاء الحديث كأحمد وغيره، أو دونه عند بعضهم. ونحو كتابة البدع المخالفة للسنة تصنيفًا أو نسخًا، إلا مقرونا بردها ونقضها، وكتابة الزور والظلم، والحكم الجائر، والقذف والتشيب بالنساء الأجانب، وكتابة ما فيه مضرة على المسلمين في دينهم أو دنياهم، ولا سيما إن كسبت عليه مالا: ﴿قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كُنْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

وكذلك كتابة المفتي على الفتوى ما يخالف حكم الله ورسوله، إلا أن يكون مجتهدًا مخطئًا، فالإثم موضوع عنه.

وأما المكروه: فكالعبث واللعب الذي ليس بحرام، وكتابة ما لا فائدة في كتابته، ولا منفعة فيه في الدنيا والآخرة.

والمستحب: كتابة كل ما فيه منفعة في الدين، أو مصلحة لمسلم، والإحسان بيده بأن يعين صانعًا، أو يصنع لأخرق، أو يفرغ من دلوه في دلو المستسقي، أو يحمل له على دابته، أو يمسكها حتى يحمل عليها، أو يعاونه بيده فيما يحتاج إليه ونحو ذلك، ومنه: لمس الركن بيده في الطواف، وفي تقبيلها بعد اللمس قولان.

والمباح: ما لا مضرة فيه ولا ثواب.

وأما المشي الواجب: فالمشي إلى الجمعات والجماعات، في أصح القولين لبضعة وعشرين دليلاً، مذكورة في غير هذا الموضوع، والمشي حول البيت للطواف الواجب، والمشي بين الصفا والمروة بنفسه أو بمركوبه، والمشي إلى حكم الله ورسوله إذا دُعي إليهن والمشي إلى صلة رحمه، وبر

والديه، والمشي إلى مجالس العلم الواجب طلبه وتعلمه، والمشي إلى الحج إذا قربت المسافة ولم يكن عليه فيه ضرر.

والحرام: المشي إلى معصية الله، وهو من رَجَل الشيطان. قال تعالى: ﴿وَأَجَلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤].

□ قال مقاتل: «استعن عليهم بركبان جنحك ومشاتهم. فكل راكب وماش في معصية الله فهو من جند إبليس».

وكذلك تعلق هذه الأحكام الخمس بالركوب أيضًا:

فواجبه في الركوب في الغزو والجهاد والحج الواجب.

ومستحبه: في الركوب المستحب من ذلك، ولطلب العلم، وصلة الرحم، وبر الوالدين، وفي الوقوف بعرفة نزاع: هل الركوب فيه أفضل، أم على الأرض؟ والتحقيق: أن الركوب أفضل إذا تضمن مصلحة: من تعليم للمناسك، واقتداء به، وكان أعون على الدعاء، ولم يكن فيه ضرر على الدابة.

وحرامه: الركوب في معصية الله عَزَّ وَجَلَّ.

ومكروهه: الركوب للهو واللعب، وكل ما تركه خير من فعله.

ومباحه: الركوب لما يتضمن فوت أجر، ولا تحصيل وزر.

فهذه خمسون مرتبة على عشرة أشياء: القلب، واللسان، والسمع، والبصر والأنف، والفم، واليد، والرجل، والفرج، والاستواء على ظهر الدابة^(١).

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/٧ - ١٢٢).

أَحَادِيثُ عَطْرَةِ فِي التَّوْحِيدِ :

• عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما بعث النبي ﷺ مُعَاذًا إِلَى نَحْوِ أَهْلِ الْيَمَنِ، قَالَ لَهُ: «إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى، فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا صَلَّوْا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ تَوَخَّذْ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتَرُدْ عَلَى فُقِيرِهِمْ، فَإِذَا أَقْرَأُوا بِذَلِكَ فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ»^(١).

• وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسَةٍ: عَلَى أَنْ يُوحَّدَ اللَّهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصِيَامِ رَمَضَانَ، وَالْحَجِّ»، فَقَالَ رَجُلٌ: الْحَجُّ وَصِيَامُ رَمَضَانَ؟ قَالَ: لَا: صِيَامُ رَمَضَانَ، وَالْحَجُّ، هَكَذَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»^(٢).

• عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُصَحِّيَ اشْتَرَى كَبْشَيْنِ عَظِيمَيْنِ، سَمِينَيْنِ، أَقْرَيْنِ، أَمْلَحَيْنِ، مُوجُوعَيْنِ»^(٣) فَذَبَحَ أَحَدَهُمَا عَنْ أُمَّتِهِ لِمَنْ شَهِدَ اللَّهَ بِالتَّوْحِيدِ وَشَهِدَ لَهُ بِالْبَلَاغِ، وَذَبَحَ الْآخَرَ عَنْ مُحَمَّدٍ وَعَنْ آلِ مُحَمَّدٍ رضي الله عنهم، زَادَ فِي رِوَايَةِ أَحْمَدَ عَنْ أَبِي رَافِعٍ قَالَ: فَكَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ كَفَّانَا»^(٤).

(١) رواه البخاري (٧٣٧٢)، ومسلم (١٩).

(٢) رواه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

(٣) الأملح: ما كان فيه بياض وسواد، وبياضه أكثر، والأقرن: ما كان له قرنان معتدلان، والموجوء: هو الخصيُّ أي نزع منه عرق الأنثيين، وذلك أسمن له.

(٤) ابن ماجه (٣١٢٢/٢) واللفظ له. وفي «الزوائد» في إسناده عبد الله بن محمد مختلف فيه، وله شاهد من حديث أنس رضي الله عنه في «السنن الكبرى» (٦٦/٣)،

• عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أَنَّ العاص بن وائل نذر في الجاهليَّة أن ينحر مئة بدنة، وأن هشام بن العاص نحر حصته، خمسين بدنة، وأنَّ عمرًا سأل النبي ﷺ عن ذلك فقال: «أما أبوك فلو كان أقرَّ بالتَّوحيدِ فصُمتَ وتصدقت عنه نفعه ذلك»^(١).

• عن ماعز التميمي رضي الله عنه عن النبي ﷺ: أَنَّهُ سئل أَيُّ الأعمالِ أفضلُ؟ قال: «إيمانٌ باللهِ وحده، ثُمَّ حجةٌ برةٌ تفضلُ سائرَ الأعمالِ، كما بينَ مطلعِ الشمسِ إلى مغربِها»^(٢).

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كان رجلٌ ممن كان قبلكم لم يعملْ خيراً قطُّ إلاَّ التَّوحيدَ، فلما احتضرَ قال لأهله: انظروا إذا أنا متُّ أن يحرقوه حتى يدعوه حمماً، ثمَّ اطحنوه، ثمَّ أذروه في يومِ ريح، فلما مات فعلوا ذلك به، فإذا هو في قبضةِ الله، فقال اللهُ ﷻ يا ابنَ آدمَ، ما حملَكَ علي ما فعلتَ؟ قال: أي ربِّ، من مخافتِكَ، قال: فغفرَ له بها، ولم يعملْ خيراً قطُّ إلاَّ التَّوحيدَ»^(٣).

• وعن أبي مالك عن أبيه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ وحَّدَ اللهُ تعالى وكفَّرَ بما يُعبَدُ من دونه، حرَّمَ مالهُ ودمُه، وحسابُه على اللهِ

وأحمد «من رواية أبي رافع» (٨/٦).

(١) أحمد (١٨٢/٢) حديث رقم (٦٧٠٤)، قال الشيخ شاکر إسناده صحيح، وهو في «مجمع الزوائد» (٤/١٩٢).

(٢) إسناده جيد: رواه أحمد (٤/٣٤٢)، وقال الحافظ الدمياطي في «المتجر الرابع» (ص ٢١٨): إسناده جيد.

(٣) أحمد (٢/٣٠٤) واللفظ له، وأصله في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة

عَنْهُ»^(١).

• وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُعَذَّبُ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ فِي النَّارِ حَتَّى يَكُونُوا فِيهَا حُمَمًا»^(٢). ثُمَّ تُدْرِكُهُم الرَّحْمَةُ، فَيُخْرَجُونَ وَيُطْرَحُونَ عَلَى أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، قَالَ: فَتَرُشُّ عَلَيْهِمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْمَاءَ فَيَنْبَتُونَ كَمَا يَنْبَتُ الْغُثَاءُ فِي حِمَالَةِ السَّيْلِ»^(٣). ثُمَّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ»^(٤).

• وعن عمرو بن عَبَسَةَ السَّلْمِيِّ قَالَ: كُنْتُ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَأَتَّهُمْ لِيُسُوا عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، فَسَمِعْتُ بَرَجْلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا، فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحَتِي فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ مُسْتَخْفِيًّا، جَرَاءَ عَلَيْهِ قَوْمَهُ^(٥)؛ فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْتَ؟ قَالَ: «أَنَا نَبِيٌّ»، فَقُلْتُ: وَمَا نَبِيِّ؟ قَالَ: «أُرْسَلَنِي اللَّهُ»، فَقُلْتُ: وَبِأَيِّ شَيْءٍ أُرْسَلْتَ؟ قَالَ: «أُرْسَلَنِي بِصَلَةِ الْأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوحَّدَ اللَّهُ لَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ»، قُلْتُ لَهُ: فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: «حُرٌّ وَعَبْدٌ» (قَالَ: وَمَعَهُ يَوْمئِذٍ أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ)، فَقُلْتُ: إِنِّي مَتَّبِعُكَ. قَالَ: «إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا؛ أَلَا تَرَى حَالِي وَحَالَ

(١) مسلم (٢٣) وأحمد (٤٧٢/٣) واللفظ له، وانظر أيضًا (٦/٣٩٤، ٣٩٥).

(٢) الحمم: جمع حَمَمَةٌ وهي الفحمة.

(٣) ينبتون كما ينبت الغناء في حمالة السيل. المراد: أنهم سرعان ما تعود إليهم أبدانهم وأجسامهم بعد إحراق النار لها، وذلك مثل ما يجيء به السيل من غناء ونحوه فيستقر على الشاطئ فينبت في يوم وليلة.

(٤) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح (٧١٣/٤) رقم (٢٥٩٧) واللفظ له، ورواه أحمد (٣/٣٩١).

(٥) جرأء جمع جريء مثل برأء، والمراد: أنهم يتجرؤون على إيدائه.

الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلِكَ، فإذا سمعتَ بي قد ظهرتُ فأتني» قال: فذهبت إلى أهلي وقدم رسول الله ﷺ المدينة، وكنت في أهلي فجعلت أتخبرُ الأخبار وأسألُ الناس حين قدم المدينة، حتى قَدِمَ عليَّ نفرٌ من أهلِ يثربَ من أهلِ المدينة. فقلتُ: ما فعل هذا الرجلُ الذي قَدِمَ المدينة؟ فقالوا: الناسُ إليه سراعٌ، وقد أرادَ قومه قتلَهُ فلم يستطيعوا ذلك، فقدمتُ المدينة، فدخلتُ عليه. فقلتُ: يا رسولَ الله ﷺ، أتعرفُنِي؟ قال: «نعم. أنتَ الذي لقيتني بمكة؟» قال: فقلتُ: بلى. فقلتُ: يا نبيَّ الله، أخبرني عمَّا علَّمَكَ الله وأجهله. أخبرني عن الصلاة. قال: «صلِّ صلاةَ الصُّبحِ، ثمَّ أقصرُ عن الصلاة حتى تطلعَ الشمسُ حتى ترتفع، فإنها تطلعُ حين تطلع بين قرني شيطان، وحينئذٍ يسجدُ لها الكفارُ. ثمَّ صلِّ، فإنَّ الصلاةَ مشهودةٌ^(١) محضورةٌ^(٢) حتى يستقلَّ الظلُّ بالرمح، ثمَّ أقصرُ عن الصلاة فإنَّ حينئذٍ تسجرُ جهنمُ^(٣)، فإذا أقبلَ الفياءُ فصلِّ، فإن الصلاةَ مشهودةٌ محضورةٌ حتى تُصليَ العصر، ثمَّ أقصرُ عن الصلاة حتى تغربَ الشمسُ فإنها تغربُ بين قرني شيطان، وحينئذٍ يسجدُ لها الكفارُ». قال فقلت: يا نبي الله، فالوضوءُ؟ حدثني عنه. قال: «ما منكم رجلٌ يقربُ وضوءه فيتمضمضُ ويستنشقُ فينثرُ إلا خرت خطايا وجهه وفيه وخياشيمه، ثمَّ إذا غسلَ وجهه كما أمره الله إلا خرت خطايا وجهه من أطرافِ لحيته مع الماء، ثمَّ يغسلُ يديه إلى المرفقين إلا خرت خطايا يديه مع أنامله مع الماء، ثمَّ يمسحُ

(١) مشهودة: يشهدها الملائكة.

(٢) محضورة: يحضرها أهل الطاعات.

(٣) اسم محذوف وهو ضمير الشأن. ومعنى تسجر جهنم: يوقد عليها إيقاداً.

رَأْسَهُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رَأْسِهِ مِنْ أَطْرَافِ شَعْرِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ قَدَمَيْهِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رِجْلَيْهِ مِنْ أَنْمَلِهِ مَعَ الْمَاءِ، فَإِنْ هُوَ قَامَ فَصَلَّى، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَمَجَّدَهُ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، وَفَرَّغَ قَلْبَهُ لِلَّهِ، إِلَّا أَنْصَرَفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»^(١).

• عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَا الْمَوْجِبَتَانِ؟ قَالَ: «مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ دَخَلَ النَّارَ»^(٢).

• عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَتَانِي جَبْرِيلُ فَبَشَّرَنِي أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، قُلْتُ: وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى؟ قَالَ: «وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى»^(٣).

• عَنْ الصُّنَابِحِيِّ عَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، أَنَّهُ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ، فَبَكَيْتُ، فَقَالَ: مَهْلًا^(٤) لَمْ تَبْكِي؟ فَوَاللَّهِ لَئِنْ اسْتَشْهِدْتُ لِأَشْهَدَنَّ لَكَ، وَلَئِنْ شَفَعْتُ لِأَشْفَعَنَّ لَكَ، وَلَئِنْ اسْتَطَعْتُ لِأَنْفَعَنَّكَ. ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ مَا مِنْ حَدِيثٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَكُمْ فِيهِ خَيْرٌ إِلَّا أَحَدْتُكُمْوَهُ إِلَّا حَدِيثًا وَاحِدًا، وَسَوْفَ أَحَدْتُكُمْوَهُ الْيَوْمَ، وَقَدْ أَحِيطَ بِنَفْسِي^(٥). سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ

(١) رواه مسلم (٨٣٢) واللفظ له، وأحمد (١١٢/٤).

(٢) رواه مسلم (٩٣).

(٣) رواه البخاري (٧٤٨٧)، ومسلم (٩٤).

(٤) أي: أنظرني.

(٥) أحيط بنفسي: أي قربت من الموت، وأيست من النجاة والحياة.

حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ النَّارَ»^(١).

• وبعث رسول الله ﷺ بعثاً بعثاً من المسلمين إلى قوم من المشركين، وإنهم التقوا فكان رجلٌ من المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجلٍ من المسلمين قصد له فقتله. وإن رجلاً من المسلمين قصد غفلته، قال: وكُنَّا نَحَدِّثُ أَنَّهُ أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، فَلَمَّا رَفَعَ عَلَيْهِ السِّيفَ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فقتله. فجاء البشيرُ إلى النبي ﷺ فسأله فأخبره، حتَّى أَخْبَرَهُ خَبَرَ الرَّجُلِ كَيْفَ صَنَعَ، فِدَعَاهُ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: «لَمْ قَتَلْتُهُ؟» قال: يا رسول الله، أَوْجَعَ^(٢) في المسلمين، وقتل فلاناً وفلاناً، وسمَّى له نفراً، وإنِّي حملتُ عليه، فلَمَّا رَأَى السِّيفَ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. قال رسول الله ﷺ: «أَقْتَلْتُهُ؟» قال: نعم. قال: «فكَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» قال: يا رسول الله، استغفرُ لي. قال: «وكَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟». قال: فجعل لا يزيدُه على أن يقول: «كَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»^(٣).

• وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فصبَّحنا الحرقَاتِ^(٤) من جهينة، فأدركتُ رجلاً، فقال: لا إله إلا الله، فطعنته، فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «أقال: لا إله إلا الله وقتلته؟» قال: قلتُ: يا رسول الله، إنما قالها خوفاً من السلاح،

(١) رواه مسلم (٤٧).

(٢) أوجع في المسلمين: أي أوقع بهم وآلمهم.

(٣) رواه مسلم (١٦٠).

(٤) فصبَّحنا الحرقَات: أي أتيناهم صباحاً، والحرقَات: موضع ببلاد جهينة.

قال: «أفلا شققت عن قلبه^(١) حتى تعلم أقالها أم لا»، فما زال يكررها عليّ حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ. قال: فقال سعد: وأنا والله لا أقتل مسلماً حتى يقتله ذو البطين -يعني أسامة- قال: قال رجل: ألم يقل الله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ﴾؟ فقال سعد: قد قاتلنا حتى لا تكون فتنة، وأنت وأصحابك تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة^(٢).

• عن أبي سعيد الخدري^{رضي الله عنه} عن رسول الله ﷺ قال: «قال موسى: يا رب، علّمني شيئاً أذكرك وأدعوك به. قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله. قال: يا رب، كلُّ عبادك يقولون هذا، قال: يا موسى، لو أن السموات السبع وعامرهنَّ غيري، والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة مالت بهنَّ لا إله إلا الله^(٣)».

• عن الحارث الأشعري^{رضي الله عنه} أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله أوحى إلى يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهنَّ، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهنَّ فكانه أبطأ بهنَّ، فاتاه عيسى قال: إنَّ الله أمرك بخمس كلمات أن تعمل بهنَّ، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهنَّ، فأما أن تخبرهم، وإما أن

(١) أفلا شققت عن قلبه: معناه: إنما كلفت بالعمل الظاهر وما ينطق به اللسان، وأما القلب فليس لك طريق إلى معرفة ما فيه، فأنكر عليه امتناعه من العمل بما ظهر باللسان.

(٢) مسلم (١٥٨).

(٣) صحيح: رواه النسائي في «عمل اليوم والليلة» برقم (٨٣٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٣٢٤) موارد، والحاكم في «المستدرک» (٥٢٨/١)، وصححه ووافقه الذهبي، وقال الحافظ في «الفتح» (١٧٥/١١): أخرجه النسائي بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري^{رضي الله عنه}.

أخبرهم، فقال: يا أخي! لا تفعل فإني أخاف إن تسبقني بهن أن يُحسَفَ بي، أو أُعذَّبَ. قال: فجمع بني إسرائيل بيت المقدس حتى امتلأ المسجد وقعدوا على الشرفات، ثم خطبهم فقال: إن الله أوحى إليّ بخمس كلمات أن أعمل بهن، وأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، أوهن: أن لا تُشركوا بالله شيئاً، فإن مثل من أشرك بالله كمثلي رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق، ثم أسكنه داراً. فقال: اعمل وارفع إليّ فجعل يعمل ويرفع إلى غير سيده، فأيتكم يرضى أن يكون عبده كذلك، فإن الله خلقكم ورزقكم فلا تُشركوا به شيئاً، وإذا قمتم إلى الصلاة فلا تلتفتوا، فإن الله يقبل بوجهه إلى وجه عبده ما لم يلتفت وأمركم بالصيام، ومثل ذلك كمثلي رجل في عصابة معه صرّة مسك، كلهم يحب أن يجد ریحها، وإن الصيام أطيب عند الله من ریح المسك، وأمركم بالصدقة ومثل ذلك كمثلي رجل أسر العدو فأوثقوا يده إلى عنقه، وقربوه ليضربوا عنقه، فجعل يقول: هل لكم أن أفدي نفسي منكم، وجعل يعطي القليل والكثير حتى فدى نفسه، وأمركم بذكر الله كثيراً، ومثل ذكر الله كمثلي رجل طلبه العدو سراعاً في أثره حتى أتى حصناً حصيناً فأحرز نفسه فيه، وكذلك العبد لا ينجو من الشيطان إلا بذكر الله...»^(١).

(١) صحيح: رواه أحمد، والبخاري في «التاريخ»، والترمذي (٢٨٦٣)، وقال: حديث حسن صحيح غريب، ورواه النسائي، وابن خزيمة في «صحيحه» (١٩٥/٣)، (١٩٦) برقم (١٨٩٥) واللفظ له، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم (٤٢١/١) وقال: صحيح على شرط البخاري، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٥٥٣)، و«صحيح الجامع» (١٧٢٤).

• عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَقِيتُ لَيْلَةً أُسْرِي بِي إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ عليه السلام، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَقْرَى أُمَّتِكَ مِنِّي السَّلَامُ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَتْهَا قِيَعَانُ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ»^(١).

خَيْرُ وَاوْفِدِ الْوَاوْفِدِ بِالتَّوْحِيدِ عَلَى قَوْمِهِ:

□ ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «.. فخرَجَ ضِمَامٌ حَتَّى قَدِمَ عَلَى قَوْمِهِ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَكَانَ أَوَّلَ مَا تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: بَسَّتِ اللَّاتُ وَالْعُزَّى، قَالُوا: مَهْ يَا ضِمَامُ، اتَّقِ الْبَرَصَ وَالْجُدَامَ، اتَّقِ الْجَنُونَ، قَالَ: وَيَلِكُمْ، إِنَّمَا وَاللَّهِ لَا يُضْرَّانَ وَلَا يَنْفَعَانِ، إِنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ بَعَثَ رَسُولًا وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابًا اسْتَنْقَذَكُمْ بِهِ مِمَّا كُنْتُمْ فِيهِ، وَإِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِهِ بِمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا أَمْسَى مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ فِي حَاضِرِهِ رَجُلٌ وَلَا امْرَأَةٌ إِلَّا مُسْلِمًا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: فَمَا سَمِعْنَا بِوَاوْفِدِ قَوْمٍ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ ضِمَامِ بْنِ ثَعْلَبَةَ»^(٢).

أَحَادِيثُ أُخْرَى فِي فَضْلِ التَّوْحِيدِ:

• قال رسول الله ﷺ: «أَنَا فِي جَبْرَيْلُ، فَبَشَّرَنِي أَنَّهُ مِنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِكَ لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، فَقُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ فَقَالَ: وَإِنْ زَنَى

(١) حسن: رواه الترمذي في «سننه» وقال: حديث حسن غريب، وحسنه الألباني في «الصحيححة» (١٠٥)، و«صحيح الجامع» (٥١٥٢).

(٢) صحيح: رواه أحمد (٢٦٤/١) (٢٣٨٠)، والحاكم (٥٥/٣) (٤٣٨٠) وصححه ووافقه الذهبي.

وإن سرق»^(١).

• وقال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريلُ، فقال: بَشِّرْ أُمَّتَكَ أَنَّهُ مِنْ مَاتَ لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، قلت: يا جبريل! وإن سرقَ وإن زنى؟ قال: نعم، قلتُ: وإن سرقَ وإن زنى؟ قال: نعم، قلت: وإن سرقَ وإن زنى؟ قال: نعم، وإن شرب الخمر»^(٢).

• وقال ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله إيمان بالله، ثم صلة الرحم، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأبغض الأعمال إلى الله الإشراف بالله ثم قطيعة الرحم»^(٣).

• وقال ﷺ: «أخرج فنادٍ في الناس: من شهد أن لا إله إلا الله وجبت له الجنة»^(٤).

• وقال ﷺ: «بَشِّرْ النَّاسَ أَنَّهُ مِنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»^(٥).

(١) رواه البخاري، ومسلم عن أبي ذر.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن حبان عن أبي ذر، وصححه الألباني في «الصحيححة» (٨٢٦)، و«صحيح الجامع» (٦٦).

(٣) حسن: رواه أبو يعلى عن رجل من خثعم، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٦). انظر: «مجمع الزوائد» (١٥١/٨).

(٤) صحيح: أخرجه أبو يعلى عن أبي بكر، وصححه الألباني في «الصحيححة» (١١٣٥)، و«صحيح الجامع» (٢٢٩).

(٥) صحيح: رواه النسائي عن سهل بن حنيف وعن زيد بن خالد الجهني، ورواه الطبراني في «الكبير» عن زيد، وصححه الألباني في «الصحيححة» (٧١٢)، و«صحيح الجامع» (٢٨٢٤).

• وقال رسول الله ﷺ: «قال لي جبريل: مَنْ مات من أُمَّتِكَ لا يُشْرِكُ بالله شيئاً دخل الجنة، قلت: وإن زنى وإن سَرَقَ؟ قال: وإن زنى وإن سَرَقَ»^(١).

• وقال رسول الله ﷺ: «ما من عبدٍ قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة، وإن زنى وإن سرق، وإن رَغِمَ أنْفُ أَبِي ذَرٍّ»^(٢).

• وقال رسول الله ﷺ: «من جاء يعبد الله لا يشركُ به شيئاً، ويُقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويصوم رمضان، ويتقي الكبائر، فإن له الجنة، قالوا: ما الكبائر؟ قال: الإِشْرَاقُ بالله، وقتلُ النَّفْسِ الْمُسْلِمَةِ، وفِرَاقُ يَوْمِ الزَّخْفِ»^(٣).

• وقال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة»^(٤).

• وقال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ النَّارَ»^(٥).

• وقال رسول الله ﷺ: «من قال: رضيتُ بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ نبياً، وجبت له الجنة»^(٦).

(١) رواه البخاري عن أبي ذر.

(٢) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم عن أبي ذر.

(٣) صحيح: رواه أحمد، والنسائي، وابن حبان، والحاكم في «المستدرک» عن أبي أيوب، وصححه الألباني في «الإرواء» (١٢٠٢)، و«صحيح الجامع» (٦١٨٥).

(٤) صحيح: رواه البزار عن ابن عمر، وصححه الألباني في «الصحيححة» (٢٣٤٤)، و«صحيح الجامع» (٦٣١٨).

(٥) رواه أحمد، ومسلم، والترمذي عن عبادة.

(٦) صحيح: رواه أبو داود، وابن حبان، والحاكم في «المستدرک» عن أبي سعيد، وصححه الألباني في «الصحيححة» (٣٣٤)، و«صحيح الجامع» (٦٤٢٨).



• وقال ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبده ورسوله، وابن أمته، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن البعث حق، أدخله الله الجنة - على ما كان من عمل - من أي أبواب الجنة الثانية شاء»^(١).

• وقال رسول الله ﷺ: «من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله دخل الجنة»^(٢).

• وقال ﷺ: «من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة»^(٣).

• وقال رسول الله ﷺ: «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة»^(٤).

• وقال ﷺ: «لا يشهد أحدٌ أنه لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فيدخل النار أو تطعمه»^(٥).

• وقال ﷺ: «يا ابن الخطاب! اذهب فناد في الناس: إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون»^(٦).

• وقال رسول الله ﷺ: «يا ابن عوف! اركب فرسك، ثم ناد: إن الجنة لا تحل إلا للمؤمن»^(٧).

(١) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم عن عبادة بن الصامت.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم عن معاذ، وصححه الألباني في «الإرواء» (٦٨٧)، و«أحكام الجنائز» (٣٤)، و«صحيح الجامع» (٦٤٧٩).

(٣) رواه أحمد، والبخاري عن أنس.

(٤) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم عن ابن مسعود.

(٥) رواه مسلم عن عتبان بن مالك.

(٦) رواه أحمد، ومسلم عن عمر.

(٧) صحيح: رواه أبو داود عن العرياض، وصححه الألباني في «تخريج وتحقيق

• وقال ﷺ: «يا بلال! قم فأذن: لا يدخل الجنة إلا مؤمن، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»^(١).

• وقال رسول الله ﷺ: «يا معاذ بن جبل! هل تدري ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله؟ فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً»^(٢).

• وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم وفد نجران فقالوا - للرسول ﷺ -: صِفْ لَنَا رَبَّكَ أَزْبَرُجْدٌ؟ أَمْ ياقوتٌ؟ أَمْ ذهبٌ؟ أَمْ فضةٌ؟.

فقال: «إن ربي ليس من شيء، وإنه خلق الأشياء»، فنزلت: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقالوا: هو واحد وأنت واحد، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ، قالوا: زدنا من الصفة. قال: ﴿اللَّهُ الْأَكْمَدُ﴾. فقالوا: وما الصمد؟ قال: «الذي يضمد الخلق إليه في الجوائج». فقالوا: زدنا. فقال: ﴿لَمْ يَكِدْ﴾ كما ولدت مريم، ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ كما ولد عيسى، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ يريد: نظيراً من خلقه»^(٣).

المشكاة» (١٦٤)، وهو قطعة من حديث للعباض المذكور بتمامه هناك، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٨٤٠).

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي وابن ماجه عن معاذ بن جبل.

(٣) صحيح: رواه أحمد في «المسند» والترمذي (٣٣٦٤)، والحاكم (٥٤٠/٢)

وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وابن جرير في «تفسيره» وهو

حديث صحيح.

من درر كلام السلف الوارد في «التوحيد»^(١) :

□ قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿..أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ٦٤] لا وثناً ولا صليياً ولا صنماً ولا طاغوتاً ولا ناراً، بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له، وهذه دعوة جميع الرُّسل، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء]»^(٢).

□ قال أبو العالية في تفسير «السواء» في قوله عزَّ من قائل: ﴿قُلْ يَأْهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ﴾ [آل عمران: ٦٤].. كلمة السَّوَاءِ «لا إله إلا الله»^(٣).

□ قال مجاهد: «كلمة التَّقْوَى: لا إله إلا الله»^(٤).

□ سئل الزُّهريُّ عن قول النبي ﷺ: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»، فقال: «إِنَّمَا كَانَ هَذَا فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ قَبْلَ نَزُولِ الْفَرَائِضِ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ» قال الترمذي: ووجهُ هذا الحديث عند بعض أهل العلم: أن أهل التوحيد سيدخلون الجنة، وإن عذبوا بالنَّارِ بذُنُوبِهِمْ فَإِنَّهُمْ لَا يَخْلُدُونَ فِي النَّارِ»^(٥).

□ قال الإمام البخاري: «قال: عدَّةٌ من أهل العلم في قوله تعالى:

(١) انظر: «نصرة النعيم» (ص ١٣٣٧).

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٧٩).

(٣) «تفسير الطبري» (٣/ ٢١٥).

(٤) «فتح الباري» (٨/ ٥٧٥).

(٥) الترمذي (٥/ ٢٤) ورد هذا الأثر شرحاً لحديث: «من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة».

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسَعَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجر] عن قول لا إله إلا الله^(١). قال ابن حجر: «من هؤلاء أنس بن مالك، وعبد الله بن عمر ومجاهد»^(٢).

□ قال النيسابوري في تفسير سورة الإخلاص: «وردت الأخبار الكثيرة بفضل سورة الإخلاص وأنها تعدل ثلث القرآن، فاستنبط العلماء لذلك وجهًا مناسبًا: وهو أن القرآن مع غزارة فوائده اشتمل على ثلاثة معاني فقط هي: معرفة ذات الله تعالى، ومعرفة أفعاله وسُنَّته مع عباده. ولما تضمَّنت سورة الإخلاص أحد هذه الأقسام الثلاثة وهو التَّقْدِيسُ - أي التوحيد - وازنها رسول الله ﷺ بثُلُثِ الْقُرْآنِ»^(٣).

□ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن هذه الآية التي في القرآن: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأحزاب] قال: في التَّوَارَةِ: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ونذيرًا وحرزًا للأُمِّيِّين أنت عبدي ورسولي، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكَّلَ، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يُقِيمَ به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح بها أعينا عمياء، وآذانًا صماء، وقلوبًا غُلْفًا^(٤)، قال ابن حجر: فيفتح بها أي بكلمة التوحيد»^(٥).

□ قال الطبري في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ

(١) «فتح الباري» (١/٩٧).

(٢) «فتح الباري» (١/٩٨).

(٣) «رغائب الفرقان» للنيسابوري (٢٠١/٣٠) على هامش الطبري.

(٤) البخاري - «الفتح» (٤٨٣٨).

(٥) «فتح الباري» (٨/٤٥١).

أَنَا وَمَنْ أَتَّبَعَنِي وَسُبَّحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ [يوسف] يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَذِهِ﴾ الدعوة التي أَدْعُو إليها والطريقة التي أنا عليها من الدُّعاء إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له دُونَ الآلهة والأوثان، والانتهاة إلى طاعته وترك معصيته ﴿سَبِيلِي﴾ وطريقتي ودعوتي ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ﴾ وحده لا شريك له^(١).

□ قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤] أي: لا نَتَّبِعُهُ في تحليل شيءٍ أو تحريمه إلا فيما حلَّه الله تعالى، وهو نظيرُ قوله وَعَجَّلْنَا: ﴿أَتَّخِذُوا أَجْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] معناه أنهم أنزلوهم منزلة ربهم في قبول تحليلهم وتحريمهم لما لم يُحلِّله الله تعالى ولم يُحرِّمه^(٢).

□ وقال جرَّ الله في تفسير قوله تعالى: ﴿أَتَّخِذُوا أَجْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، قال أهل المعاني: جعلوا أجبارهم ورهبانهم كالآرباب حيث أطاعوهم في كل شيء^(٣).

□ وسئل حذيفة عن قوله تعالى: ﴿أَتَّخِذُوا أَجْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] هل عبدوهم؟ فقال: لا، ولكن أحلُّوا لهم الحرام فاستحلُّوه، وحرَّموا عليهم الحلال فحرَّموه^(٤).

□ قال ابن تيمية رحمه الله: «إِنَّ التَّوْحِيدَ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ قَوْلِيُ

(١) «تفسير الطبري» (١٣/٥٢).

(٢) «تفسير القرطبي» (٤/١٠٦).

(٣) «تفسير القرطبي» (٨/١٢٠).

(٤) «تفسير القرطبي» (٨/١٢٠).

وعملي، فالتوحيدُ القوليُّ مثلُ سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾،
 والتوحيدُ العمليُّ ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لِكُفْرَاتٍ﴾ ولذا كان النبي ﷺ يقرأُ
 بهاتين السورتين في ركعتي الفجر وركعتي الطَّوافِ قوله تعالى: ﴿قُولُوا
 ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]، وفي الركعة الثانية بقوله تعالى: ﴿قُلْ
 يَتَّاهَلُ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ
 بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا
 مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ [آل عمران] فإن هاتين الآيتين فيهما دينُ الإسلام، وفيهما
 الإيمانُ القوليُّ والعمليُّ، فقوله تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ
 إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ﴾ إلى آخرها [البقرة: ١٣٦]
 يتضمَّنُ الإيمانُ القوليَّ والإسلامَ. وقوله: ﴿قُلْ يَتَّاهَلُ الْكِتَابِ تَعَالَوْا...﴾
 الآية إلى آخرها [آل عمران: ٦٤] يتضمَّنُ الإسلامَ والإيمانَ العمليَّ، فأعظمُ
 نعمةٍ أنعمها الله على عباده الإسلامُ والإيمانُ وهما في هاتين الآيتين^(١).

□ قال عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهَّاب: «إن حقيقة
 معنى كلمة «لا إله إلا الله» الإخلاصُ ونفيُ الشرك. وكلاهما متلازمان،
 لا يوجدُ أحدهما بدون الآخر، فإنَّ من لم يكن مُخْلِصًا فهو مشركٌ، ومن لم
 يكن صادقًا فهو منافقٌ، والمخلصُ أن يقولها مُخْلِصًا الإلهيةَ لله ﷻ، وهذا
 التوحيدُ هو أساسُ الإسلام الذي قال الخليل ﷺ: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ
 لَكَ وَمِنْ دُرَيْتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٦]..

ولذا قُيِّدَتْ في الحديث بقوله ﷺ: «غير شاك» فلا تنفعُ إلا من قالها

(١) «قاعدة جليلة في التوسُّل والوسيلة» لابن تيمية (١٨٢، ١٨٣).

بعلم ويقين لقوله: «صَدَقًا مِنْ قَلْبِهِ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ..» (١).

□ وقال أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ رَبِّهِمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٣٦) [المؤمنون].

«ترك الشُّرك يتضمَّنُ كمال التوحيد ومعرفته على الحقيقة ومحبتُهُ وقبوله والدعوة إليه كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ۗ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَعَابِدُ﴾ [الرعد]، وتضمَّنت هذه الآية كمال التوحيد وتحقيقه» (٢).

□ قال ابن القيم رحمته:

حَقُّ الْإِلَهِ عِبَادَةٌ بِالْأَمْرِ لَا
مِنْ غَيْرِ إِشْرَاكِ شَيْئًا هُمَا
لَمْ يَنْجُ مِنْ غَضَبِ الْإِلَهِ وَنَارِهِ
وَالنَّاسُ بَعْدُ فَمُشْرِكٌ بِالْهِلْهِ

بِهَوَى النَّفْسِ فَذَاكَ لِلشَّيْطَانِ
سَبَبُ النَّجَاةِ فَحَبَّذَا السَّبَبَانَ
إِلَّا الَّذِي قَامَتْ بِهِ الْأَصْلَانِ (٣)
أَوْ ذُو ابْتِدَاعٍ أَوْ لَهُ الْوُصْفَانِ (٤)

□ وقال بعض الشعراء:

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَـهَ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ

هُ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَا حِدُّ!
تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ (٥)

(١) «قرة عيون الموحدين» للشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب (ص ١٠٨).

(٢) المرجع السابق (ص ٢).

(٣) الأصْلَانِ هما توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية.

(٤) «قرة عيون الموحدين» (ص ٩).

(٥) «الإملاء في إشكالات الإحياء» (٢٠) ملحق إحياء علوم الدين.

□ وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يعني: هو الواحد، الأحد، الذي لا نظير له، ولا وزير، ولا نديد، ولا شبيه، ولا عديل. ولا يُطلق هذا اللفظ على أحدٍ في الإثبات^(١) إلا على الله وَجَلَّ جَلَلُهُ، لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله^(٢).

* قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام].

يقول لقومه: كيف يسوغ في عقل، أو عند ذي لب أن أخاف ما جعلتموه لله شريكاً في الإلهية، وهي ليست بموضع نفع ولا ضرر، وأنتم لا تخافون أنكم أشركتم بالله في إلهيته أشياء لم ينزل بها حجة عليكم، ولا شرعها لكم، فالذي أشرك بخالقه وفاطره وباريه -الذي يقر بأنه خالق السموات والأرض ورب كل شيء ومليكه ومالك الضر والنفع - آلهة لا تخلق شيئاً وهي مخلوقة، ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها ضراً، ولا نفعاً، ولا موتاً، ولا حياة، ولا نشوراً، وجعلها ندّاً له ومثلاً في الإلهية تعبد، ويسجد لها، ويخضع لها، ويتقرب إليها، أحق بالخوف ممن لم يجعل مع الله إلهاً آخر، بل وحده، وأفرده بالإلهية، والربوبية، والعظمة، والسلطان والحب والخوف، والرجاء، فأَيُّ الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون؟

(١) لعل مراده أن هذا اللفظ لا يطلق مقصوداً بها معيّنًا، وإلا فقد ورد مقصوداً به

العموم في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ [التوبة: ٦].

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/٦٠٩).

فحكم الله سبحانه بينها بأحسن حكم خضعت له القلوب، وأقرت به الفطر، وانقادت له العقول فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٨٢) [الأنعام] فتأمل هذا الكلام، وعجيب موقعه، في قطع الخصوم، وأحاطته بكل ما وجب في العقل أن يرد به ما دعوه إليه وأرادوا حمله عليه وأخذه بمجامع الحججة التي لم تبق لطاعن مطعناً، ولا سؤالاً، ولما كانت بهذه المثابة، أشار سبحانه بذكرها وعظمتها بالإشارة إليها، وأضافها إلى نفسه تعظيماً لشأنها فقال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ [الأنعام: ٨٣].

فعلم السامع بإضافته إياها إلى نفسه أنه هو الذي فهمها خليله ولقنها إياه وعنه سبحانه أخذها الخليل، وكفى بحجة يكون الله وَعَلَىٰ ملقنها لخليله وحببيه أن تكون قاطعة لمواد العناد قامعة لأهل الشرك والإلحاد^(١).

أي الفريقين أحقُّ بالأمن وأولى أن لا يلحقه الخوف؟ فريق الموحدين؟ أم فريق المشركين؟ فحكم الله سبحانه بين الفريقين بالحكم العادل الذي لا حكم أصح منه. فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٨٢).

ولما نزلت هذه الآية شق أمرها على الصحابة وقالوا: يا رسول الله «وأينا لم يظلم نفسه؟» فقال: «إنما هو الشرك، ألم تسمعوا قول العبد الصالح ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]»^(٢). فحكم سبحانه

(١) «الصواعق المرسلة» لابن القيم (٤٨٥، ٤٩٠).

(٢) رواه البخاري (١٠٩/١) في الإيمان سباب: ظلم دون ظلم، ومسلم (٣٢٩/١) في الإيمان سباب: صدق الإيمان وإخلاصه.

للموحدين بالهدى والأمن، وللمشركين بضد ذلك، وهو الضلال والخوف، ثم قال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ﴾ [الأنعام: ٨٣].

كيف يخاف مَنْ وَحَدَ اللهُ؟ وماذا يخاف وَمَنْ يَخَافُ؟ وَكُلُّ قُوَّةٍ غَيْرِ قُوَّةِ اللهِ - هزيلة، وَكُلُّ سُلْطَانٍ غَيْرِ سُلْطَانِ اللهِ لَا يُخَافُ؟ إِنْ الْمُوَحَّدُ يَرْكُنُ إِلَى حِمَايَةِ اللهِ وَرِعَايَتِهِ.

«إِنْ مَنْطِقُ الْمُؤْمِنِ الْوَائِقُ الْمَدْرَكُ لِحَقَائِقِ هَذَا الْوُجُودِ. إِنَّهُ إِنْ كَانَ أَحَدٌ قَمِينًا بِالْخَوْفِ فَلَيْسَ هُوَ إِبْرَاهِيمَ وَلَيْسَ هُوَ الْمُؤْمِنُ، وَكَيْفَ يَخَافُ آلِهَةَ عَاجِزَةً - كَائِنَةً مَا كَانَتْ هَذِهِ الْآلِهَةُ، وَالَّتِي تَبَدَّى أَحْيَانًا فِي صُورَةِ جَبَّارِينَ فِي الْأَرْضِ بَطَّاشِينَ؛ وَهُمْ أَمَامَ قُدْرَةِ اللهِ مَهْزُولُونَ مَضْعُوفُونَ!!»

كيف يخاف إبراهيم عليه السلام هذه الآلهة الزائفة العاجزة، ولا يخافون هم أنهم أشركوا بالله ما لم يجعل له سلطاناً ولا قوة من الأشياء والأحياء؟ وأيّ الفريقين أحقّ بالأمن؟ الذي يؤمن به ويكفر بالشركاء؟ أم الذي يشرك بالله ما لا سلطان له ولا قوة؟ أيّ الفريقين أحقّ بالأمن، لو كان لهم شيء من العلم والفهم؟

هنا يتنزّل الجواب من الملائكة الأعلی؛ ويقضي اللهُ بحكمه في هذه القضية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٨٢)

الذين آمنوا وأخلصوا أنفسهم لله، لا يخلطون بهذا الإيثار شركاً في عبادة ولا طاقة ولا اتجاه. هؤلاء لهم الأمن، وهؤلاء هم المهتدون.

وقبل أن تغادر هذه النقطة نحب أن نستمتع بنفحة من نفحات الحياة في عصر صحابة رسول الله ﷺ - وهذا القرآن يتنزّل عليهم غضاً؛ وتشربه

نفوسهم، وتعيش له وبه، وتتعامل به وتتعايش بمدلولاته وإيحاءاته ومقتضياته، في جدٍّ ووعي في التزام عجيب، تأخذنا روعته وتبهرنا جدِّيته؛ وندرِك منه كيف كان هذا الرَّهْطُ الفريد من الناس، وكيف صنع الله بهذا الرَّهْطُ من الخوارق، في ربع قرنٍ من الزمان:

روى ابن جرير بإسناده عن عبد الله بن إدريس، قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾، شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أيُّنا لم يظلم نفسه؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «ليس كما تظنون، وإنما هو ما قال لقمان لابنه: ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣) [لقمان]».

وروى كذلك بإسناده عن ابن المسيب أن عمر بن الخطاب قرأ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾، فلما قرأها فرع. فأتى أبي بن كعب فقال: يا أبا المنذر قرأت آية من كتاب الله مَنْ يَسَلِّمْ؟ فقال: ما هي؟ فقرأها عليه.. فأنيا لا يظلم نفسه؟ فقال: غفر الله لك! أما سمعت الله تعالى ذكره يقول: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣)؟ إنما هو: ولم يلبسوا إيمانهم بشرك.

وروى - بإسناده - عن أبي الأشعر العبدي عن أبيه، أن زيد بن صوحان سأل سلمان، فقال: يا أبا عبد الله، آية من كتاب الله قد بلغت مني كل مبلغ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾! فقال سلمان: هو الشرك بالله تعالى ذكُّره. فقال زيد: ما يسرُّني بها أني لم أسمعها منك، وأن لي مثل كل شيءٍ أمسيت أملكه.

فهذه الآثار الثلاثة تُصوِّرُ لنا كيف كان حِسُّ هذا الرَّهْطِ الكريم بهذا

القرآن الكريم. كيف كانت جدية وقعه في نفوسهم. كيف كانوا يتلقونه وهم يشعرون أنه أوامر للتنفيذ وتقريرات حاسمة للطاعة، وأحكام نهائية للنفاد.

وكيف كانوا يجزعون أن يؤاخذوا بأي درجة من درجات التقصير، والتفاوت بين عملهم وبين مستوى التكليف، حتى يأتيهم من الله ورسوله التيسير! إنه مشهد كذلك رائع باهر.. مشهد هذه النفوس التي علمت هذا الدين.. وكانت ستاراً لقدر الله؛ ومنفداً لمشيئته في واقع الحياة»^(١).

وقفات مع آيات التوحيد:

* قال تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ ءَابَاؤُنَا عَبَادَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٣﴾﴾

[البقرة].

* وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ. وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ أَنْتُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣١﴾﴾ [النساء].

* وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة].

* وقال تعالى: ﴿قُلْ أَى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَيْنَكُم لَتَشْهَدُنَّ أَنَّ مَعَ اللَّهِ الْإِلَهَةَ أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَاحِدٌ وَإِنِّى بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام].

* وقال تعالى: ﴿أَوْعَيْبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصِطَةً فَأَذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَنَذَرَمَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا فَأَنبَايِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأعراف].

* وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهٌ إِلَّا هُوَ سُبْحٰنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢١﴾﴾ [التوبة].

* وقال تعالى: ﴿يَصْلِحْجِي السِّجْنَ ءَآرِبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف].

* وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَنَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِي ءَآوِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِنَفْسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمٰتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد].

* وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوٰتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ

أَلْفَهَارِ ﴿٤٨﴾ [إبراهيم].

* وقال تعالى: ﴿ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِءِ وَيَلْعَلُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ

وَلِيَذْكُرُوا أَوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾ [إبراهيم].

* وقال تعالى: ﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ

وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ [النحل].

* وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي

فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ [النحل].

* وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا

لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ [الكهف].

* وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَهَلْ

أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ [الأنبياء].

* وقال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا

رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَالذُّكْرُ فَالذُّكْرُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ

﴿٣٤﴾ [الحج].

* وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالنِّبَاتِ هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا

الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ

وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٦١﴾ [العنكبوت].

* وقال تعالى: ﴿ وَالصَّفَاتِ صَفًا ﴿١﴾ فَالزَّجْرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّائِبَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾

إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ [الصفات].

* وقال تعالى: ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ

﴿٤﴾ أَجْعَلُ لِلْأَلْهَةِ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ [ص].

* وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ ﴿٦٥﴾ [ص].

* وقال تعالى: ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ ﴿٤﴾ [الزمر].

* وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ ﴿٤٥﴾ [الزمر].

* وقال تعالى: ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ ﴿١٢﴾ [غافر].

* وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ ﴿١٦﴾ [غافر].

* وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّارَأَوْا بِأَسْنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ ﴿٨٤﴾ [غافر].

* وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْدٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿٦﴾ [فصلت].

* وقال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لَقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فَأَبَىٰ لِيْبَاعًا عَلَيكَ تَوَلَّوْنَا وَإِلَيْكَ أُنَبِّئُكَ الْصَّيْرُ ﴾ ﴿٤﴾ [المتحنة].

* وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنْ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ ﴿٢﴾ [الجن].

* وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ [الجن].

* وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ④﴾ [الإخلاص].

* وقال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ⑤﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿الْعَمَّ ① اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ② نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ③ مِن قَبْلُ هَدَىٰ لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ④ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ⑤ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ⑥ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⑦﴾ [آل عمران].

* وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⑧﴾ [آل عمران].

* وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ⑨ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ⑩ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكٰذِبِينَ ⑪ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصْصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⑫ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمُ بِالْمُفْسِدِينَ ⑬﴾ [آل عمران].

* وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحِجَّةٍ فحِوًّا بِأَحْسَنِ مَنِهَا أَوْ رُدُّوْهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ⑭﴾ [آل عمران].

أَصْدَقَ مِنْ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ [النساء].

* وقال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١٢﴾ وَ لَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٣﴾﴾

[الأنعام].

* وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ أَمَّا أَنَا فَأَطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسَمَهُ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ ﴿١١٤﴾﴾

[الأنعام].

* وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُغُرُوا عَلَيْكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يُشَاءُ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يُشَاءُ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَعْبَدُوا اللَّهَ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام].

* وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنعام].

* وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبِّحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ

مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾
وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ أَلَيْعَ مَا
أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ [الأنعام].

* وقال تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ
مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْمُتَمَرِّينَ ﴿١١٤﴾ [الأنعام].

* وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ
حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١١١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أُبْتَغِي رِبًّا وَهُوَ رَبُّ
كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ
فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١١٤﴾ [الأنعام].

* وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ
إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٦١﴾ [الأعراف].

* وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ
غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ [الأعراف].

* وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا
لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ
لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ آيِمٍ
﴿٧٣﴾ [الأعراف].

* وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا
لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا

الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَمْشِيَاءَ هُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي
الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾

[الأعراف].

* وقال تعالى: ﴿وَجَوْرَنا بِنِي إِسْرَاءَ يَلِ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى
أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مَوْسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾
إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا هُمْ فِيهِ وَيَطَّلُوا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغْيَرَ اللَّهُ بَعْضَ كُفْرِكُمْ إِلَهًا
وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ
يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ
بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ [الأعراف].

* وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيِّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ
مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ
الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

[الأعراف].

* وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا
عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ
حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٦٩﴾ [التوبة].

* وقال تعالى: ﴿وَجَوْرَنا بِنِي إِسْرَاءَ يَلِ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ
بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو
إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٠﴾ ءَأَلْكَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١١﴾
فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ يَدِينِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا
لَغَافِلُونَ ﴿١٢﴾ [يونس].

* وقال تعالى: ﴿وَالِىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۗ إِن أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ [هود].

* وقال تعالى: ﴿وَالِىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۗ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ ﴿٦١﴾ [هود].

* وقال تعالى: ﴿وَالِىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۗ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَىٰكُمْ بِمُخْتَلِفٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ ﴿٨٤﴾ [هود].

* وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ ۗ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ﴾ ﴿٣٠﴾ [الرعد].

* وقال تعالى: ﴿أَنَّىٰ أَمُرُ اللَّهَ فَلَا تَسْتَعِجِلُوهُ سَبْحَنَهُ ۗ وَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿١﴾ يُزِيلُ الْمَلٰٓئِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ تَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ [النحل].

* وقال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ۗ آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخذُومًا ۗ﴾ ﴿٣٢﴾ [الإسراء].

* وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ۗ آخَرَ فَتُنْقَلَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ ﴿٣٦﴾ أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلٰٓئِكَةِ إِنثًا ۗ إِنَّكُمْ لِنُقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ ۗ إِلَٰهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا يَنْفَعُونَ إِذَا لَا يَنْفَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سَبْحَنَهُ ۗ وَتَعَلَّىٰ

عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ ﴿[الإسراء].

* وقال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَتُّوْا لِقَوْمِنَا اتِّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴿[الكهف].

* وقال تعالى: ﴿ طه ﴿١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْتَصِي ﴿٣﴾ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾ ﴿[طه].

* وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا آتَيْنَاهَا نُودَى يَمُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ ﴿[طه].

* وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٨﴾ ﴿[طه].

* وقال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴿[الأنبياء].

* وقال تعالى: ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١١﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ

إِلَهَةٌ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّعِي وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴿[الأنبياء].

* وقال تعالى: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَوِّجُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴿[الأنبياء].

* وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المؤمنون].

* وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٢١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴿٢٢﴾ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاعِ الْآخِرَةِ وَأُتِرْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ بِأَكْلِ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المؤمنون].

* وقال تعالى: ﴿ مَا آتَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١١﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [المؤمنون].

* وقال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَّىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [المؤمنون].

* وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُخَلِّدُ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ [الفرقان].

* وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٤﴾﴾

[الشعراء].

* وقال تعالى: ﴿وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَا يَسْجُدُونَ لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل].

* وقال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص].

* وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

[القصص].

* وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَدْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفٍ تُؤْفَكُونَ ﴿٢﴾﴾ [فاطر].

* وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ آيَاتِنَا لَتَأْرِكُوهُنَّ الْهَيْتَنَا الشَّاعِرِ مَجْتُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾

[الصفات].

* وقال تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينِيَّةً أَرْوِجَ بَخْلَفُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلَقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾ إِنَّ تَكْفُرًا قَاتِ اللَّهُ عَنِّي عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾ [الزمر].

* وقال تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١﴾﴾ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٣﴾﴾ قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَنْ أَعْبُدَ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزمر].

* وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس].

* وقال تعالى: ﴿حَمَّ ﴿١﴾﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَوِّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿٣﴾﴾ [غافر].

* وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ أَيْدِي لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١١﴾﴾

ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآنِي تُؤْفَكُونَ ﴿١٢﴾ ﴿[غافر].

* وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً
وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ
فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ
مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴿[غافر].

* وقال تعالى: ﴿أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْتُهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾
فَأَسْتَسِيكَ بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ إِنَّا كَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ
وَسَوْفَ نَسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْئَلٌ مِّنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ
إِلَهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴿[الزخرف].

* وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ
﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ، مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ ﴿[الزخرف].

* وقال تعالى: ﴿حَمَّ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ
مُبْرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا
مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ، هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمْ
الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ﴿[الدخان].

* وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَوَسَّعَتْ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ
إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴿١٨﴾ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ
وَمَثُوبَكُمْ ﴿١٩﴾ ﴿[محمد].

* وقال تعالى: ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكَرُمَتُهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ٥٥ ﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكَرُمَتُهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ٥٦ ﴾ [الذاريات].

* وقال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ ٣٩ ﴾ أَمْ تَسْتَأْجِرُنَّ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ٤٠ ﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ٤١ ﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ٤٢ ﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٤٣ ﴾ [الطور].

* وقال تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ٢٢ ﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٢٣ ﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٢٤ ﴾ [الحشر].

* وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبئْسَ الْمَصِيرُ ١٠ ﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١١ ﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ١٢ ﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ١٣ ﴾ [التغابن].

* وقال تعالى: ﴿ وَأذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ٨ ﴾ رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ٩ ﴾ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْرُجْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ١٠ ﴾ [المزمل].

إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ:

* قال تعالى: ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٨٤ ﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٨٥ ﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ٨٦ ﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِزُكَ ٨٧ ﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ



شَيْءٌ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُشْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْفِقُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴿

[المؤمنون].

* وقال تعالى: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ ﴾ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَواسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَفَاءَ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا تَوَابُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴿ [النمل].

سلامٌ من الله على أنبيائه ورسله لسلامة عقيدتهم وطهرها.. يفتح الله عَلَانًا بذلك الحمد وهذا السلام جولة عن العقيدة، جولة في مشاهد الكون وأغوار النفس، وأطواء الغيب وهي إيقاعات قوية تقتحم القلوب؛ لأنها إيقاعات كونية تملأ صفحة الوجود من حولهم، أو إيقاعات وجدانية يحسونها في قلوبهم:

«وبعد هذا الافتتاح يأخذ في توقيعاته على القلوب المنكرة لآيات الله،

مبتدئاً بسؤال لا يحتمل إلا إجابة واحدة، يستنكر به أن يشركوا بالله هذه
الآلهة المدعاة:

﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٥١) ..؟

وما يشركون؟! أصنام وأوثان، أو ملائكة وجن، أو خلق من خلق
الله؟! على أية حال، لا يرتقي أن يكون شبيهاً بالله - سبحانه - فضلاً على
أن يكون خيراً منه. ولا يخطر على قلب عاقل أن يعقد مقارنة أو موازنة.
ومن ثم يبدو هذا السؤال بهذه الصيغة وكأنه تهكم محض، توبيخ صرف؛
لأنه غير قابل أن يوجه على سبيل الجد، أو أن يطلب عنه جواب!

ومن ثم يعدل عنه إلى سؤال آخر، مستمد من واقع هذا الكون
حولهم، ومن مشاهدته التي يرونها بأعينهم: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ
تُنَبِّتُوا شَجَرَهَا إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلَّغٌ لِّهَمِّ قَوْمٍ يُعَدِّلُونَ﴾ [النمل]..

والسماوات والأرض حقيقة قائمة لا يملك أحد إنكار وجودها، ولا
يملك كذلك أن يدعي أن هذه الآلهة المدعاة خلقتها.. وهي أصنام أو
أوثان، أو ملائكة وشياطين، أو شمس أو قمر.. فالبداهة تصرخ في وجه
هذا الادعاء. ولم يكن أحد من المشركين يزعم أن هذا الكون قائم بنفسه،
مخلوق بذاته، كما وجد من يدعي مثل هذا الادعاء المتهافت في القرون
الأخيرة! فكان مجرد التذكير بوجود السماوات والأرض، والتوجيه إلى
التفكير فيمن خلقها، كفيلاً بالزام الحجة، ودحض الشرك، وإفحام
المشركين. وما يزال هذا السؤال قائماً، فإن خلق السماوات والأرض على
هذا النحو الذي يبدو فيه القصد، ويتضح فيه التدبير، ويظهر فيه التناسق

المطلق الذي لا يمكن أن يكون فلتة ولا مصادفة. مُلجئ بذاته إلى الإقرار بوجود الخالق الواحد، الذي تتضح وحدانيته بآثاره. ناطق بأن هناك تصميمًا واحدًا متناسقًا لهذا الكون لا تعدد في طبيعته ولا تعدد في اتجاهه. فلا بد أنه صادر عن إرادة واحدة غير متعددة. إرادة قاصدة لا يفوتها القصد في الكبير ولا في الصغير.

﴿أَمْنَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ .. ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ ..؟

والماء النازل من السماء حقيقة كذلك مشهودة يستحيل إنكارها، ويتعذر تعليلها بغير الإقرار بخالق مدبر، فطر السماوات والأرض وفق هذا الناموس الذي يسمح بنزول المطر، بهذا القدر، الذي توجد به الحياة، على النحو الذي وجدت به، فما يمكن أن يقع هذا كله مصادفة، وأن تتوافق المصادفات بها الترتيب الدقيق، وبهذا التقدير المضبوط. المنظور فيه إلى حاجة الأحياء وبخاصة الإنسان. هذا التخصيص الذي يعبر عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ..﴾ والقرآن يوجه القلوب والأبصار إلى الآثار المحيية لهذا الماء المنزل للناس وفق حاجة حياتهم، منظورًا فيه إلى وجودهم وحاجاتهم وضروراتهم. يوجه القلوب والأبصار إلى تلك الآثار الحية القائمة حيالهم وهم عنها غافلون:

﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ ..

حدائق بهيجة ناضرة حية جميلة مفرحة.. ومنظر الحدائق يبعث في القلب البهجة والنشاط والحيوية. وتأمل هذه البهجة والجمال الناضر الحي الذي يبعثها كفيل بإحياء القلوب. وتدبر آثار الإبداع في الحدائق

كفيل بتمجيد الصانع الذي أبدع هذا الجمال العجيب. وإن تلوين زهرة واحدة وتنسيقها ليعجز عنه أعظم رجال الفنون من البشر. وإن تموج الألوان وتداخل الخطوط وتنظيم الوريقات في الزهرة الواحدة ليبدو معجزة تتقاصر دونها عبقرية الفن في القديم والحديث. فضلاً على معجزة الحياة النامية في الشجر - وهي السر الأكبر الذي يعجز عن فهمه البشر :- ﴿مَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تَنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ وسر الحياة كان وما يزال مستغلماً على الناس. سواء أكان في النبات أم في الحيوان أم في الإنسان. فما يملك أحد حتى اللحظة أن يقول: كيف جاءت هذه الحياة، ولا كيف تلبست بتلك الخلائق من نبات أو حيوان أو إنسان. ولا بد من الرجوع فيها إلى مصدر وراء هذا الكون المنظور.

وعندما يصل في هذه الوقفة أمام الحياة النامية في الحدائق البهيجة إلى الإثارة والانتباه وتحريك التأمل والتفكير. يهجم عليهم سؤال:

﴿أَأَلَهُمْ مَعَ اللَّهِ﴾ ..

ولا مجال لمثل هذا الادعاء؛ ولا مفر من الإقرار والإذعان.. وعندئذ يبدو موقف القوم عجيباً، وهم يُسوون آلهتهم المدعاة بالله، فيعبدونها عبادة الله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ ..

ويعدلون: إما أن يكون معناها يُسوون. أي: يسوون آلهتهم بالله في العبادة. وإما أن يكون معناها: يحيدون. أي: يحيدون عن الحق الواضح المبين. بإشراك أحد مع الله في العبادة؛ وهو وحده الخالق الذي لم يشاركه أحد في الخلق. وكلا الأمرين تصرف عجيب لا يليق!

ثم ينتقل بهم إلى حقيقة كونية أخرى، يواجههم بها كما واجههم

بحقيقة الخلق الأولى:

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهْرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل: ٦١]..

لقد كانت الحقيقة الكونية الأولى هي حقيقة خلق السماوات والأرض. أما هذه فهي الهيئة التي خلق عليها الأرض. لقد جعلها قرارًا للحياة، مستقرة مطمئنة صالحة يمكن أن توجد فيها الحياة وتنمو وتتكاثر. ولو تغير وضعها من الشمس والقمر؛ أو تغير شكلها، أو تغير حجمها، أو تغيرت عناصرها والعناصر المحيطة في الجو بها، أو تغيرت سرعة دورتها حول نفسها، أو سرعة دورة القمر حولها.. إلى آخر هذه الملاحظات الكثيرة التي لا يمكن أن تتم مصادفة، وأن تتناسق كلها هذا التناسق.. لو تغير شيء من هذا كله أدنى تغيير، لما كانت الأرض قرارًا صالحًا للحياة.

وربما أن المخاطبين إذ ذاك لم يكونوا يدركون من قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾؟ كل هذه العجائب. ولكنهم كانوا يرون الأرض مستقرًا صالحًا للحياة على وجه الإجمال؛ ولا يملكون أن يدعوا أن أحدًا من آلهتهم كان له شرك في خلق الأرض على هذا المنوال. وهذا يكفي. ثم يبقى النص بعد ذلك مفتوحًا للأجيال؛ وكلما اتسع علم البشر أدركوا شيئًا من معناه الضخم المتجدد على توالي الأجيال. وتلك معجزة القرآن في خطابه لجميع العقول، على توالي الأزمان!.

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهْرًا﴾..

والأنهار في الأرض هي سرايين الحياة، وهي تنتشر فيها إلى الشرق وإلى الغرب، وإلى الشمال وإلى الجنوب، تحمل معها الخصب والحياة

والنماء. والأنهار تتكون من تجمع مياه الأمطار وجريانها وفق طبيعة الأرض. والله الذي خلق هذا الكون هو الذي قَدَّرَ في تصميمه إمكان تكون السحب، ونزول المطر، وجريان الأنهار. وما يملك أحد أن يقول: إن أحدًا سوى الخالق المدبر قد شارك في خلق هذا الكون على هذا النحو؛ وجريان الأنهار حقيقة واقعة يراها المشركون. فمن ذا أوجد هذه الحقيقة؟» ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ﴾

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ ..

والرواسي: الجبال. وهي ثابتة مستقرة على الأرض. وهي في الغالب منابع الأنهار، حيث تجري منها مياه الأمطار إلى الوديان؛ وتشق مجراها بسبب تدفقها من قمم الجبال العالية بعنف وقوة.

والرواسي الثابتة تقابل الأنهار الجارية في المشهد الكوني الذي يعرضه القرآن هنا والتقابل التصويري ملحوظ في التعبير القرآني. وهذا واحد منه. لذلك يذكر الرواسي بعد الأنهار.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ ..

البحر الملح الأجاج، والنهر العذب الفرات. ساهما بحرين على سبيل التغليب من حيث مادتهما المشتركة وهي الماء. والحاجز في الغالب هو الحاجز الطبيعي، الذي يجعل البحر لا يفيض على النهر فيفسده. إذ أن مستوى سطح النهر أعلى من مستوى سطح البحر. وهذا ما يحجز بينهما مع أن الأنهار تصب في البحار، ولكن مجرى النهر يبقى مستقلاً لا يطغى عليه البحر. وحتى حين ينخفض سطح النهر عن سطح البحر لسبب من الأسباب فإن هذا الحاجز يظل قائماً من طبيعة كثافة ماء البحر وماء النهر.

إذ يخف ماء النهر ويثقل ماء البحر فيظل مجرى كل منهما مميّزًا لا يمتزجان ولا يبغى أحدهما على الآخر. وهذا من سنن الله في خلق هذا الكون، وتصميمه على هذا النحو الدقيق.

فمن فعل هذا كله؟ من؟ ﴿أَلَمْ يَخْلُقْكُمْ اللَّهُ﴾ ..

وما يملك أحد أن يدعي هذه الدعوى. ووحدة التصميم أمامه تجبره على الاعتراف بوحدة الخالق.. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ..

ويذكر العلم هنا لأن هذه الحقيقة الكونية تحتاج إلى العلم لتلمّي الصنعة فيها والتنسيق، وتدبر السنة فيها والناموس. ولأن التركيز في السورة كلها على العلم.

ثم ينتقل بهم من مشاهد الكون إلى خاصة أنفسهم:

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُم مَخْرَجًا وَيَرْزُقْكُمْ مِنْ أَيْنَ تُرِيدُونَ﴾ [النمل: ١٢] ..

فيلمس وجدانهم وهو يذكرهم بخوارج أنفسهم، وواقع أحوالهم. فالمضطر في لحظات الكربة والضيق لا يجد له ملجأ إلا الله يدعوه ليكشف عنه الضر والسوء؛ ذلك حين تضيق الحلقة، وتشتد الخنقة، وتتخاذل القوى، وتتهاوى الأسناد؛ وينظر الإنسان حواليه فيجد نفسه مجرداً من وسائل النصر وأسباب الخلاص. لا قوته، ولا قوة في الأرض تنجده. وكل ما كان يعده لساعة الشدة قد زاغ عنه أو تحلى؛ وكل من كان يرجوه للكربة قد تنكر له أو تولى.. في هذه اللحظة تستيقظ الفطرة فتلجأ إلى القوة الوحيدة التي تملك الغوث والنجدة، ويتجه الإنسان إلى الله ولو كان قد نسيه من قبل في ساعات الرخاء. فهو الذي يجيب المضطر إذا

دعاه. هو وحده دون سواه. يجيبه ويكشف عنه السوء، ويرده إلى الأمن والسلامة، وينجيه من الضيقة الآخذة بالخناق.

والناس يغفلون عن هذه الحقيقة في ساعات الرخاء، وفترات الغفلة. يغفلون عنها فيلتمسون القوة والنصرة والحماية في قوة من قوى الأرض الهزيلة. فأما حين تلجؤهم الشدة، ويضطرهم الكرب، فتزول عن فطرتهم غشاوة الغفلة، ويرجعون إلى ربهم منبئين مهما يكونوا من قبل غافلين أو مكابرين.

والقرآن يرد المكابرين الجاحدين إلى هذه الحقيقة الكامنة في فطرتهم، ويسوقها لهم في مجال الحقائق الكونية التي ساقها من قبل. حقائق خلق السماوات والأرض، وإنزال الماء من السماء، وإنبات الحدائق البهيجة، وجعل الأرض قرارًا، والجبال رواسي، وإجراء الأنهار، والحاجزين البحرين. فالتجاء المضطر إلى الله، واستجابة الله له دون سواه حقيقة كهذه الحقائق. هذه في الآفاق وتلك في الأنفس سواء بسواء.

ويمضي في لمس مشاعرهم بما هو واقع في حياتهم: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ .. فمن يجعل الناس خلفاء الأرض؟ أليس هو الله الذي استخلف جنسهم في الأرض أولاً. ثم جعلهم قرنًا بعد قرن، وجيلًا بعد جيل، يخلف بعضهم بعضًا في مملكة الأرض التي جعلهم فيها خلفاء؟

أليس هو الله الذي فطرهم وفق النواميس التي تسمح بوجودهم في هذه الأرض، وزودهم بالطاقات والاستعدادات التي تقدرهم على الخلافة فيها، وتعددهم لهذه المهمة الضخمة الكبرى. النواميس التي تجعل الأرض لهم قرارًا؛ والتي تنظر الكون كله متناسقًا بعضه مع بعض بحيث

تتهياً للأرض تلك الموافقات والظروف المساعدة للحياة. ولو اختل شرط واحد من الشروط الكثيرة المتوافرة في تصميم هذا الوجود وتنسيقه، لأصبح وجود الحياة على هذه الأرض مستحيلًا.

وأخيرًا أليس هو الله الذي قدر الموت والحياة، واستخلف جيلًا بعد جيل؛ ولو عاش الأولون لضاقت الأرض بهم وبالأخرين؛ ولأبطأ سير الحياة والحضارة والتفكير؛ لأن تجدد الأجيال هو الذي يسمح بتجدد الأفكار والتجارب والمحاولات، وتجدد أنماط الحياة، بغير تصادم بين القدامى والمحدثين إلا في عالم الفكر والشعور. فأما لو كان القدامى أحياء لتضخم التصادم والاعتراض! ولتعطل موكب الحياة المندفع إلى الأمام!

إنها كلها حقائق في الأنفس كتلك الحقائق في الآفاق. فمن الذي حقق وجودها وأنشأها؟ من؟

﴿أَأَلَّهُ مَعَ اللَّهِ﴾ ..

إنهم لينسون ويغفلون. هذه الحقائق كامنة في أعماق النفوس، مشهودة في واقع الحياة:

﴿قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ﴾ ..!

ولو تذكر الإنسان وتدبر مثل هذه الحقائق لبقى موصولاً بالله صلة الفطرة الأولى. ولما غفل عن ربه، ولا أشرك به أحدًا.

ثم يمضي السياق إلى بعض الحقائق الأخرى المثلة في حياة الناس ونشاطهم على هذا الكوكب، ومشاهداتهم التي لا تنكر:

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٣) ..!

والناس - ومنهم المخاطبون أول مرة بهذا القرآن - يسلكون فجاج البر والبحر في أسفارهم؛ ويسبرون أسرار البر والبحر في تجاربهم.. ويبتدون.. فمن يهديهم؟ من أودع كيانتهم تلك القوى المدركة؟ من أقدرهم على الاهتداء بالنجوم وبالآلات وبالمعالم؟ من وصل فطرتهم بفطرة هذا الكون، وطاقتهم بأسراره؟ من جعل لأذانهم تلك القدرة على التقاط لأصوات، ولعيونهم تلك القدرة على التقاط الأضواء؟ ولحواسهم تلك القدرة على التقاط المحسوسات؟ ثم جعل لهم تلك الطاقة المدركة المسماة بالعقل أو القلب للانتفاع بكل المدركات، وتجميع تجارب الحواس والإلهامات؟

من؟ ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾ ..

﴿وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بِشْرَابِنَ يَدِي رَحْمَتِهِ﴾ ..؟

والرياح، مهما قيل في أسبابها الفلكية والجغرافية، تابعة للتصميم الكوني الأول، الذي يسمح بجريانها على النحو الذي تجري به، حاملة السحب من مكان إلى مكان، مبشرة بالمطر الذي تتجلى فيه رحمة الله، وهو سبب الحياة.

فمن الذي فطر هذا الكون على خلقته، فأرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته؟ من؟

﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾ ..؟ ﴿تَعَلَى اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ..!

ويختتم هذه الإيقاعات بسؤال عن خلقتهم وإعادتهم ورزقهم من السماء والأرض، مع التحدي والإفحام:

﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا

بُرْهَانِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾؟؟..

وبدء الخلق حقيقة واقعة لا يملك أحد إنكارها، ولا يمكن أحدًا تعليلها بغير وجود الله ووحدانيته. وجوده لأن وجود هذا الكون ملجئ للإقرار بوجوده؛ وقد باءت بالفشل المنطقي كل محاولة لتعليل وجود هذا الكون على هذا النحو الذي يظهر فيه التدبير والقصد بغير الإقرار بوجود الله ووحدانيته؛ لأن آثار صنعته ملجئة للإقرار بوحدانيته؛ فعليها آثار التقدير الواحد؛ وفيها من التناسق المطلق ما يجزم بالإرادة الواحدة المنشئة للناموس الواحد.

فأما إعادة الخلق فهذه التي كانوا يجادلون فيها ويهارون. ولكن الإقرار ببداء الخلق على هذا النحو الذي يظهر فيه التقدير والتدبير والقصد والتنسيق ملجئ كذلك للتصديق بإعادة الخلق، لِيَلْقُوا جزاءهم الحق على أعمالهم في دار الفناء، التي لا يتم فيها الجزاء الحق على الأعمال وإن كان يتم فيها أحيانًا بعض الجزاء.

فهذا التنسيق الواضح في خلقة الكون يقتضي أن يتم تمامه بالتنسيق المطلق بين العمل والجزاء.

وهذا لا يتم في الحياة الدنيا. فلا بد إذن من التصديق بحياة أخرى يتحقق فيها التناسق والكمال.. أما لماذا لم يتم في هذه الأرض ذلك التنسيق المطلق بين العمل والجزاء؟ فذلك متروك لحكمة صاحب الخلق والتدبير. وهو سؤال لا يجوز توجيهه لأن الصانع أعلم بصنعبته. وسر الصنعبه عند الصانع. وهو غيب من غيبه الذي لم يطلع عليه أحدًا!!

ومن هذا التلازم بين الإقرار بمبدئ الحياة والإقرار بمعيدها يسألهم

ذلك السؤال: ﴿أَمَّنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءَلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾.

والرزق من السماء والأرض متصل بالبدء والإعادة سواء. ورزق العباد من الأرض يتمثل في صور شتى أظهرها النبات والحيوان، والماء والهواء، للطعام والشراب والاستنشاق؛ ومنها كنوز الأرض من معادن وفلزات؛ وكنوز البحر من طعام وزينة. ومنها القوى العجيبة من مغناطيسية وكهرباء، وقوى أخرى لا يعلمها بعد إلا الله؛ ويكشف عن شيء منها لعباده أنا بعد أن.

وأما رزقهم من السماء فلهم في الحياة الدنيا: الضوء والحرارة والمطر وسائر ما ييسره الله لهم من القوى والطاقات. ولهم منه في الآخرة عطاء الله الذي يقسمه لهم، وهو من السماء بمدلولها المعنوي، الذي يتردد كثيراً في القرآن والسنة؛ وهو معنى الارتفاع والاستعلاء.

وقد ذكر رزقهم من السماء والأرض بعد ذكر البدء والإعادة؛ لأن رزق السماء والأرض له علاقة بالبدء والإعادة. فعلاقة رزق الأرض بالبدء معروفة فهو الذي يعيش عليه العباد. وعلاقته بالإعادة أن الناس يُجْزَوْنَ فِي الْآخِرَةِ عَلَى عَمَلِهِمْ وَتَصَرُّفِهِمْ فِي هَذَا الرِّزْقِ الَّذِي أُعْطَوْهُ فِي الدُّنْيَا.. وعلاقة رزق السماء بالبدء واضحة. فهو في الدنيا للحياة، وهو في الآخرة للجزاء.. وهكذا تبدو دقة التناسق في السياق القرآني العجيب.

والبدء والإعادة حقيقة. والرزق من السماء والأرض حقيقة. ولكنهم يغفلون عن هذه الحقائق، فيردهم القرآن إليها في تحدٍّ وإفحام:

﴿أَأَلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ..

وإنهم ليعجزون عن البرهان، كما يعجز عنه من يحاوله حتى الآن. وهذه طريقة القرآن في الجدل عن العقيدة. يستخدم مشاهد الكون وحقائق النفس؛ فيجعل الكون كله إطاراً للمنطق الذي يأخذ به القلوب؛ ويوقظ به الفطرة ويجلوها لتُحَكِّمَ منطقتها الواضح الواصل البسيط؛ ويستجيش به المشاعر والوجدانات بما هو مركز فيها من الحقائق التي تغشاها الغفلة والنسيان، ويحجبها الجحود والكفران.. ويصل بهذا المنطق إلى تقرير الحقائق العميقة الثابتة في تصميم الكون وأغوار النفس؛ والتي لا تقبل المراء الذي يقود إليه المنطق الذهني البارد، الذي انتقلت عدواه إلينا من المنطق الإغريقي، وفشا فيما يسمى علم التوحيد، أو علم الكلام»^(١).

* يُنادى على باب عزته ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ (٢٣)

[الأنبياء].

* ويصاح على محجة حُجَّتْهُ ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ

تَعَالَمُونَ﴾ (٨٤) [المؤمنون].

* ينذر جاسوس علمه ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾

[المجادلة: ٧].

* يترنم منشد فضله: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨].

* يقول جهبذ طوله: ﴿لَا تَقْظُورُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣].

□ من أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه، وأن تسمع داعيه ثم تتأخر في إجابته، وأن تعلم قدر غضبه ثم تتعرض له، وأن تعلم عصرة القلب

(١) انظر: «الظلال» (٢٦٥٥ - ٢٦٦١).

عند الخوض في غير حديثه ثم لا ترتاح إلى ذكره، وأعجب من هذا علمك أنك لا بد لك منه وأنك أحوج شيء إليه وأنت فيما يبعدك عنه راغب.

□ إليه إليه يا أهل الموت والفناء، يا من تفتنى آجالكم ممر الساعات واختلاف، الليل والنهار وهما شعبة يسيرة من سلطانه، كيف تستنكفون عن عبادته، ولا رب لكم غيره ولا وارث لكم سواه؟!.

الواحد: الأحد:

□ قال ابن الأثير في أسماء الله تعالى «الوَاحِدُ»: «وهو الفردُ الذي لم يزل وحده ولم يكن معه آخرُ، وقيل الواحد هو الذي لا يتجزأ ولا يُثنى ولا يقبل الانقسام ولا نظير له ولا مثل»^(١).

□ وقال الأزهرِيُّ: «الواحدُ من صفات الله تعالى معناه أنه لا ثاني له، ويجوز أن يُنعت الشيءُ بأنه واحدٌ، فأما أحدٌ فلا يُنعتُ به غير الله تعالى لِحُلُوصِ هذا الاسمِ الشَّرِيفِ له جَلَّ ثَنَاؤُهُ تَقُولُ: وَحَدَّثُ اللَّهَ وَأَحَدْتُهُ، وهو الواحد الأحد، ورُوي عن النبي ﷺ أَنَّ رَجُلًا ذَكَرَ اللَّهَ وَأَوْمَأَ بِإِصْبَعِيهِ، فَقَالَ لَهُ: «أَحَدٌ أَحَدٌ» أَيُّ أَشْرٍ بِإِصْبَعٍ وَاحِدَةٍ، وَأَمَّا قَوْلُ النَّاسِ: تَوَحَّدَ اللَّهُ بِالْأَمْرِ وَتَفَرَّدَ، فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ صَحِيحًا فَإِنِّي لَا أَحِبُّ أَنْ أَلْفِظَ بِهِ فِي صِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى، إِذْ لَا يُوصَفُ -عز وجل- إِلَّا بِهَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي التَّنْزِيلِ أَوْ فِي السُّنَّةِ، وَلَمْ أَجِدْ «الْمُتَوَحَّدَ» فِي صِفَاتِهِ وَلَا «الْمُتَفَرَّدَ»، وَإِنَّمَا نَتَهَي فِي صِفَاتِهِ إِلَى مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا بُجَاوِزُهُ إِلَى غَيْرِهِ لِمَجَازِهِ فِي الْعَرَبِيَّةِ»^(٢).

(١) «النهاية» لابن الأثير (٥/١٩٥).

(٢) «لسان العرب» لابن منظور «وحد» (٤٧٨١ - ٤٧٨٢) طبع دار المعارف،

□ وقال ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : «ليس في الموجودات ما يُسمى «أحدًا» في الإثبات مفردًا غير مضافٍ إلا الله تعالى، بخلاف النفي وما في معناه: كالشرط والاستفهام، فإنه يقال: هل عندك أحدٌ، وإن جاءني أحدٌ من جهتك أكرمته^(١). وذلك أنه سبحانه هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله»^(٢).

الفرق بين الواحد والأحد:

□ قال أبو منصور الأزهري وغيره: «الفرق بينهما أن الأحد بُني لنفي ما يُذكرُ معه من العدد تقول: ما جاءني أحدٌ، والواحدُ اسمٌ بُني لمفتتح العدد تقول: جاءني واحدٌ من الناس، ولا تقول جاءني أحدٌ، فالواحدُ منفردٌ بالذاتِ في عدم المثل والنظير، والأحدُ منفردٌ بالمعنى؛ وقيل: الواحد هو الذي لا يتجزأ ولا يُثنى ولا يقبل الانقسام ولا نظير له ولا مثل ولا يجمعُ هذين الوصفين إلا الله عَلَّاهُ^(٣)، وأمَّا اسم الله عَلَّاهُ «أحدٌ» فإنه لا يوصف شيءٌ بالأحدية غيرهُ لا يُقال: رجلٌ أحدٌ، ولا درهمٌ أحدٌ كما يقال رجلٌ وحدٌ أي: فردٌ؛ لأنَّ أحدًا صفةٌ من صفاتِ الرَّبِّ عَلَّاهُ التي استخلصها لنفسه ولا يَشْرِكُهُ فيها شيءٌ، وليس ذلك كقولك: الله واحدٌ، وهذا شيءٌ واحدٌ»^(٤).

و«النهاية» لابن الأثير (١٩٥/٥).

(١) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٢٣٥/١٧).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٦٠٩/٤).

(٣) «لسان العرب» «وحد» (٤٧٨٢) طبع دار المعارف.

(٤) «لسان العرب» (٤٧٨١).

□ وقال أبو هلال العسكري: «الفرق بين واحدٍ وأحدٍ أن معنى الواحد أنه لا ثاني له فلذلك لا يقال في الثنية واحدان، كما يقال رجلٌ ورجلانٍ ولكن قالوا: اثنان حين أرادوا أن كُلَّ واحدٍ منهما ثانی للآخر»^(١).

□ وقال النيسابوري: «الفرق بين الواحد والأحد من ثلاثة أوجه:

الأول: أن الواحد يدخل في الأحد والأحد لا يدخل فيه.

الثاني: أنك إذا قلت: فلانٌ لا يقاومه واحدٌ جاز أن يُقال: لكنه يقاومه

اثنان، وليس كذلك الأحد.

والثالث: أن الواحد يستعمل في الإثبات والأحد يستعمل في النفي

فيفيد العموم^(٢). ولعل وجه تخصيص الله بالأحد هو هذا المعنى^(٣).

عود على بدء:

□ قال الجرجاني: «التوحيد ثلاثة أشياء: معرفة الله بالربوبية، والإقرار بالوحدانية، ونفي الأنداد عنه جملة»^(٤).

□ وقال ابن منظور: «التوحيد: الإيمان بالله وحده لا شريك له، والله

الواحد الأحد: ذو الوحدانية والتَّوْحِيدِ»^(٥).

□ وقال صاحب «البصائر»: «التوحيد الحقيقي الذي هو سبب النجاة

(١) «الفروق» لأبي هلال العسكري (ص ١٣٤).

(٢) وقد يستعمل الأحد في الإثبات أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ

الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ [التوبة].

(٣) «غرائب القرآن و رغائب الفرقان» (بهامش الطبري) (مجلد ١٢ جزء ٣

ص ٢٠٤).

(٤) «التعريفات».

(٥) «لسان العرب» «وحد».

ومادة السعادة في الدار الآخرة هو ما بينه الله تعالى وهدانا إليه في كتابه العزيز ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران].

□ وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب: «التوحيد: هو إفراد الله سبحانه بالعبادة، وهو دين الرُّسُلِ الذين أرسلهم الله به إلى عباده»^(١).

□ وقال الدكتور ناصر العمر: «التوحيدُ شرعاً: إفرادُ الله بحقوقه، وهو لله ثلاثة حقوق: حقوقُ ملكٍ، وحقوقُ عبادةٍ، وحقوقُ أسماءٍ وصفاتٍ»^(٢).

التوحيد:

□ قال الفيروزآبادي: «التوحيدُ توحيدان:

الأول: توحيدُ الربوبيةِ، وصاحبُ هذا التوحيد يشهدُ قِيوميةَ الربِّ فوق عرشه يدبِّرُ أمر عباده وحده فلا خالق ولا رزاق ولا معطي ولا مانع ولا مميت ولا محيي ولا مدبِّرُ لأمرِ المملكة (والملكوت) ظاهراً وباطناً غيره، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا تتحركُ ذرَّةٌ إلا بإذنه، ولا يجري حادثٌ إلا بمشيئته، ولا تسقطُ ورقةٌ إلا بعلمه، ولا يعزُبُ عنه مثقالُ ذرَّةٍ في السمواتِ ولا في الأرض.. إلا وقد أحصاها علمُه وأحاطت بها قدرته، ونفذت فيها مشيئته واقتضتْها حكمته. والآخر: توحيدُ الألوهية ويعني أن يجمعَ تفصيلاً».

فأمَّا توحيدُ العلم: فمدارُه على إثبات صفات الكمال، وعلى نفي

(١) «مجموعة التوحيد» الرسالة الثالثة (٧).

(٢) «التوحيد أولاً» لناصر العمر (ص ١٥).

التشبيه والمثال، والتنزيه عن العيوب والنقائص، وقد دلَّ على هذا شيان: مجملٌ ومفصلٌ.

أما المجملُ: فإثباتُ الحمد له سبحانه، وأما المفصلُ: فذكر صفة الإلهية والرُّبُوبية والرحمة^(١) والملك، وعلى هذه الأربع مدار الأسماء والصفات، فأما تضمُّن الحمد لذلك فإنَّ الحمد يتضمَّنُ مدحَ المحمود بصفات كماله ونُعوتِ جلاله، مع محبَّته والرِّضا عنه والخضوع له فلا يكون حامدًا من جحد صفات المحمود ولا من أعرض عن محبته والخضوع له.. ومن المعلوم بالفطر والعقولِ السليمة والكتب السماوية أنَّ فاقد صفات الكمال لا يكون إلهًا ولا مدبرًا، ولا ربًّا بل هو مذمومٌ معيبٌ ناقصٌ ليس له حمدٌ في الأولى ولا في الآخرة، وإنَّما الحمدُ في الأولى والآخرة لمن له صفات الكمال، ونُعوتُ الجلالِ التي لأجلها استحقَّ الحمد. أما دلالة الأسماء الخمسة وهي: الله، الرَّبُّ، الرحمنُّ، الرحيمُّ، الملكُ فمبيَّنة على أصليين:

الأصل الأول: أنَّ أسماء الرَّبِّ تبارك وتعالى دالَّةٌ على صفات كماله. فهي مشتقَّةٌ من الصفات فهي أسماءٌ وهي أوصافٌ وبذلك كانت حُسنِي، إذ لو كانت ألفاظًا لا معانيَ فيها لم تكن حُسنِي، ولا كانت دالَّةً على مدح ولا كمال، ولشاع وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان.. وأيضًا لو لم تكن أسماؤه مشتملةً على معاني وصفاتٍ لم يسعُ

(١) ذكر ابن القيم في الصفحة التالية أن الأسماء الدالة على ذلك خمسة هي: الله، الرب، الرحمن، الرحيم، الملك. ومن ثم تكون الصفات أربعا وأسماء خمسا فليتاأمل.

أن يجبر عنه بأفعالها، فلا يُقال: يسمع ويرى ويعلم ويقدرُ ويريد، ذلك أن ثبوت أحكام الصفات فرعُ ثبوتها؛ لأنَّه إذا انتفى أصل الصِّفة استحال ثبوتُ حكمها، ونفيُّ معاني أسمائه - عز وجل - من أعظم الألحاد فيها»^(١).

أما الأصل الثاني: فهو أن الاسم من أسمائه تبارك وتعالى كما يُدُلُّ على الذات والصِّفة التي اشتقَّ منها بالمطابقة فإنَّه يدُلُّ على دالتين آخرين بالتضمُّن واللزوم، فيدُلُّ على الصِّفة نفسها بالتضمُّن، وكذلك على الذات المجرَّدة عن الصِّفة، فاسم السميع - مثلاً - يدُلُّ على ذات الربِّ وسمعه بالمطابقة وعلى الذات وحدها وعلى السمع وحده بالتضمُّن، ويتفاوت الناس في معرفة اللزوم وعدمه، ومن هنا يقعُ اختلافهم في كثيرٍ من الأسماء والصفات والأحكام، فإنَّ من علم أن الفعل الاختياريَّ لازمٌ للحياة، وأنَّ السمع والبصر لازمٌ للحياة الكاملة، وأنَّ سائر الكمال من لوازم الحياة الكاملة أثبتَّ من صفات الربِّ وصفاته وأفعاله ما يُنكره من لم يعرف لزوم ذلك، ولا عرف حقيقة الحياة ولوازمها وكذلك سائر صفاته كذلك»^(٢).

□ قال ابن القيم: «إذا تقرَّر هذان الأصلان فاسم الله دالٌّ على جميع

(١) ذكر الشيخ للإلحاد صوراً أخرى عديدة، انظر (٣٨، ٣٩) من «المدارج»، وقارن بصفة الإلحاد.

(٢) ضرب ابن القيم لذلك أمثلة عديدة، من ذلك على سبيل المثال اسم العليِّ فإن من لوازم هذا الاسم العلو المطلق، بكل اعتبار، فله العلو المطلق من جميع الوجوه: علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات، ومن جحد علو الذات فقد جحد لوازم اسمه «العلي» «مدارج السالكين» (١/٤٠).

الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَالصِّفَاتُ الْعُلْيَا بِالذَّلَالَاتِ كُلِّهَا، وَالْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى تَفْصِيلٌ وَتَبْيِينٌ لِّصِفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي اشْتَقَّ مِنْهَا اسْمُ «اللَّهِ» وَهُوَ دَالٌّ عَلَى كَوْنِهِ مَأْلُوهًا مَعْبُودًا تَأَلَّهَ الْخَلَائِقُ مَحَبَّةً وَتَعْظِيمًا وَخُضُوعًا وَفِرْعًا إِلَيْهِ فِي الْحَوَائِجِ وَالنَّوَابِغِ، وَذَلِكَ مُسْتَلْزِمٌ لِكَمَالِ رَبُّوبِيَّتِهِ وَرَحْمَتِهِ الْمُتَضَمِّنِينَ لِكَمَالِ الْمَلِكِ وَالْحَمْدِ، وَإِلَهِيَّتِهِ وَرَبُّوبِيَّتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَمَلَكِهِ مُسْتَلْزِمَةٌ لِجَمِيعِ صِفَاتِ كَمَالِهِ، إِذِ اسْتَحِيلَ ثُبُوتُ ذَلِكَ لِمَنْ لَيْسَ بِحَيٍّ، وَلَا سَمِيعٍ وَلَا بَصِيرٍ، وَلَا قَادِرٍ وَلَا مُتَكَلِّمٍ وَلَا فَعَّالٍ لِمَا يَرِيدُ، وَلَا حَكِيمٍ فِي أَعْمَالِهِ وَعَلَى ذَلِكَ:

فَصِفَاتُ الْجَلَالِ وَالْكَمَالِ أَحْصُ بِاسْمِ «اللَّهِ».

وَصِفَاتُ الْفِعْلِ وَالْقُدْرَةِ وَالتَّفَرُّدِ بِالتَّضَرُّ وَالنَّفْعِ، وَالْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ، وَنَفُوذِ الْمَشِيئَةِ، وَكَمَالِ الْقُوَّةِ، وَتَدْبِيرِ أَمْرِ الْخَلِيقَةِ أَحْصُ بِاسْمِ «الرَّبِّ».

وَصِفَاتُ الْإِحْسَانِ وَالْجُودِ وَالْبِرِّ وَالْحَنَانَ وَالْمَنَّةَ، وَالرَّأْفَةَ وَاللُّطْفَ أَحْصُ بِاسْمِ «الرَّحْمَنِ» الَّذِي الرَّحْمَةُ وَصْفُهُ، وَالرَّحِيمِ الَّذِي هُوَ رَاحِمٌ لِعِبَادِهِ.

وَصِفَاتُ الْعَدْلِ وَالْقَبْضِ وَالْبَسْطِ، وَالْخَفْضِ وَالرَّفْعِ، وَالْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ، وَالْإِعْزَازِ وَالْإِذْلَالَ، وَالْقَهْرَ وَالْحُكْمَ وَنَحْوَهَا أَحْصُ بِاسْمِ «الْمَلِكِ»^(١).

مَعَ اللَّهِ:

بِكَ أَسْتَجِيرُ وَمَنْ يَجِيرُ سِوَاكَ
فَأَجْرُ ضَعِيفًا يَحْتَمِي بِحِمَاكَ

(١) «مدارج السالكين» (١/٣٣-٤٣) باختصار وتصرف وانظر أيضاً: «شرح العقيدة الطحاوية» (٨٩) حيث ذكر تحت عنوان أنواع التوحيد التي دعت إليها الرسل نوعين: هما توحيد في الإثبات والمعرفة، والآخر: توحيد في الطلب والقصد (ص ٨٩ وما بعدها) وقد لخص كلام ابن القيم هنا.

ذَنْبِي وَمَعْصِيَتِي بَعْضُ قُورَاكَ
 بَّ مَا هَامَنَ غَافِرٍ إِلَّا كَا
 مَا حِيلَتِي فِي هَذِهِ أَوْ ذَاكَ؟
 بِكَرِيمِ عَفْوِكَ مَا غَوَى وَعَصَاكَ
 تَدْرِي لَهُ وَلَكِنَّهُ إِذْرَاكَ
 مَا جَاوَزْتَهُ وَلَا مَدَى لِمَدَاكَ
 فِي كُلِّ شَيْءٍ أَسْتَبِينُ عِلَاكَ
 هَذَا الشَّدَا الْفَوَاحُ نَفْحُ شَذَاكَ
 صَدَحَاتُهَا تَسْبِيحَةٌ لِعِلَاكَ
 إِلَّا انْفِعَالَةٌ قَطْرَةٌ لِنِدَاكَ
 وَاسْتَقْبَلَ الْقَلْبُ الْخَلِيَّ هَوَاكَ
 وَلَقِيتُ كُلَّ الْأَنْسِ فِي نَجْوَاكَ
 وَنَسِيتُ نَفْسِي خَوْفَ أَنْ أَنْسَاكَ
 يَا رَبِّ حُلُوقًا قَبْلَ أَنْ أَهْوَاكَ
 رَأَيْتُ عَلَى قَلْبِي فَضْلَ سَنَاكَ
 وَبَدَأْتُ بِالْقَلْبِ الْبَصِيرِ أَرَاكَ
 لِلتَّوْبِ قَلْبٌ تَائِبٌ نَاجَاكَ
 حَاشَاكَ تَرْفُضُ تَائِبًا حَاشَاكَ
 مَا قَدَّمْتَهُ يَدَايَ لَا أَتْبَاكَ

إِنِّي ضَعِيفٌ أَسْتَعِينُ عَلَى قُوَى
 أَذْنَبْتُ يَا رَبِّي وَأَذْنَبْتِي ذُنُوبِي
 ذُنُوبِي غَرَّتْنِي وَعَفْوُكَ غَرَّنِي
 لَوْ أَنَّ قَلْبِي شَكَ لَمْ يَكُ مُؤْمِنًا
 يَا مُدْرِكَ الْأَبْصَارِ وَالْأَبْصَارُ لَا
 أَتَرَكَ عَيْنٌ وَالْعَيُونُ لَهَا مَدَى
 إِنْ لَمْ تَكُنْ عَيْنِي تَرَكَ فَإِنِّي
 يَا مُنْبِتَ الْأَزْهَارِ عَاطِرَةَ الشَّدَا
 يَا مُرْسِلَ الْأَطْيَارِ تَصَدَّحُ فِي الرَّبَا
 يَا مُجْرِي الْأَنْهَارِ مَا جَرَّيَانُهَا
 رَبَّاهُ هَانَذَا خَلِصْتُ مِنَ الْهَوَى
 وَتَرَكْتُ أَنْسِي بِالْحَيَاةِ وَلَهُوَهَا
 وَنَسِيتُ حُبِّي وَأَعْتَزَلْتُ أَحَبِّي
 ذُقْتُ الْهَوَى مُرًّا وَلَمْ أَذِقِ الْهَوَى
 أَنَا كُنْتُ يَا رَبِّي أَسِيرَ غِشَاوَةِ
 وَالْيَوْمَ يَا رَبِّي مَسَحْتُ غِشَاوَتِي
 يَا غَافِرَ الذَّنْبِ الْعَظِيمِ وَقَابِلًا
 أَتَرُدُّهُ وَتَرُدُّ صَادِقَ تَوْبَتِي
 يَا رَبِّ جِثَّتْكَ نَادِمًا أَبْكِي عَلَى

أَخْشَى مِنَ الْعَرْضِ الرَّهِيْبِ عَلَيْكَ يَا
يَا رَبَّ عُدْتُ إِلَى رِحَابِكَ تَائِبًا
مَالِي وَمَا لِلْأَغْنِيَاءِ وَأَنْتَ يَا
مَالِي وَمَا لِلْأَقْوِيَاءِ وَأَنْتَ يَا
مَالِي وَأَبْوَابَ الْمَلُوكِ وَأَنْتَ مَنْ
إِنِّي أَوَيْتُ لِكُلِّ مَأْوَى فِي الْحَيَاةِ
وَتَلَمَّسْتُ نَفْسِي السَّبِيلَ إِلَى النَّجَاةِ
وَبَحِثْتُ عَنْ سِرِّ السَّعَادَةِ جَاهِدًا
فَلْيَرِضْ عَنِّي النَّاسُ أَوْ فَلْيَسْخَطُوا
أَدْعُوكَ يَا رَبِّي لِتَغْفِرَ حَوْبَتِي
فَأَقْبَلْ دُعَائِي وَاسْتَجِبْ لِرَجَاوَتِي
يَا رَبُّ هَذَا الْعَصْرُ الْخَدَّ عِنْدَمَا
عَلَّمْتَهُ مَنْ عَلِمَكَ النَّوَوِيُّ مَا
مَا كَادَ يُطَلِّقُ لِلْعُلَا صَارُوخَهُ
وَاعْتَرَّ حَتَّى ظَنَّ أَنَّ الْكُؤْنَ فِي
أَوْ مَا دَرَى الْإِنْسَانُ أَنَّكَ لَوْ أَرَدَ
لَوْ شِئْتَ يَا رَبِّي هَوَى صَارُوخَهُ
يَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَهْلًا وَاتِّبَدْ
وَاسْجُدْ لِمَوْلَاكَ الْقَدِيرِ فَإِنَّهَا

رَبِّي وَأَخْشَى مِنْكَ إِذْ أَلْقَاكَ
مَسْتَسْلِمًا مُسْتَمْسِكًا بِعُرَاكَ
رَبِّ الْغَنِيِّ وَلَا يُجِدُ غِنَاكَ
رَبِّي وَرَبَّ النَّاسِ مَا أَقْوَاكَ
خَلَقَ الْمَلُوكَ وَقَسَمَ الْأَمْلَاكَ
فَمَا رَأَيْتُ أَعَزَّ مِنْ مَأْوَاكَ
فَلَمْ تَجِدْ مُنْجِي سِوَى مَنْجَاكَ
فَوَجَدْتُ هَذَا السَّرِّ فِي تَقْوَاكَ
أَنَا لَمْ أَعُدْ أَسْعَى لِغَيْرِ رِضَاكَ
وَتُعِينَنِي وَتَمُدَّنِي بِهِدَاكَ
مَا حَابَ يَوْمًا مَنْ دَعَا وَرَجَاكَ
سَخَّرْتَ يَا رَبِّي لَهُ دُنْيَاكَ
عَلَّمْتَهُ فَإِذَا بِهِ عَادَاكَ
حَتَّى أَشَاحَ بِوَجْهِهِ وَقَلَاكَ
يُمْنِي بَيْنِي الْإِنْسَانَ لَا يُمْنَاكَ
تَ لَظَلَّتِ الذَّرَاتُ فِي مَحْبَابِكَ
أَوْ لَوْ أَرَدْتَ لَمَا اسْتَطَاعَ حِرَاكَ
وَاشْكُرْ لِرَبِّكَ فَضْلَ مَا أَوْلَاكَ
مُسْتَحْدَثَاتُ الْعِلْمِ مِنْ مَوْلَاكَ

وَبِنِعْمَةِ الْعَقْلِ الْبَصِيرِ حَبَاكَ
 تَزَوَّرَ عَنْهُ وَيَنْشِي عِظْفَاكَ
 تَجْرِي يَرَاهَا اللَّهُ حِينَ يَرَاكَ
 مِنْهُمْ لَوْلَا اللَّهُ قَدْ قَوَاكَ
 هُوَ صَنَعَهُ اللَّهُ الَّذِي سَوَّاكَ
 مَا اللَّهُ لَمْ يَكْتُبْ لَهُ الْإِذْرَاكَ
 لَلْأَقْلَاهَا هُوَ مَا إِلَيْهِ هَذَاكَ
 عَجَبٌ عَجَابٌ لَوْ تَرَى عَيْنَاكَ
 حَاوَلْتَ تَفْسِيرَ لَهَا أَعْيَاكَ
 أَمْدَاوِي الْأَمْرَاضِ مَنْ أُرْدَاكَ؟
 عَجَزْتَ فُنُونُ الطَّبِّ مَنْ عَافَاكَ
 مَنْ بِالْمَنَائِيَا صَاحِحٌ دَهَاكَ
 فَهَوَى بِهَا مَنْ ذَا الَّذِي أَهْوَاكَ
 مِ بَلَا اضْطِدَامٍ مَنْ يَقُودُ خُطَاكَ
 رَاعٍ وَمَرَعَى مَا الَّذِي يَزْعَاكَ
 لَدَى الْوِلَادَةِ مَا الَّذِي أَبْكََاكَ
 فَاسْأَلْهُ مَنْ ذَا بِالسُّمُومِ حَشَاكَ
 نَحْيَا وَهَذَا السُّمُّ يَمْلَأُ فَكَ
 شَهْدًا وَقُلْ لِلشَّهَدِ مَنْ حَلَاكَ

اللَّهُ مَا زَكَ دُونَ سَائِرِ خَلْقِهِ
 أَفَإِنْ هَذَاكَ بَعْلَمَهُ لِعَجَبِيَّةِ
 إِنَّ النَّوَاةَ وَلِكَثْرُونَ تِي
 مَا كُنْتَ تَقْوَى أَنْ تُفْتَتَ ذَرَّةً
 كُلُّ الْعَجَائِبِ صَنَعَهُ الْعَقْلُ الَّذِي
 وَالْعَقْلُ لَيْسَ بِمُذْرِكٍ شَيْئًا إِذَا
 اللَّهُ فِي الْأَفَاقِ آيَاتٌ لَعَلَّ
 وَلَعَلَّ مَا فِي النَّفْسِ مِنْ آيَاتِهِ
 وَالْكَوْنُ مَسْحُونٌ بِأَسْرَارِ إِذَا
 قُلْ لِلطَّيِّبِ نَخِطْفَتُهُ يَدُ الرَّدَى
 قُلْ لِلْمَرِيضِ نَجَا وَعُوفِي بَعْدَ مَا
 قُلْ لِلصَّاحِحِ يَمُوتُ لَا مِنْ عِلَّةِ
 قُلْ لِلْبَصِيرِ وَكَانَ يَحْدُرُ حُفْرَةً
 بَلْ سَائِلِ الْأَعْمَى خَطَا بَيْنَ الرُّحَا
 قُلْ لِلْجَنِينِ يَعْيشُ مَعْرُزُولا بِلَا
 قُلْ لِلْوَلِيدِ بَكَى وَأَجْهَشَ بِالْبُكََا
 وَإِذَا تَرَى الثُّعْبَانَ يَنْفُثُ سُمَّهُ
 وَاسْأَلْهُ كَيْفَ تَعِيشُ يَا ثُعْبَانُ أَوْ
 وَاسْأَلْ بَطُونَ النَّحْلِ كَيْفَ تَقَاطَرَتْ

بَلْ سَائِلِ اللَّبَنَ الْمُصَفَّى كَانَ يَبُ
 وَإِذَا تَرَى ابْنَ السُّودِ أَبْيَضَ نَاصِعًا
 وَإِذَا تَرَى ابْنَ الْبَيْضِ أَسْوَدَ فَاحِمًا
 قُلْ لِلْهَوَاءِ نُحْسُهُ الْأَيْدِي وَيُنْجُ
 قُلْ لِلنَّبَاتِ يَجِفُّ بَعْدَ تَعَهُدٍ
 وَإِذَا رَأَيْتَ النَّبْتَ فِي الصَّخْرَاءِ يَرِ
 وَإِذَا رَأَيْتَ الْبَدْرَ يَسْرِي نَاشِرًا
 وَاسْأَلْ شُعَاعَ الشَّمْسِ يَدْنُو وَهِيَ أَبُ
 قُلْ لِلْمَرِيرِ مِنَ الثَّمَارِ: مَنْ الَّذِي
 وَإِذَا رَأَيْتَ النَّخْلَ مَشْقُوقَ النَّوَى
 وَإِذَا رَأَيْتَ النَّارَ شَبَّ هَيْبُهَا
 وَإِذَا تَرَى الْجِبَلَ الْأَثَمَّ مُنَاطِحًا
 وَإِذَا تَرَى صَخْرًا تَفَجَّرَ بِالمِيَا
 وَإِذَا رَأَيْتَ النَّهْرَ بِالْعَذْبِ الزُّلَا
 وَإِذَا رَأَيْتَ الْبَحْرَ بِالمِلْحِ الْأَجَا
 وَإِذَا رَأَيْتَ اللَّيْلَ يَغْشَى دَاجِيًا
 وَإِذَا رَأَيْتَ الصُّبْحَ يُسْفِرُ ضَاحِيًا
 هَذِي عَجَائِبُ طَالَمَا أُخِذَتْ بِهَا
 يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَهَلًا مَا الَّذِي

مِنْ دَمٍ وَفَرِثٍ مَا الَّذِي صَفَاكَ
 فَاسْأَلْهُ مِنْ أَيْنِ الْبِيَّاضِ أَتَاكَ
 فَاسْأَلْهُ مِنْ ذَا بِالسُّودِ طَلَاكَ
 سَفَى عَنْ عُيُونِ النَّاسِ مَنْ أَحْفَاكَ
 وَرِعَايَةِ مَنْ بِالْجَفَافِ رَمَاكَ
 بُوَ وَخَدَهُ فَاسْأَلْهُ مَنْ أَرْبَاكَ
 أَنْوَارُهُ فَاسْأَلْهُ مَنْ أَسْرَاكَ
 عَدُّ كُلِّ شَيْءٍ مَا الَّذِي أَدْنَاكَ
 بِالْمُرِّ مِنْ دُونَ الثَّمَارِ غَدَاكَ
 فَاسْأَلْهُ: مَنْ يَا نَخْلُ شَقَّ نَوَاكَ
 فَاسْأَلْ هَيْبَ النَّارِ مَنْ أَوْرَاكَ
 قِمَمَ السَّحَابِ فَسَلْهُ: مَنْ أَرْسَاكَ
 هِ فَسَلْهُ مَنْ بِالمَاءِ شَقَّ صَفَاكَ
 لِي جَرَى فَسَلْهُ مَنْ الَّذِي أَجْرَاكَ
 جِ طَعَى فَسَلْهُ مَنْ الَّذِي أَطْعَاكَ
 فَاسْأَلْهُ مَنْ يَا لَيْلُ حَاكَ دُجَاكَ
 فَاسْأَلْهُ مَنْ يَا صُبْحُ صَاغَ ضَحَاكَ
 عَيْنَاكَ وَانْفَتَحَتْ بِهَا أَدْنَاكَ
 بِاللهِ جَلَّ جَلَالُهُ أَغْرَاكَ



ولله درُ القائل :

إِنَّ الْكَرِيمَ يُجِيبُ مَنْ نَادَاهُ
 بِالْجُودِ يُرْضِي طَالِبِينَ رِضَاهُ
 مَبْسُوطَتَانِ لِسَائِلِيهِ يَدَاهُ
 يَرْجُوهُ مَنْقَطِعًا إِلَيْهِ كَفَاهُ
 مَا لِلْخَلَائِقِ كَافِلٌ إِلَّا هُوَ
 وَفَقِيرٌهَا لَا يَرْجُونَ سِوَاهُ
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَرُّهُمْ بِغِنَاهُ
 هُوَ بَاطِنٌ لَيْسَ الْعُيُونُ تَرَاهُ
 تَقْفُ الظُّنُونِ وَتَحْرُسُ الْأَفْوَاهُ
 أَبَدًا فَمَا النُّظْرَاءُ وَالْأَشْبَاهُ
 لَوْلَاهُ مَا شَهِدَتْ بِهِ لَوْلَاهُ
 بِالْغَيْبِ تُؤَثِّرُ حُبَّهَا إِيَّاهُ
 وَلَهُ سُجُودٌ أَوْجُهُ وَجِبَاهُ
 وَلَهُ عَلَيْهَا الطَّوْعُ وَالْإِكْرَاهُ
 تَدْعُوهُ مَعْبُودًا لَهَا رَبَّاهُ
 وَالْكُلُّ تَحْتَ الْقَهْرِ وَهُوَ إِلَهُ
 بَشَرًا سِوَيًا جَلَّ مَنْ سِوَاهُ

قَفَّ بِالْخُضُوعِ وَنَادَى يَا اللَّهُ
 وَاطْلُبْ بِطَاعَتِهِ رِضَاهُ فَلَمْ يَزَلْ
 وَاسْأَلْهُ مَغْفِرَةً وَفَضْلًا إِنَّهُ
 وَاقِصْدُهُ مَنْقَطِعًا إِلَيْهِ فَكُلُّ مَنْ
 شَمِلَتْ لَطَائِفُهُ الْخَلَائِقُ كُلُّهَا
 فَعَزِيزٌهَا وَذَلِيلٌهَا وَعَنِيَةٌهَا
 مَلِكٌ تَدِينُ لَهُ الْمُلُوكُ وَيَلْتَجِي
 هُوَ أَوَّلُ هُوَ آخِرُ هُوَ ظَاهِرٌ
 حَجَبْتُهُ أَسْرَارُ الْجَلَالِ فَدُونَهُ
 صَمَدٌ بِلَا كَفٍّ وَلَا كَيْفِيَّةِ
 شَهِدَتْ غَرَائِبُ صُنْعِهِ بُوْجُودِهِ
 وَإِلَيْهِ أَدْعَعَتِ الْعُقُولُ فَأَمْنَتْ
 سُبْحَانَ مَنْ عَنَتِ الْوُجُوهُ لَوَجْهِهِ
 طَوْعًا وَكَرْهًا خَاضِعِينَ لِعِزِّهِ
 سَلَّ عَنْهُ ذَرَاتِ الْوُجُودِ فَإِنَّهَا
 مَا كَانَ يُعْبَدُ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
 أَبَدِي بِمُحْكَمِ صُنْعِهِ مِنْ نُطْفَةٍ

كُرْسِيِّ ثُمَّ عَلَا عَلَيْهِ عُلَاهُ
 بِالرَّاسِيَّاتِ وَبِالنَّبَاتِ حَالَهُ
 عَنِ إِذْنِهِ وَالْقُلُوكِ وَالْأَمْوَاهُ
 لَا يَتَّهِي بِالْحَصْرِ مَا أَعْطَاهُ
 أَجَلِي وَكَمْ مِنْ مُبْتَلَى عَافَاهُ
 يَعَجَلُ عَلَى عَبْدٍ عَصَى مَوْلَاهُ
 كَرَمًا وَيَغْفِرُ عَمْدَهُ وَخَطَاهُ
 يَا مُنْعِمًا عَمَّ الْأَنَامَ نَدَاهُ
 عَوْنَاهُ يَا مَوْلَاهُ يَا مَوْلَاهُ
 عَنِّي وَبَلَّغْنِي الَّذِي أَهْوَاهُ
 مَنْ كَانَ عَيْنُكَ بِالرِّضَا تَرَعَاهُ (١)

وَبَنَى السَّمَاوَاتِ الْعُلَا وَالْعُرْشِ وَالِ
 وَدَحَا بِسَاطِ الْأَرْضِ فَرَشًا مُثَبَّتًا
 تَجْرِي الرِّيَّاحُ عَلَى اخْتِلَافِ هُبُوبِهَا
 رَبُّ رَحِيمٌ مُشْفِقٌ مُتَعَطِّفٌ
 كَمْ نِعْمَةٍ أَوْلَى وَكَمْ مِنْ كُرْبَةٍ
 وَلِحُلْمِهِ سَبْحَانَهُ يُعْصَى فَلَمْ
 يَأْتِيهِ مُعْتَذِرًا فَاقْبَلْ عُذْرَهُ
 يَا ذَا الْجَلَالِ وَذَا الْجَمَالِ وَذَا الْبَقَا
 يَا مَنْ هُوَ الْمَعْرُوفُ بِالْمَعْرُوفِ يَا
 أَنَا مُذْنِبٌ أَشْكَو ذُنُوبِي فَامْحُهَا
 وَأَذْفَنِي بِرَدِّ رِضَاكَ عَنِّي فَلَمْ يَخْبُ
 الْعَبْدُ وَرَبُّهُ :

□ قال ابن القيم - رحمه الله - :

«طُوبَى لِمَنْ أَنْصَفَ رَبَّهُ؛ فَأَقَرَّ لَهُ بِالْجَهْلِ (٢) فِي عِلْمِهِ، وَالْآفَاتِ فِي
 عَمَلِهِ، وَالْعُيُوبِ فِي نَفْسِهِ، وَالتَّفْرِيطِ فِي حَقِّهِ، وَالظُّلْمِ فِي مَعَامَلَتِهِ، فَإِنْ
 أَخَذَهُ بِذُنُوبِهِ رَأَى عَدْلَهُ، وَإِنْ لَمْ يُؤَاخِذْهُ بِهَا رَأَى فَضْلَهُ، وَإِنْ عَمَلَ حَسَنَةً
 رَأَاهَا مِنْ مَتِّهِ وَصَدَقْتَهُ عَلَيْهِ، فَإِنْ قَبَلَهَا فَمِنَّهُ وَصَدَقَةً ثَانِيَةً، وَإِنْ رَدَّهَا

(١) للبرعي.

(٢) أي: أقر هذا الإنسان - الذي يريد أن ينصف نفسه - لربه، بجهل نفسه.

فلكونٍ مثلها لا يصلح أن يواجهه به، وإن عمل سيئةً رآها من تخليه عنه
وخذلانه له وإمساك عصمته عنه، وذلك من عدله فيه، فيرى في ذلك
فقره إلى ربه وظلمه في نفسه، فإن غفرها له فبمحض إحسانه وجوده
وكرمه.

ونكتة المسألة وسرها: أنه لا يرى ربه إلا محسناً، ولا يرى نفسه إلا
مسيئاً أو مفترطاً أو مقصراً، فيرى كل ما يسره من فضل ربه عليه وإحسانه
إليه، وكل ما يسوؤه من ذنوبه وعدل الله فيه.

المحبون إذا خربت منازل أحبائهم؛ قالوا: سقياً لسكانها!

وكذلك المحب إذا أتت عليه الأعوام تحت التراب؛ ذكر حينئذٍ حسن
طاعته له في الدنيا، وتودده إليهن وتجدد رحمته وسقيه لمن كان ساكناً في
تلك الأجسام البالية^(١).

والعبد عائد برضى الله من سخطه، وبغفوه من عقوبته، وبه منه،
مستجيرٌ وملتجئٌ إليه^(٢)، يعلم أنه إذا تخلى عنه وخلق بينه وبين نفسه
فعنده أمثالها وشرٌ منها، وأنه لا سبيل له إلى الإقلاع والتوبة إلا بتوفيقه
وإعانتته، وأن ذلك بيده سبحانه لا بيد العبد.

فهو أعجز وأضعف وأقل من أن يوفق نفسه، أو يأتي بمرضاه سيده
بدون إذنه ومشيتته وإعانتته، فهو ملتجئٌ إليه متضرعٌ ذليلٌ مسكينٌ، ملق
نفسه بين يديه، وطريحٌ ببابه، مستخذٍ له، أدل شيءٍ وأكسره له وأفقره
وأحوجه إليه، وأرعبه فيه، وأحبه فيه، ولا له ولا به ولا منه، وأن الخير

(١) «الفوائد» لابن القيم، و«فوائد الفوائد» (ص ٢٦).

(٢) أي: ذليلٌ متمسكٌ.

كُلَّهُ لِلَّهِ وَفِي يَدَيْهِ وَبِهِ وَمِنْهُ، فَهُوَ وَليُّ نِعْمَتِهِ، وَمَبْتَدِئُهُ بِهَا مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ، وَجُرْمِيهَا عَلَيْهِ مَعَ تَمَقُّتِهِ إِلَيْهِ بِإِعْرَاضِهِ وَغَفْلَتِهِ وَمَعْصِيَتِهِ.

فَحَظُّهُ سَبْحَانَهُ: الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ وَالشَّانَاءُ، وَحَظُّ الْعَبْدِ: الذَّمُّ وَالنَّقْصُ وَالْعَيْبُ، قَدْ اسْتَأَثَرَ بِالْمَحَامِدِ وَالْمَدْحِ وَالشَّانَاءِ، وَوَلَّى الْعَبْدَ الْمَلَامَةَ وَالنَّقَائِصَ وَالْعِيُوبَ، فَالْحَمْدُ كُلُّهُ لَهُ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْهِ، وَالْفَضْلُ كُلُّهُ لَهُ، وَالشَّانَاءُ كُلُّهُ لَهُ، وَالْمِنَّةُ كُلُّهَا لَهُ، فَمِنْهُ الْإِحْسَانُ، وَمِنْ الْعَبْدِ الْإِسَاءَةُ، وَمِنْهُ التَّوَدُّدُ إِلَى الْعَبْدِ بِنِعْمَتِهِ، وَمِنْ الْعَبْدِ التَّبَعُّضُ إِلَيْهِ بِمَعَاصِيهِ، وَمِنْهُ التُّصْحُّ لِعَبْدِهِ، وَمِنْ الْعَبْدِ الْغِشُّ لَهُ فِي مَعَامَلَتِهِ»^(١).

اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي أَصْلَحَ الْفَاسِدِينَ، وَأَقْبَلَ بِقُلُوبِ الْمُعْرِضِينَ، وَتَابَ عَلَى الْمُنْذِبِينَ، وَهَدَى الضَّالِّينَ، وَأَنْقَذَ الْهَالِكِينَ، وَعَلَّمَ الْجَاهِلِينَ، وَبَصَّرَ الْمُتَحَيِّرِينَ، وَذَكَرَ الْغَافِلِينَ، وَأَوَى الشَّارِدِينَ، وَإِذَا أَوْقَعَ عِقَابًا أَوْقَعَهُ بَعْدَ شِدَّةِ التَّمَرُّدِ وَالْعُتُوِّ عَلَيْهِ، قَالَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ الَّتِي أَفْسَدَهَا عَلَيْهِمْ لَمَّا رَأَوْهَا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [القلم].

قَالَ الْحَسَنُ: «لَقَدْ دَخَلُوا النَّارَ - وَإِنَّ حَمْدَهُ فِي قُلُوبِهِمْ - مَا وَجَدُوا عَلَيْهِ حُجَّةً وَلَا سَبِيلًا».

قَدْ أَزَاحَ سَبْحَانَهُ الْعِلْلَ، وَأَقَامَ الْحَجَجَ، وَمَكَّنَ مِنْ أَسْبَابِ الْهُدَايَةِ، وَأَنَّهُ لَا يُضِلُّ إِلَّا الْفَاسِقِينَ وَالظَّالِمِينَ، وَلَا يَطْبَعُ إِلَّا عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ، وَلَا يَرْكُسُ فِي الْفِتْنَةِ إِلَّا الْمُنَافِقِينَ بِكَسْبِهِمْ.

(١) «الفوائد» لابن القيم، و«فوائد الفوائد» (ص ٤٧ - ٤٨).

خطاب القرآن في وصف الرحمن:

□ قال ابن القيم - رحمه الله -: «تأمل خطاب القرآن تجذ مَلِكًا له المَلِكُ كُله، وله الحمدُ كُله، أزمَّةُ الأمورِ كُلِّها بيده، ومصدرُها منه، ومردُّها إليه، مستويًا على سريرِ مُلكِه، لا تخفى عليه خافيةٌ في أقطارِ مملكته، عالمًا بما في نفوسِ عبيدِه، مُطلِّعًا على إسرارِهم وعلانيَّتِهم، منفردًا بتدبيرِ المملكةِ، يسمعُ ويرى، ويُعطي ومنعُ، ويشبُّ ويعاقبُ، ويكرمُ ويهينُ، ويخلقُ ويرزقُ، ويُميتُ ويحيي، ويُقدِّرُ ويقضي ويدبِّرُ.

الأمورُ نازلةٌ من عنده دقيقتها وجليلُها، وصاعدةٌ إليه، لا تتحركُ في ذرَّةٍ إلَّا بإذنه، ولا تسقطُ ورقةٌ؛ إلَّا بعلمِه.

ثناء الله على نفسه:

فتأمل كيف تجده يُثني على نفسه ويمجِّدُ نفسه، ويمجدُ نفسه، وينصحُ عباده، ويدلُّهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم ويرغبهم فيه، ويحذِّرهم مما فيه هلاكهم، ويعترفُ إليهم بأسمائه وصفاته، ويتحبَّبُ إليهم بنعمه وآلائه، فيذكِّرهم بنعمه عليهم، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها، ويحذِّرهم من نِقَمِه، ويذكِّرهم بما أعدَّ لهم من الكرامةِ إن أطاعوه، وما أعدَّ لهم من العقوبةِ إن عصوه، ويحبرهم بصنعه في أوليائه وأعدائِه، وكيف كانت عاقبة هؤلاءِ وهؤلاءِ.

بين الربِّ وعباده:

ويشهدُ من خطابه عتابه لأحبابه أَلطفَ عتابٍ، وأنَّه مع ذلك مقيلٌ عثراتهم، وغافرٌ زلاتهم، ومقيمٌ أَعذارهم، ومصالحٌ فسادهم، والدافعُ عنهم، والمحامي عنهم، والناصرُ لهم، والكفيلُ بمصالحهم، والمنجي لهم

من كلِّ كَرْبٍ، والموفي لهم بوعده، وأَنَّهُ وليُّهم الذي لا وليَّ لهم سواه، فهو مولا هم الحقُّ، ونصيرُهم على عدوِّهم، فنعم المولى ونعم النصير.

فإذا شهدت القلوبُ من القرآنِ ملكًا عظيمًا رحيمًا جوادًا جميلًا، هذا شأنه، فكيفَ لا تحبُّه وتنافسُ في القربِ منه، وتنفقُ أنفاسَها في التودُّدِ إليه، ويكونُ أحبَّ إليها من كلِّ ما سواه، ورضاهُ أترَ عندها من رضا كلِّ ما سواه؟!

وكيفَ لا تلهجُ بذكره، ويصيرُ حبهُ والشوقُ إليه والأنسُ به هو غذاءها وقوتها ودواءها، بحيثُ إنْ فقدتُ ذلك؛ فسدتُ وهلكتُ ولم تتنفعَ بحياتها؟!»^(١).

بين العبد والربِّ:

ماذا يملكُ من أمره مَنْ ناصيته بيدِ الله ونفسه بيده، وقلبه بين إصبعين من أصابعه يقلِّبه كيفَ يشاء^(٢)، وحياته بيده، وموته بيده، وسعادته بيده، وشقاوته بيده، وحركاته وسكناته وأقواله وأفعاله بإذنه ومشيتته، فلا يتحرَّكُ إلَّا بإذنه، ولا يفعلُ إلَّا بمشيته؟!

إنْ وكَّله إلى نفسه وكَّله إلى عجزٍ وضيعةٍ وتفريطٍ وذنْبٍ وخطيئةٍ. وإنْ وكَّله إلى غيره وكَّله إلى مَنْ لا يملكُ له ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نُشورًا.

وإنْ تخلَّى عنه استولى عليه عدوُّه وجعله أسيرًا له.

(١) «الفوائد» لابن القيم.

(٢) كما في الحديث الذي رواه مسلم (٢٦٥٤) عن عبد الله بن عمرو بن العاص

معرفةُ الله بجماله من أعزِّ أنواع المعرفة:

□ قال ابن القيم: «من أعزِّ أنواع المعرفة: «معرفةُ الربِّ سبحانه بالجمال، وهي معرفةُ خواصِّ الخلق، وكلُّهم عرَفَه بصفةٍ من صفاته، وأتمُّهم معرفةً من عرَفَه بكماله وجلاله وجماله سبحانه، ليس كمثله شيءٌ في سائر صفاته، ولو فرَضت الخلق كلُّهم على أجملهم صورةً، وكلُّهم على تلك الصورة، ونَسَبت جمالهم الظاهرَ والباطنَ إلى جمالِ الربِّ سبحانه؛ لكان أقلُّ من نسبةِ سراجٍ ضعيفٍ إلى قرصِ الشمسِ. ويكفي في جماله أَنَّهُ لو كُشِفَ الحجابُ عن وجهِهِ لأحرقتْ سُبُحاتُهُ ما انتهى إليه بصرُهُ من خلقِهِ»^(١).

ويكفي في جماله أَنَّ كُلَّ جمالٍ ظاهرٍ وباطنٍ في الدنيا والآخرةِ فَمِنْ آثارِ صنعته، فما الظنُّ بمن صَدَرَ عنه هذا الجمالُ؟؟

ويكفي في جماله أَنَّهُ له العزَّةُ جميعاً - والقوَّةُ جميعاً - والجودُ كلُّه، والإحسانُ كلُّه، والعلمُ كلُّه، والفضلُ كلُّه، ولِنورِ وجهِهِ أشرقَتِ الظُّلماتُ؛ كما قال النبي ﷺ في دعاء الطائفِ: «أعوذُ بنورِ وجهِكَ الَّذِي أشرقَتْ لَهُ الظُّلماتُ، وصلَحَ عليه أمرُ الدُّنيا والآخرةِ»^(٢).

(١) كما في «صحيح مسلم» (٢٩٣) عن أبي موسى الأشعري.

(٢) رواه ابن إسحاق في «السيرة» (٧٢/٢) ابن هشام، والطبري في «تاريخه» (٣٤٤/٢) بسند مرسل. ورواه الطبراني في «الكبير» (١٨١) - قطعة من جزء (١٣)، وفي «الدعاء» (١٠٣٦) عن عبد الله بن جعفر. وفي سننه عن عنة ابن إسحاق، وهو مدلس؛ كما قال الهيثمي في «المجمع» (٣٥/٦). وله إسناد آخر - مرسلًا - عند البيهقي في «دلائل النبوة» (٤١٥/٢) عن الزُّهري. فالحديث لا يصحُّ.

□ وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نورُ السماوات والأرض من نور وجهه»^(١).

فهو سبحانه نورُ السموات والأرض، ويوم القيامة إذا جاء لفصل القضاء تشرق الأرض بنوره.

ومن أسمائه الحسنی «الجميل»، وفي «الصحيح»^(٢) عنه رضي الله عنه: «إن الله جميلٌ يحبُّ الجمال».

وجماله سبحانه على أربع مراتب: جمال الذات، وجمال الصفات، وجمال الأفعال، وجمال الأسماء:

فأسماءه كلها حسنى، وصفاته كلها صفات كمال، وأفعاله كلها حكمة ومصالحة وعدل ورحمة.

وأما جمال الذات وما هو عليه؛ فأمر لا يُدرُّكه سواه ولا يعلمه غيره، وليس عند المخلوقين منه إلا تعريفات تعرف بها إلى من أكرمه من عباده؛ فإن ذلك الجمال مضمونٌ عن الأغيار، محجوبٌ بستر الرداء والإزار؛ كما قال رسوله صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عنه: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري»^(٣)، ولما

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (٨٨٨٦)، وعثمان الدارمي في «الرد على بشر المريسي» (٤٤٩) «عقائد السلف» بسند فيه أبو عبد السلام، وهو مجهول، كما قال الهيثمي في «المجمع» (٨٥/١). وزاد المصنفُ نسبه في «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص ٤٥) للطبراني في «السنة». فلعله من طريق آخر، فقد صححه شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٣٩١/٦)، قائلاً: «فقد ثبت عن ابن مسعود... وذكره».

(٢) «صحيح مسلم» (٩١) عن ابن مسعود.

(٣) رواه أحمد (٢/٢٤٨، ٣٧٦، ٤٢٧، ٤٤٢)، وأبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجه

كانت الكبرياءَ أعظمَ وأوسعَ؛ كانتَ أَحَقَّ باسمِ الرِّداءِ؛ فَإِنَّهُ سبحانه الكَبِيرُ المتعالُ؛ فهو سبحانه العليُّ العظيمُ.

□ قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: «حَجَبَ الذاتِ بالصفاتِ؟! وحَجَبَ الصفاتِ بالأفعالِ».

فما ظنُّكَ بجمالِ حُجَبِ بأوصافِ الكمالِ، وسُتِرِ بنعوتِ العظمةِ والجلالِ؟!.

ومن هذا المعنى يُفهمُ بعضُ معاني جمالِ ذاته؛ فَإِنَّ العبدَ يترقَّى من معرفةِ الأفعالِ إلى معرفةِ الصفاتِ، ومن معرفةِ الصفاتِ إلى معرفةِ الذاتِ، فإذا شاهدَ شيئاً من جمالِ الأفعالِ استدَلَّ به على جمالِ الصفاتِ، ثمَّ استدَلَّ بجمالِ الصفاتِ على جمالِ الذاتِ.

ومن ههنا يتبيَّنُ أَنَّهُ سبحانه له الحمدُ كُلُّهُ، وَأَنَّ أَحَدًا من خلقه لا يُحصي ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وَأَنَّهُ يستحقُّ أن يُعبدَ لذاته، ويُحَبَّ لذاته ويُشكَّرَ لذاته، وَأَنَّهُ سبحانه يحبُّ نفسه، ويثني على نفسه، ويحمِّدُ نفسه، وَأَنَّ محبَّتَه لنفسه، وحمده لنفسه، وثناءه على نفسه، وتوحيده لنفسه هو في الحقيقةِ الحمدُ والثناءُ والحبُّ والتوحيدُ.

فهو سبحانه كما أثنى على نفسه وفوقَ ما يثني به عليه خلقه، وهو سبحانه كما يُحِبُّ ذاته يُحِبُّ صفاته وأفعاله، فكلُّ أفعاله حسنٌ محبوبٌ، وَإِنْ كانَ في مفعولاته ما يبغضه ويكرهه؛ فليسَ في أفعاله ما هو مكروهٌ مسخوطٌ.

(٢١٧٤) عن أبي هريرة بسندٍ صحيحٍ. وهو في «صحيح مسلم» (٢٦٢٠) عن أبي سعيد وأبي هريرة مرفوعاً بنحوه.

وليس في الوجود ما يُحِبُّ لذاته ويُحَمِّدُ لذاته إلا هو سبحانه، وكلُّ ما يُحِبُّ سواه، فإن كانت محبته تابعة لمحبته سبحانه بحيث يُحِبُّ لأجله؛ فمحبته صحيحة، وإلا فهي محبة باطلة.

وهذا هو حقيقة الإلهية؛ فإن الإله الحق هو الذي يُحِبُّ لذاته ويُحَمِّدُ لذاته، فكيف إذا انضاف إلى ذلك إحسانه، وإنعامه، وحلمه، وتجاوزه، وعفوه، وبره، ورحمته؟!

فعلى العبد أن يعلم أنه لا إله إلا الله؛ فيحبه ويحمده لذاته وكماله، وأن يعلم أنه لا محسن على الحقيقة بأصناف النعم الظاهرة والباطنة إلا هو؛ فيحبه لإحسانه وإنعامه، ويحمده على ذلك؛ فيحبه من الوجهين جميعاً.

وكما أنه ليس كمثل شيء فليس كمحبته محبة، والمحبة مع الخضوع هي العبودية التي خلق الخلق لأجلها؛ فإنها غاية الحب بغاية الذل، ولا يصلح ذلك إلا له سبحانه، والإشراك به في هذا هو الشرك الذي لا يغفره الله، ولا يقبل لصاحبه عملاً.

وحمده يتضمن أصلين: الإخبار بمحامده وصفات كماله، والمحبة له عليها، فمن أخبر بمحاسن غيره من غير محبة له لم يكن حامداً، ومن أحبه من غير إخبار بمحاسن له لم يكن حامداً حتى يجمع الأمرين.

وهو سبحانه يحمده نفسه بنفسه، ويحمده نفسه بما يُجْريه على السنة الحامدين له من ملائكته وأنبيائه ورُسُلِهِ وعباده المؤمنين، فهو الحامد لنفسه بهذا وهذا، فإن حمدهم له بمشيئته وإذنه وتكوينه، فإنه هو الذي جعل الحامد حامداً، والمسلم مسلماً، والمصلّي مصلّياً، والتائب تائباً، فمنه ابتدأت النعم، وإليه انتهت؛ فابتدأت بحمده، وانتهت إلى حمده، وهو

الذي أَلْهَمَ عَبْدَهُ التَّوْبَةَ، وَفَرِحَ بِهَا أَعْظَمَ الْفَرَحِ، وَهِيَ مِنْ فَضْلِهِ وَجُودِهِ، وَأَلْهَمَ عَبْدَهُ الطَّاعَةَ وَأَعَانَهُ عَلَيْهَا، ثُمَّ أَثَابَهُ عَلَيْهَا، وَهِيَ مِنْ فَضْلِهِ وَجُودِهِ. وَهُوَ سَبْحَانَهُ غَنِيٌّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ بِكُلِّ وَجْهِ، وَمَا سِوَاهُ فَقِيرٌ إِلَيْهِ بِكُلِّ وَجْهِ، وَالْعَبْدُ مَفْتَقِرٌ إِلَيْهِ لِذَاتِهِ فِي الْأَسْبَابِ وَالْغَايَاتِ؛ فَإِنَّ مَا لَا يَكُونُ بِهِ: لَا يَكُونُ، وَمَا لَا يَكُونُ لَهُ: لَا يَنْفَعُ» (١) اهـ.

• قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ» وَهَذَا الْحَدِيثُ الشَّرِيفُ مُشْتَمِلٌ عَلَى أَصْلَيْنِ عَظِيمَيْنِ: فَأَوَّلُهُ مَعْرِفَةٌ، وَآخِرُهُ سُلُوكٌ، فَيُعْرِفُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِالْجَمَالِ الَّذِي لَا يَبْأَثُلُهُ فِيهِ شَيْءٌ، وَيُعْبَدُ بِالْجَمَالِ الَّذِي يُحِبُّهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَخْلَاقِ، فَيُحِبُّ مَنْ عَبْدَهُ أَنْ يُجَمِّلَ لِسَانَهُ بِالصِّدْقِ، وَقَلْبَهُ بِالْإِخْلَاصِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْإِنَابَةِ وَالتَّوَكُّلِ، وَجَوَارِحَهُ بِالطَّاعَةِ، وَبَدَنَهُ بِإِظْهَارِ نِعَمِهِ عَلَيْهِ فِي لِبَاسِهِ، وَتَطْهِيرِهِ لَهُ مِنَ الْأَنْجَاسِ، وَالْأَحْدَاثِ، وَالْأَوْسَاحِ، وَالشُّعُورِ الْمَكْرُوهَةِ، وَالْحَتَّانِ، وَتَقْلِيمِ الْأَظْفَارِ. فَيُعْرِفُهُ بِالْجَمَالِ الَّذِي هُوَ وَصْفُهُ، وَيُعْبَدُهُ بِجَمَالِ الَّذِي هُوَ شَرْعُهُ وَدِينُهُ فَجَمَعَ الْحَدِيثُ قَاعِدَتَيْنِ: الْمَعْرِفَةَ وَالسُّلُوكَ» (٢).

التوحيد والعبودية:

اللهم إني عبدك:

• في «المسند» و«صحيح أبي حاتم» (٣) من حديث عبد الله بن مسعود

(١) «الفوائد» لابن القيم.

(٢) «الفوائد» لابن القيم.

(٣) صحيح: رواه أحمد في «المسند» (١/٣٩١ و٤٥٢)، وابن حبان (٩٧٢)، وأبو يعلى (٥٢٩٧)، والحاكم (٥٠٩ - ٥١٠)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة»

ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أصاب عبدا هم ولا حزن، فقال: اللهم! إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدلٌ في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك؛ أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي، إلا أذهب الله همّه وغمّه، وأبدله مكانه فرحاً»، قالوا: يا رسول الله! أفلا نتعلمهن؟ قال: «بلى، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن».

فتضمّن هذا الحديث العظيم أموراً من المعرفة والتوحيد والعبودية:

منها: أن الدّاعي به صدر سؤاله بقوله: «إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك»، وهذا يتناول من فوقه من آبائه وأمهاته إلى أبويه آدم وحواء، وفي ذلك تملّق له واستخذاء^(١) بين يديه، واعتراف بأنه مملوكه وأباهه مماليكه، وأن العبد ليس له غير باب سيده وفضله وإحسانه، وأن سيده إن أهمله وتخلّى عنه هلك، ولم يؤوّه أحدٌ ولم يعطف عليه، بل يضيع أعظم ضيعة.

فتحت هذا الاعتراف: إني لا غنى بي عنك طرفة عين، وليس لي من أعوذ به وألوذ به غير سيدي الذي أنا عبده.

وفي ضمّن ذلك: الاعتراف بأنه مربوبٌ مدبرٌ منهى، إنما يتصرف بحكم العبودية، لا بحكم الاختيار لنفسه.

فليس هذا شأن العبد، بل شأن المملوك والأحرار، وأمّا العبيد:

(٣٤٠)، والطبراني في «الكبير» (١٠٣٥٢)، والحاثر بن أبي أسامة في «مسنده»

(١٠٦٣ - زوائده) بسند صحيح.

(١) تذلل وانكسار.

فتصرّفهم على مَحْضِ العبوديّة، فهو لاءِ عبيدُ الطاعةِ المضافون إليه سبحانه في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥]، وقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

ومن عداهم: عبيدُ القهرِ والربوبيّة، فإضافتهم إليه كإضافة سائر البيوتِ إلى ملكه^(١)، وإضافة أولئك كإضافة البيتِ الحرامِ إليه، وإضافة ناقتهِ إليه، وداره - التي هي الجنة - إليه، وإضافتهِ عبوديّةِ رسولهِ إليه بقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]، ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].

وفي التحقيق بمعنى قوله: «إني عبدك» التزامُ عبوديته من الدّل والخضوعِ والإنابة، وامثالُ أمرِ سيّده، واجتنابُ نهيه، ودوامُ الافتقارِ إليه واللجأِ إليه، والاستعانةِ به، والتوكّلِ عليه، وقيامُ العبدِ به، وليأذِه به، وأن لا يتعلّق قلبه بغيره؛ محبّةً وخوفاً ورجاءً.

وفيه أيضاً: إني عبدٌ من جميعِ الوجوه؛ صغيراً وكبيراً، حياً وميتاً، مطيعاً وعاصياً، معافى ومبتلى؛ بالروحِ والقلبِ، واللسانِ والجوارحِ. وفيه أيضاً: إن مالي ونفسي مُلكٌ لك؛ فإنَّ العبدَ وما يملكُ لسيّده. وفيه أيضاً: إنَّك أنت الذي مننتَ عليّ بكلِّ ما أنا فيه من نعمةٍ، فذلك كلُّه من إنعامك على عبدك.

وفيه أيضاً: إني لا أتصرّفُ فيما خولتني من مالي ونفسي إلاّ بأمرِك، كما لا يتصرّفُ العبدُ إلاّ بإذنِ سيّده، وإني لا أملكُ لنفسي ضرّاً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، فإنَّ صحَّ له شهودُ ذلك؛ فقد قال: إني عبدك،

(١) أي: ليست إضافةً مبنيةً على الطاعة، وإنما هي مبنيةٌ على الملكِ والافتقارِ.

حقيقةً.

ثمَّ قال: «ناصيتي بيدك»؛ أي: أنت المتصرِّفُ فيَّ تصرِّفُني كيفَ تشاءُ، لستُ أنا المتصرِّفُ في نفسي.

وكيفَ يكونُ له في نفسه تصرِّفٌ؛ مَنْ نفسه بيدَ ربِّه وسيِّده، وناصيته بيده، وقلبه بينَ إصبعين من أصابعه^(١)، وموته وحياته، وسعادته وشقاوته، وعافيته وبلاؤه كلُّه إليه سبحانه، ليس إلى العبدِ منه شيءٌ، بل هو في قبضة سيِّده: أضعفُ من مملوكٍ ضعيفٍ حقيرٍ، ناصيته بيدِ سلطانٍ قاهرٍ مالكٍ له تحتَ تصرُّفه وقهره، بل الأمرُ فوقَ ذلك؟!!

ومتى شهدَ العبدُ أنَّ ناصيته، ونواصي العبادِ كلُّها بيدَ الله وحده يُصرِّفُهم كيفَ يشاءُ؛ لم يَحْفَظْهم بعدَ ذلك، ولم يَرِجْهم، ولم يُنزِلْهم منزلةَ المالكين، بل منزلةَ عبيدٍ مقهورينَ مربوبينَ، المتصرِّفُ فيهم سواهم، والمدبِّرُ لهم غيرُهم.

فمَنْ شهدَ نفسه بهذا المشهدِ صارَ فقره وضرورته إلى ربِّه وصفاً لازماً له، ومتى شهدَ النَّاسَ؛ كذلك لم يفتقرَ إليهم، ولم يُعلِّقْ أمله ورجاءه بهم، فاستقامَ توحيدُه وتوكُّله وعبوديته.

ولهذا قال هودٌ عليه السلام لقومه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٥٦﴾ [هود].

وقوله: «ماضٍ فيَّ حُكْمُك، عدلٌ فيَّ قضاؤُك»؛ تضمَّنَ هذا الكلامُ أمرين:

(١) ورد هذا المعنى في حديث رواه مسلم في «صحيحه» (٢٦٥٤) عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

أحدهما: مَضَاءٌ^(١) حكمه في عبده.

والثاني: يتضمَّنُ حمدَه و عدلَه، وهو سبحانه له المُلْكُ وله الحمدُ.

وهذا معنى قولِ نبيِّه هودَ عليه السلام: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾، ثمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: مع كونه مالِكًا قاهرًا متصرفًا في عباده، نواصيهم بيده؛ فهو على صراطٍ مستقيمٍ، وهو العدلُ الذي يتصرفُ به فيهم، فهو على صراطٍ مستقيمٍ في قوله وفعله؛ وقضائه وقدره؛ وأمره ونهيه، وثوابه وعقابه؛ فخيرُه كُلُّهُ صدقٌ، وقضاؤه كُلُّهُ عدلٌ، وأمرُه كُلُّهُ مصلحةٌ، والذي نهى عنه كُلُّهُ مفسدةٌ، وثوابُه لمن يستحقُّ الثوابَ؛ بفضلِه ورحمته، وعقابه لمن يستحقُّ العقابَ؛ بعدله وحكمته^(٢) اهـ.



(١) هو نفاذه ونفوذه.

(٢) «الفوائد» لابن القيم.

علاة الهمم في الدعوة إلى التوحيد

أكمل الناس توحيداً ودعوة إلى التوحيد أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم:

□ قال ابن القيم - رحمه الله -: « لا ريب أن أهل التوحيد يتفاوتون في توحيدهم علماً ومعرفةً وحالاً - فتفاوتاً لا يُخصيه إلا الله. فأكمل الناس توحيداً الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، والمرسلون منهم أكمل في ذلك، وأولو العزم من الرُّسل أكمل توحيداً.. وأكمل أولي العزم الخليلان: محمدٌ وإبراهيم صلوات الله وسلامه عليهما، إذ قاما من التوحيد بما لم يقم به غيرهما علماً ومعرفةً وحالاً، ودعوةً للخلق وجهاداً. ولما كان أكمل التوحيد توحيد الأنبياء أمر الله نبيه أن يقتدي بهم فيه كما قال سبحانه - بعد ذكر إبراهيم ومناظرته أباه وقومه في بطلان الشرك وصحة التوحيد وذكر الأنبياء من ذريته -: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوْا بِهَا بِكَفِرِيْنَ ﴿٨١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ آفَتِدَةٌ ﴿٨٢﴾ [الأنعام].

فلا أكمل من توحيد من أمر رسول الله ﷺ أن يقتدي بهم» (١).

* قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوْا بِهَا بِكَفِرِيْنَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ آفَتِدَةٌ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٥٠١، ٥٠٢) بإيجاز.

«هذا تقرير لينايبع الهدى في هذه الأرض، فهدى الله يتمثل فيما جاءت به الرسل، وينحصر المستيقن منه، والذي يجب اتباعه، في هذا المصدر الواحد.

وأنبىء الله ورسله هم الذين وكلهم الله بدعوة التوحيد وبدينه، يحملونه إلى الناس، ويقومون عليه، ويؤمنون بدعوة التوحيد ويحفظونها فإذا كفر بدعوة التوحيد مشركو العرب ﴿هَؤُلَاءِ﴾ فإن دعوة التوحيد غنية عنهم، وهؤلاء الرهط الكرام والمؤمنون بها هم حَسْبُ هذه الدعوة.. إنها حقيقة قديمة امتدت شجرتها، وموكب موصول تماسكت حلقاته، ودعوة واحدة حملها رسولٌ بعد رسول، وآمن بها ويؤمن من يقسم الله له الهداية، بما يعلمه من استحقاقه للهداية!

وهو تقرير يسكب الطمأنينة في قلب المؤمن، وفي قلب العُصبة المسلمة -أيًا كان عددها- إن هذه العصبة ليست وحدها، ليست مقطوعة من شجرة! إنها فرع منبثق من شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وحلقة في موكب جليل موصول، موصولة أسبابه بالله وهُدَاه.. إن المؤمن الفرد، في أيِّ أرضٍ وفي أيِّ جيل، قوي قوي، وكبير كبير، إنه البشرية وفي أعماق التاريخ الإنساني، وعضوٌ من ذلك الموكب الكريم الموصول بالله وهُدَاه منذ أقدم العصور.

ورسل الله وأنبياؤه الرهط الكرام الذين يقودون موكب الإيمان والتوحيد، هم الذين هداهم الله. وهُدَاهم الذي جاءهم من الله فيه القدوة لرسول الله ﷺ ومن آمن به، فهذا الهدى وحده هو الذي يسير عليه

ويحتكم إليه.

قال قتادة: وكُلنا بها الأنبياء الثمانية عشر الذين ذكرناهم -يعني: قبل هذه الآية- وهذا التوكيل خاص بمن قام به علمًا، وعملاً، وجهادًا لأعدائها وذبًا عنها، ونفيًا لتحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وأيضًا فهو توكيل رحمة وإحسان وتوفيق واختصاص لا توكيل حاجة، وفي هذا تحقير لشأن الكفرة بدعوة التوحيد وبيان عدم تأهيلهم لها والإنعام عيها، وإيثار غيرهم من أهل الإيمان الذين سبقت لهم الحسنى عليهم، لكونهم أحق بها وأهلها والله أعلم حيث يضع هداه، ويختص به من يشاء، فالحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى.

وقد قيل: إن هؤلاء القوم هم الأنبياء، وقيل: أصحاب رسول الله ﷺ، وقيل: كل مؤمن. هذه أمماتُ الأقوال، بعد أقوال متفرعة من هذه كقول من قال: هم الأنصار، أو المهاجرون والأنصار، أو قومٌ من أبناء فارس، وقال آخرون: هم الملائكة. وقال ابن جرير^(١): وأولى هذه الأقوال بالصواب أنهم الأنبياء الثمانية عشر الذين سبّاهم في الآيات قبل الآية.

فالقوم «الموكلون بها هم الأنبياء أصلاً، والمؤمنون بها تبعًا، فيدخل كل من قام بحفظها، والذب عنها، والدعوة إليها، ولا ريب أن هذا للأنبياء، وللمؤمنين بهم تبعًا، وأحقُّ من دخل فيها من أتباع الرسول، خلفاؤه في أمته، وورثته؛ فهم الموكلون بها وهذا ينتظم في الأقوال التي قيلت في

(١) «تفسير الطبري» (٧/٢٦٣).

□ إن دعوة التوحيد كريمة في كل اعتبار، كريمة في صحفها المرفوعة المطهرة المؤكل بها السُّفراء من الملأ الأعلى ينقلونها إلى المختارين في الأرض ليلبغوها، وهم كذلك كرامٌ بررة.. فهي كريمة طاهرة في كل ما يتعلق بها، وما يمُسُّها من قريب أو بعيد، وهي عزيزة لا يُتصدَّى بها للمعرضين الذين يُظهرون الاستغناء عنها؛ فهي فقط لمن يعرف كرامتها ويطلب التطهر بها.

دعوة نوح أول المرسلين ﷺ، إلى التوحيد ألف سنة إلا خمسين عاماً:

دعوة نوح ﷺ إلى التوحيد.. والتوحيد فقط وعبادة الله وحده ألف سنة إلا خمسين عاماً. ترى فيها البشرية الضالة العنيدة العَصِيَّة الجاحمة، وترى فيها الجهد المضني، والعناء المرهق، والصبر الجميل، والإصرار الكريم من جانب نبي الله نوح ﷺ، لهداية البشرية جهد دائب مُلحٌّ ثابت مُصِرٌّ وتضحية نبيلة في دأب طويل طويل، ومشقة ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعو إلى التوحيد، يتحَيَّن كل فرصة ليلبغهم دعوة التوحيد، وهم قد أصرُّوا على الضلال، واستكبروا عن الاستجابة، بصورة تبرز من ثناياها ملامح الطفولة البشرية العنيدة، تبرز في وضع الأصابع في الآذان، وستر الرؤوس والوجوه بالثياب. ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ عناد طفولي كامل، فأذانهم لا تسع أصابعهم كاملة، إنما هم يسدُّونها بأطراف الأصابع، ولكنهم يسدُّونها في عنف بالغ، كأنما يحاولون أن يجعلوا أصابعهم كلها في آذانهم ضمناً لعدم تسرُّب الصوت إليها بتاتاً! هي صورة غليظة للإصرار

(١) «بدائع التفسير» (٢/١٥٨).

والعناد، كما أنها صورة بدائية - لأطفال البشرية الكبار!

وهؤلاء لم يكتفوا بالضلال ﴿ وَمَكْرُوهًا مَكْرًا كُبْرًا ﴾ (٢٢) ﴿ مَكْرًا مَتْنَاهَا فِي الْكِبَرِ، مَكْرُوا لِإِبْطَالِ الدَّعْوَةِ وَإِغْلَاقِ الطَّرِيقِ فِي وَجْهَهَا إِلَى قُلُوبِ النَّاسِ. وَمَكْرُوا لِتَزْيِينِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ وَالْجَاهِلِيَّةِ الَّتِي تَحْبُطُ فِيهَا الْقَوْمُ، وَكَانَ مِنْ مَكْرِهِمْ تَحْرِيسُ النَّاسِ عَلَى الْإِسْتِمْسَاكِ بِالْأَصْنَامِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا آلِهَةً ﴿ وَقَالُوا لَا نَدْرُنَّ ءِالِهَتَكُمْ ﴾ - بهذه الإضافة - ﴿ ءِالِهَتَكُمْ ﴾ لِإِثَارَةِ النُّخْوَةِ الْكَاذِبَةِ وَالْحَمِيَّةِ الْآثِمَةِ فِي قُلُوبِهِمْ. وَخَصَّصُوا مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَامِ أَكْبَرَهَا شَأْنًا فَخَصَّصُوهَا بِالذِّكْرِ لِيَهِيحَ ذِكْرُهَا فِي قُلُوبِ الْعَامَّةِ الْمُضَلَّلِينَ الْحَمِيَّةَ وَالْإِعْتِرَازَ ﴿ وَلَا نَدْرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَفُوتَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ (٢٣) ﴿ وَهِيَ أَكْبَرُ آلِهَتِهِمُ الَّتِي ظَلَّتْ تَعْبُدُ فِي الْجَاهِلِيَّاتِ بَعْدَهُمْ إِلَى عَهْدِ الرِّسَالَةِ الْمَحْمُودِيَّةِ.

«كان بين آدم ونوح عليه السلام قرون كلها على الإسلام» حتى كان شرك قوم نوح وعبادتهم الأصنام.. قيادات مضللة ضالّة تقيم أصنامًا، تختلف أسماؤها وأشكالها، وفق النعرة السائدة؛ تجمع حوالئها الأتباع، وتبيح في قلوبهم الحميّة لهذه الأصنام، كي تُوجَّههم من هذا الحُطَامِ إِلَى حَيْثُ تَشَاءُ، وَتُبْقِيَهُمْ عَلَى الضَّلَالِ الَّذِي يَكْفُلُ لَهَا الطَّاعَةَ وَالْإِنْقِيَادَ بِالْمَكْرِ الْكُبْرِ، وَالْكِيدَ وَالْإِصْرَارَ.

ولا يملُّ نبي الله نوح عليه السلام، ولا يفتر ولا ييأس أمام هذا الإعراض والإصرار ويتتبع نوح عليه السلام كل الوسائل ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ (٥) ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دَعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴾ (٦) [نوح]. وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ (٨) ﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ (٩) [نوح]. جهد نبيل خالص كريم وتحمل فوق تصور البشر للإعراض والاستكبار والاستهزاء.. وعدد

المستجيبين له لا يكاد يزيد دعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده ألف سنة إلا خمسين عاماً.. وقد يعنّ للإنسان أن يسأل: ترى تُساوي الحصيـلة هذا الجهد الطويل، وتلك التضحيات النبيلة.

تُرى هل تُساوي هذا الجهد الذي وصفه نوح عليه السلام، وقد استغرق عمراً طويلاً بالغ الطول، لم يكتف قومه فيه بالإعراض، بل اتبعوه بالسُّخرية والاتهام، وهو يتلقّاهما بالصبر والحسنى والأدب الجميل والبيان المنير.

والجواب: أن نعم.. وبلا جدال..!!

إن استقرار حقيقة التوحيد والإيمان بالله في الأرض يساوي كلّ هذا الجُهد، وكلّ هذا الصبر، وكلّ هذه المشقة، وكل هذه التضحيات المطردة من الرسل وأتباعهم الصادقين في كلّ جيل!

ولعلّ استقرار هذه الحقيقة أكبر من وجود الإنسان ذاته، بل أكبر من الأرض وما عليها، بل أكبر من هذا الكون الهائل الذي لا تبلغ الأرض أن تكون فيه هبأة ضائعة لا تكاد تُحسُّ أو تُرى!

إن استقرار هذه الحقيقة في قلب معناه أن ينطوي على قلب على نور التوحيد وهي حقيقة أكبر من الإنسان ذاته ومن أرضه وسماؤه، من كل هذا الكون الكبير كما أن استقرار حقيقة التوحيد والإيمان في حياة البشر - أو جماعة منهم - معناه اتصال هذه الحياة الأرضية بالحياة الأبدية، وارتفاعها إلى المستوى الذي يؤهلها لهذا الاتصال.. معناه اتصال الفناء بالبقاء والمحدود الناقص بالكمال المُطلق.. وهي حصيلة تربي على كل جهد وكل تضحية ولو تحققت على الأرض يوماً أو بعض يوم في عمر

البشرية الطويلة؛ لأن تحققها - ولو في هذه الصورة - يرفع أمام البشرية في سائر أجيالها مشعل النور في صورة عملية واقعية، تجاهد لتبلغ إليها طوال الأجيال!

مع التوحيد ودعوته يكون السموُّ في أشرف صورة ومعانيه والسعادة والطمأنينة في أرقى معانيها وصورها.

إمام الحنفاء وسيد الموحدين خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام:

□ وقال ابن القيم أيضًا في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (١٣٤) [البقرة] أي: لا ينال عهدي بالإمامة مشركٌ ولهذا أوصى نبيه محمدًا ﷺ أن يتبع ملة إبراهيم، وكان يعلم أصحابه إذا أصبحوا أن يقولوا: «أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد ﷺ وملة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين»، فملة إبراهيم التوحيد، ودين محمد: ما جاء به من عند الله قولًا وعملاً واعتقادًا.

وكلمة الإخلاص: هي شهادة أن لا إله إلا الله، وفطرة الإسلام: هي ما فطر الله عليه عباده من محبته وعبادته وحده لا شريك له والاستسلام له عبوديةً ودُّلاً وانقيادًا وإنابةً^(١).

* قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٣٥) [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا

كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ [آل عمران].

* وقال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

﴿٩٥﴾ [آل عمران].

* وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ

وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥].

* وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ

حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ [الأنعام].

* وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

﴿١٣٠﴾ [النحل].

«الحنيف المقبل على الله المعرض عما سواه، ومن فسره بالمائل لم يُفسره بنفس موضوع اللفظ، وإنما فسره بلازم المعنى، فإن الحنف هو الإقبال، ومن أقبل على شيء مأل عن غيره، والحنف في الرجلين هو إقبال إحداهما على الأخرى ويلزمه ميلها عن جهتها، قال تعالى: ﴿فَطَرَتَ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].. فإن إقامة الوجه للدين هو إفراد طلبه بحيث لا يبقى في القلب إرادة لغيره، والحنيف المفرد لمعبوده لا يريد غيره»^(١).

□ وقال ابن القيم: «إن الحنيفية تتضمن الإقبال على الله بالعبادة، والإجلال والتعظيم والمحبة والذل. والتوحيد يتضمن إفراده بهذا الإقبال دون غيره فيعبده وحده ويحبُّ وحده ويُطاع وحده، ولا يجعل معه إلهًا آخر»^(٢).

(١) «جلاء الأفهام» لابن القيم (ص ١٥٥).

(٢) «بدائع الفوائد» لابن القيم (٤/١٥٥).

* وقال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة].

□ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ما قام بدين الله كله إلا إبراهيم عليه السلام، قدم بدنه للنيران، وقدم ماله للضيفان، وقدم ولده للقربان». وقال الله تعالى: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ [النجم].

أحسن مناظرة بين إبراهيم عليه السلام وقومه:

* قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَا زَرَ اتَّخَذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرِنكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [٧٤] وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ﴿٧٥﴾ فلما جن عليه الليل رآه كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الأفلين ﴿٧٦﴾ فلما رآه القمر بازعا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونت من القوم الضالين ﴿٧٧﴾ فلما رآه الشمس بازعة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يقوم إني بريء مما تشركون ﴿٧٨﴾ إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض خنيقا وما أنا من المشركين ﴿٧٩﴾ وحاجه قومه قال أتحجوني في الله وقد هدنن ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون ﴿٨٠﴾ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ﴿٨١﴾ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴿٨٢﴾ وتلك حجتنا آتيتها إبراهيم على قومه رفعا ررجلت من نشاء إن ربتك حكيم عليم ﴿٨٣﴾ [الأنعام].

لقد كان كفر الصابئة من جهة الكواكب والعلويات، ولذلك ناظرهم إمام الحنفاء صلوات الله وسلامه عليه في بطلان إلهيتها.

أحسن مناظرة وأبينها، ظهرت فيها حجته، ودحضت حجته. فقال بعد أن بين بطلان إلهية الكواكب والقمر والشمس بأفولها، وأن الإله لا يليق به أن يغيب ويأفل، بل لا يكون إلاّ شاهداً غير غائب، كما لا يكون إلاّ غالباً قاهراً غير مغلوب ولا مقهور، نافعا لعباده، يملك لعباده الضر والنفع فيسمع كلامه ويرى مكانه ويهديه ويرشده ويدفع عنه كل ما يضره ويؤذيه وذلك ليس إلاّ الله وحده، فكل معبود سواه باطل.

فلما رأى إمام الحنفاء أن الشمس والقمر والكواكب ليست بهذه المثابة، صعد منها إلى فاطرها وخالقها ومبدعها فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ ، وفي ذلك إشارة إلى أنه سبحانه خالق أمكنتها ومحالها التي هي مفتقرة إليها، ولا قوام إلاّ بها، فهي محتاجة إلى محل تقوم به وفاطر يخلقها ويدبرها ويربها. والمحتاج المخلوق الربوب المدبر لا يكون إلهاً. فحاجه قومه في الله. ومن حاج في عبادة الله فحجته داخضة. فقال إبراهيم عليه السلام: ﴿أَتَحْبُوتَنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي﴾ [الأنعام: ٨٠]، وهذا من أحسن الكلام، أي تريدون أن تصرفوني عن الإقرار بربي وتوحيده، وعن عبادته وحده، وتشككوني فيه، وقد أرشدني وبين لي الحق، حتى استبان لي كاليان، وبين لي بطلان الشرك، وسوء عاقبته، وأن أهتكم لا تصلح للعبادة، وأن عبادتها توجب لعبديها غاية الضرر في الدنيا والآخرة، فكيف تريدون مني أن أنصرف عن عبادته وتوحيده إلى الشرك به، وقد هداني إلى الحق وسبيل الرشاد؟ فالمحاجة والمجادلة إنما فائدتها طلب الرجوع والانتقال من الباطل إلى الحق ومن الجهل إلى العلم ومن العمى إلى الإبصار ومجادلتكم إياي في الإله الحق الذي كل معبود سواه باطل تتضمن خلاف ذلك.

فخوفوه بأهنتهم أن تصيبه بسوء، كما يخوف المشرك الموحد بإلهه الذي يأله مع الله أن يناله بسوء. فقال الخليل: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ فإن أهنتكم أقل وأحق من أن تضر من كفر بها، وجحد عبادتها، ثم رد الأمر إلى مشيئة الله وحده وأنه هو الذي يخاف ويرجى، فقال: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ وهذا استثناء منقطع. والمعنى: لا أخاف أهنتكم فإنها لا مشيئة لها، ولا قدرة، لكن إن شاء ربي شيئاً نالني وأصابني، لا أهنتكم التي لا تشاء، ولا تعلم شيئاً، وربى له المشيئة النافذة، وقد وسع كل شيء علماً؛ فمن أولى بأن يخاف ويعبد هو سبحانه، أم هي؟

ثم قال: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون ما أنتم عليه من إشراك من لا مشيئة له، ولا يعلم شيئاً من له المشيئة التامة، والعلم التام.

ثم قال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ [الأنعام: ٨١].

وهذا من أحسن قلب الحجة، وجعل حجة المبطل بعينها دالة على فساد قوله، وبطلان مذهبه، فإنهم خوفوه بأهنتهم التي لم ينزل الله عليهم سلطاناً بعبادتها. وقد تبين بطلان إلهيتها، ومضرة عبادتها. ومع هذا فلا تخافون شرككم بالله وعبادتكم معه آلهة أخرى؟ فأى الفريقين أحق بالأمن وأولى بأن لا يلحقه الخوف؟ فريق الموحدين؟ أم فريق المشركين؟ فحكم الله سبحانه بين الفريقين بالحكم العدل الذي لا حكم أصح منه. فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ أي بشرك ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

* قال الله تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا



[١٢٥] [النساء].

قد بلغ نبي الله وخليله إبراهيم أعلى مقامات العبودية وهي مقام المحبة بل أعلى مقامات المحبة وهو مقام الخلة، والخليل هو الذي لا يبقى في قلبه شيء لغير خليله كما قال الشاعر:

قد تحللت مسلك الروح مني وبذا سُمي الخليلُ خليلًا
وهذا المقام أشرف مقام في توحيد الألوهية لم ينله من البشر إلا خليل الرحمن إبراهيم ونبينا صلوات الله وسلامه عليهما:

• عن ابن مسعود رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «لو كنتُ مُتَّخِذًا من أهل الأرض خليلًا، لَاتَّخَذْتُ ابن أبي قحافة خليلًا، ولكن صاحبكم خليل الله»^(١).

• وقال ﷺ: «لو كنتُ متخذًا من أمتي خليلًا، دون ربي لَاتَّخَذْتُ أبا بكر خليلًا، ولكن أخي وصاحبي»^(٢).

• وعن ابن مسعود رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «لو كنتُ متخذًا خليلًا لَاتَّخَذْتُ أبا بكر خليلًا، ولكنه أخي وصاحبي، وقد اتَّخَذَ اللهُ صاحبكم خليلًا»^(٣).

□ وانظر إليه وهو يعلن عداوته للأصنام، وللعقيدة الفاسدة التي تسمح بعبادتها، لم يمنعه أن أباه وأن قومه يعبدون ما يعبدون، أن يفارقهم بعقيدته، وأن يجاهر بعبادته لآلهتهم وعقيدتهم.

(١) «إغاثة اللهفان» لابن القيم (١/١٥٥).

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

* قال تعالى: ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَاَبَاؤُكُمْ الَّذِينَ الْأَقْدَمُونَ

﴿٧٦﴾ [الشعراء].

الذي خلقني فهو يهدين:

«ثم يأخذ إبراهيم عليه السلام في صفة ربه. رب العالمين. وصلته به في كل حال وفي كل حين. فنحس القربى الوثيقة، والصلة الندية، والشعور بالله في كل حركة ونأمة، وفي حاجة وغاية.

* ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ [الشعراء].

ونستشعر من صفة إبراهيم لربه، واسترساله في تصوير صلته به، أنه يعيش بكيانه كله مع ربه. وأنه يتطلع إليه في ثقة، ويتوجه إليه في حب؛ وأنه يصفه كأنه يراه، ويحس وقع إنعامه وإفضاله عليه بقلبه ومشاعره وجوارحه.. والنغمة الرخية في حكاية قوله في القرآن تساعد على أشاعة هذا الجو وإلقاء هذا الظل. بالإيقاع العذب الرخي اللين المديد..

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ .. الذي أنشأني من حيث يعلم ولا أعلم؛ فهو أعلم بما هيتي وتكويني. ووظائفي ومشاعري، وحالي ومآلي: ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ إليه، وإلى طريقي الذي أسلكه، وإلى نهجي الذي أسير عليه. وكأنها يحس إبراهيم عليه السلام أنه عجينة طيبة في يد الصانع المبدع، يصوغها كيف شاء، على أي صورة أراد. إنه الاستسلام المطلق في طمأنينة وراحة وثقة ويقين.

﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ .. فهي

الكفالة المباشرة الحانية الراحية، الرفيقة الودود، يحس بها إبراهيم في الصحة والمرض. ويتأدب بأدب النبوة الرفيع، فلا ينسب مرضه إلى ربه - وهو يعلم أنه بمشيئة ربه يمرض ويصح - إنما يذكر ربه في مقام الإنعام والإفضال إذ يطعمه ويسقيه.. ويشفيه.. ولا يذكره في مقام الابتلاء حين يتلوه.

﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾ .. فهو الإيمان بأن الله هو الذي يقضي الموت، وهو الإيمان بالبعث والنشور في استسلام ورضى عميق.

﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ .. فأقصى ما يطمع فيه إبراهيم عليه السلام، النبي الرسول، الذي يعرف ربه هذه المعرفة، ويشعر بربه هذا الشعور، ويحس في قرارة نفسه هذه القربى.. أقصى ما يطمع فيه أن يغفر له ربه خطيئته يوم الدين. فهو لا يبرئ نفسه، وهو يخشى أن تكون له خطيئة، وهو لا يعتمد على عمله، ولا يرى أنه يستحق بعمله شيئاً، إلا أنه يطمع في فضل ربه، ويرجو في رحمته، وهذا وحده هو الذي يطمعه في العفو والمغفرة.

إنه شعور التقوى، وشعور الأدب، وشعور التحرج؛ وهو الشعور الصحيح بقيمة نعمة الله وهي عظمة عظيمة، وقيمة عمل العبد وهو ضئيل ضئيل.

وهكذا يجمع إبراهيم في صفة ربه عناصر العقيدة الصحيحة: توحيد الله رب العالمين. والإقرار بتصرفه للبشر في أدق شؤون حياتهم على الأرض. والبعث والحساب بعد الموت وفضل الله وتقدير العبد. وهي العناصر التي ينكرها قومه، وينكرها المشركون.

ثم يأخذ إبراهيم الأواه المنيب في دعاء رخي مديد، يتوجه به إلى ربه في إيمان وخشوع.

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِيقِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَغْفِرْ لِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ..

والدعاء كله ليس فيه طلب لعرض من أعراض هذه الأرض؛ ولا حتى صحة البدن. إنه دعاء يتجه إلى آفاق أعلى؛ تحركه مشاعر أصفى. ودعاء القلب الذي عرف الله فأصبح يحتقر ما عداه. والذي ذاق فهو يطلب المزيد؛ والذي يرجو ويخاف في حدود ما ذاق وما يريد.

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا ﴾ .. أعطني الحكمة التي أعرف بها القيم الصحيحة والقيم الزائفة، فأبقى على الدرب يصلني بما هو أبقى.

﴿ وَالْحَقِيقِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ .. يقولها إبراهيم النبي الكريم الأواه الحليم. فيا للتواضع! ويا للتحرج! ويا للإشفاق من التقصير! ويا للخوف من تقلب القلوب! ويا للحرص على مجرد اللحاق بالصالحين! بتوفيق من ربه إلى العمل الصالح الذي يلحقه بالصالحين!

﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ .. دعوة تدفعه إليها الرغبة في الامتداد، لا بالنسب ولكن بالعقيدة؛ فهو يطلب إلى ربه أن يجعل له فيمن يأتون أخيراً لسان صدق يدعوهم إلى الحق، ويردهم إلى الحنيفية السمحاء دين إبراهيم. ولعلها هي دعوته في موضع آخر: إذ يرفع قواعد البيت الحرام هو وابنه إسماعيل ثم يقول: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ وَإِرْنَا مَنْ سَكَوَتْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ

رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ
 الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٦﴾ [البقرة] .. وقد استجاب الله له، وحقق دعوته، وجعل
 له لسان صدق في الآخرين، وبعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته
 ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم.. وكانت الاستجابة بعد آلاف من
 السنين. هي في عرف الناس أمد طويل، وهي عند الله أجل معلوم، تقتضي
 حكمته أن تتحقق الدعوة المستجابة فيه.

﴿وَجَعَلَنِي مِنْ وِرْدَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ [الشعراء].. وقد دعا ربه -من قبل-
 أن يلحقه بال صالحين، بتوفيقه إلى العمل الصالح، الذي يسلكه في
 صفوفهم. وجنة النعيم يرثها عباد الله الصالحون.

﴿وَأَعْرِضْ لآيَاتِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ .. ذلك على الرغم مما لقيه إبراهيم
 عليه السلام، من أبيه من غليظ القول وبالع التهديد. ولكنه كان قد وعده أن
 يستغفر له، فوفى بوعده. وقد بين القرآن فيما بعد أن لا يجوز الاستغفار
 للمشركين ولو كانوا أولي قربى؛ وقرر أن إبراهيم استغفر لأبيه بناء على
 موعدة وعدها إياه ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]
 وعرف أن القرابة ليست قرابة النسب، إنما هي قرابة العقيدة.. وهذه
 إحدى مقومات التربية الإسلامية الواضحة. فالرابطة الأولى هي رابطة
 العقيدة في الله، ولا تقوم صلة بين فردين من بني البشر إلا على أساسها.
 فإذا قطعت هذه الصلة انبثت سائر الوشائج؛ وكانت البعدى التي لا تبقى
 معها صلة ولا وشيجة.

﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ
 ﴿٨٩﴾ .. ونستشف من قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ (٨٧)

مدى شعوره بهول اليوم الآخر؛ ومدى حيائه من ربه، وخشيته من الخزي أمامه، وخوفه من تقصيره. وهو النبي الكريم. كما نستشف من قوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾. مدى إدراكه لحقيقة ذلك اليوم. وإدراكه كذلك لحقيقة القيم. فليست هنالك من قيمة في يوم الحساب إلا قيمة الإخلاص. إخلاص القلب كله لله، وتجرده من كل شائبة، ومن كل مرض، ومن كل غرض. وصفائه من الشهوات والانحرافات. وخلوه من التعلق بغير الله. فهذه سلامته التي تجعل له قيمة ووزناً^(١) اهـ.

□ وقد وردت حلقات من قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام في البقرة والأنعام، وهود، وإبراهيم، والحجر، ومريم، والأنبياء، والحج، والصفات، والنجم وبرز فيها واضحة جليلة رائعة دعوته إلى التوحيد.

* في سورة مريم حلقة دعوته في رفق لأبيه إلى توحيد الله وترك عبادة الأصنام، وغلظة أبيه عليه، واعتزاله لأبيه وقومه، ورعاية الله لإمام الحنفاء.. وجوها كله تظللها الرحمة والود واللين قال تعالى: ﴿وَأذْكَرَ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنْ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ هَؤُلَاءِ إِبْرَاهِيمَ لَمَّا تَنَزَّهَتْ عَنْهُمْ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعَزَّنِي اللَّهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ

(١) «الظلال» (٢٦٠٣ - ٢٦٠٥).

وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا آعَزَّ لَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نِسَاءَهُمْ ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيمًا ﴿٥٠﴾ * [مريم].

* وفي سورة الأنبياء تُعرض حلقة دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه وزراريته على أصنامهم وتحطيمه للأصنام وإلقائه في النار التي كانت بردًا وسلامًا عليه بأمر الله قال تعالى: ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥٢﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٣﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا نَاهَا عِبْدِينَ ﴿٥٤﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٥﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٦﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٧﴾ وَقَالَ اللَّهُ لَا كِيدَ إِلَّا أُصْنَمُكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مَدْيَنَ ﴿٥٨﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦١﴾ قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٣﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَشْتُلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٦﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٧﴾ أَمْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٩﴾ قُلْنَا نَارُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٧٠﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧١﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧٢﴾ * [الأنبياء].

لقد علم الله من خليله إبراهيم عليه السلام أحوالاً بديعة وأسراراً عجيبة، وصفات قد رضىها وحمدها حتى أهله لمخالته ومخالصته.

□ قال ابن القيم في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] «فاقتسم هو وقومه حقيقة العكوف، فكان حظُّ قومه العكوف على التماثيل، وكان حظُّه العكوف على الرب الجليل. والتماثيل جمع تماثل، وهي الصور الممثلة، فتعلَّق القلب بغير الله واشتغاله به والركون إليه عكوف منه على التماثيل التي قامت بقلبه، وهو نظير العكوف على تماثيل الأصنام، ولهذا كان شِرْكُ عِبَادِ الْأَصْنَامِ بِالْعُكُوفِ بِقُلُوبِهِمْ وَهَمَمِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ عَلَى تَمَاثِيلِهِ.

فإذا كان في القلب تماثيل قد ملكته واستعبدته، بحيث يكون عاكفاً عليها، فهو نظير عكوف الأصنام عليها؛ ولهذا سمَّاه النبي ﷺ عبداً لها ودعا عليه بالتَّعْسِ والنكس، فقال: «تَعَسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعَسَ عَبْدُ الدَّرْهِمِ، تَعَسَ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ»^(١).

خليل الرحمن إبراهيم ذو القلب السليم:

* لقد دعا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ربه أن يرزقه قلباً سليماً فقال تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [٨٧] يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ [٨٨] إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ [٨٩]﴾ [الشعراء].

* فرزقه الله قلباً سليماً وأثنى الله عليه فقال: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤].

□ قال ابن القيم: «القلب السليم هو القلب الذي سلم من كل مرض يُبْعَدُهُ عَنِ اللَّهِ^(٢)، وسلم من كل شُبْهَةٍ تَعَارَضُ خَبْرَهُ، وَسَلِمَ مِنْ كُلِّ

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص ١٩٠).

(٢) كالحقد والحسد والشح والكبر وحب الرياسة.

شهوة تُعارض أمره، ومن كلُّ إرادة تُزاحم مراده، ومن كل قاطعٍ يقطع عن الله»^(١).

• عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الناس أفضل؟ فقال: «كلُّ خموم القلب صدوق اللسان» قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما خموم القلب؟ قال: «هو التقيُّ النقيُّ لا إثم فيه ولا بغي ولا غلٌ ولا حسد»^(٢).

أَفْكَاءُ الهَةِ دُونَ الله تَرِيدُونَ؟ فَمَا ظَنُّكُمْ بِربِّ العالمين؟

* قال تعالى عن خليله إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَفْكَاءَ الهَةِ دُونَ الله تَرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِربِّ العالمين ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات].

□ قال ابن القيم: «أي: فما ظنُّكم أن يجازيكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟ وما ظننتم به حتى عبدتم معه غيره؟ وما ظننتم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص حتى أحوجكم ذلك إلى عبودية غيره؟ فلو ظننتم به ما هو أهله من أنه بكل شيءٍ عليم، وهو على كل شيءٍ قدير، وأنه غنيٌّ عن كل ما سواه وكلُّ ما سواه فقيرٌ إليه وأنه قائم بالقسط على خلقه، وأنه المنفرد بتدبير خلقه لا يشركه فيه غيره، والعالم بتفاصيل الأمور فلا يخفى عليه خافية من خلقه، والكافي لهم وحده، فلا يحتاج إلى معين، والرحمن بذاته فلا يحتاج إلى رحمته إلى مَنْ يستعطفه. وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء؛ فإنهم يحتاجون إلى مَنْ يُعرفهم أحوال الرعية

(١) «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» لابن القيم.

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٩٧)،

و«الصحيحة» (٩٤٨).

وحوائجهم، ويعينهم على قضاء حوائجهم، وإلى مَنْ يسترهم ويستعطفهم بالشفاعة، فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم وضعفهم وعجزهم وقصور علمهم. فأما القادر على كل شيء، الغني بذاته عن كل شيء، والعالم بكل شيء، الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، فإدخال الوسائط بينه وبين خلقه تَنْقُصُ بحق ربوبيته وإلهيته وتوحيده، وظنُّ به ظن السوء، وهذا يستحيل أن يُشْرعه لعباده، ويمتنع في العقول والفطر جوازه، وقبحه مستقرُّ في العقول السليمة فوق كل قبيح. يوضِّحُ هذا أن العابد معظَّم لمعبوده متألُّ له خاضع ذليل، والرب تعالى وحده هو الذي يستحقُّ كمال التعظيم والإجلال والتألُّ والخضوع والذلُّ، وهذا خالصُ حقِّه، فمن أقبح الظلم أن يُعطى حقه لغيره، أو يشرك بينه وبينه فيه، ولا سيما إذا كان الذي جعل شريكه هو»^(١).

أَعْظَمَ سَفْرَةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَبْرَكَهَا عَلَيْهِ إِقَاءَ الْمُشْرِكِينَ لَهُ فِي النَّارِ، وَمَا
أَعْظَمَ تَوَكُّلَهُ وَتَوْحِيدَهُ!!!

* قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ﴾ [الأنعام: ٨٣].

□ قال زيد بن أسلم^(٢) وغيره: «بالحجة والعلم ولما غلب أعداء الله معه بالحجة وظهرت حجته عليهم، وكسر أصنامهم، فكسر حججهم، ومعبودهم، هموا بعقوبته، وإلقائه في النار، وهذا شأن المبطلين، وإذا غلبوا

(١) «الجواب الكافي» (ص ٢٠٦، ٢٠٧).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٧/٢٥٩)، «والدر المنثور» (٣/٣١٠).

وقامت عليهم الحجة هموا بالعقوبة كما قال فرعون لموسى، وقد أقام عليه الحجة ﴿لَيْنِ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ (٢٩) ﴿[الشعراء] فأضرموا له النار وألقوه في المنجنيق فكانت تلك السفرة من أعظم سفرة سافرها وأبركها عليه، فإنه ما سافر سفرة أبرك ولا أعظم ولا أرفع شيئاً وأقر لعينه منها، وفي تلك السفرة عرض له جبرائيل بين السماء والأرض فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا. قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدَ جَمَعُوا لَكُمْ فَآخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣) ﴿[آل عمران] قالها نبيكم، وقالها إبراهيم حين ألقى في النار، فجعل الله سبحانه عليه النار برداً وسلاماً﴾ (١).

• وقد ثبت في «صحيح البخاري» من حديث أم شريك أن النبي ﷺ أمر بقتل الوزغ وقال: «كانت تنفخ على إبراهيم» (٢).

﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (٣٥) ﴿:

* قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (٣٥) ﴿رَبِّ إِنِّي نَزَّلْتُ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٣٦) ﴿[إبراهيم].

«يبدو في دعوة إبراهيم الثانية تسليم إبراهيم المطلق إلى ربه، والتجاؤه إليه في أحصّ مشاعر قلبه. فهو يدعو أن يُجنبه عبادة الأصنام هو وبنيه، يستعينه بهذا الدعاء ويستهديه. ثم ليبرز أن هذه نعمة أخرى من نعم الله.

(١) رواه البخاري (٤٤٨/٦) في أحاديث الأنبياء - باب قول الله تعالى: ﴿وَأَتَّخَذَ اللَّهُ

إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (١٢٥) ﴿[النساء].

(٢) «جلاء الأفهام» لابن القيم (ص ١٦٠).

وإنها لنعمة أن يخرج القلب من ظلمات الشرك وجهالاته إلى نور الإيمان بالله وتوحيده، فيخرج من التيه والحيرة والضلال والشور، إلى المعرفة والطمأنينة والاستقرار والهدوء، ويخرج من الدينونة المذلة لشتى الأرباب، إلى الدينونة الكريمة العزيزة لرب العباد.. إنها لنعمة يدعو إبراهيم ربه ليحفظها عليه فيُجَنِّبه هو وبنيه أن يعبد الأصنام.

يدعو إبراهيم دعوته هذه لما شهدته وعلمه من كثرة من ضلوا بهذه الأصنام من الناس في جيله وفي الأجيال التي قبله، ومن فتنوا بها ومن افتتنوا وهم خلق كثير»^(١).

□ قال ابن القيم: «فها هنا أمران: تجنب عبادتها واجتنابها، فسأل الخليل ربه أن يُجَنِّبه وبنيه عبادتها، ليحصل منهم اجتنابها، فالاجتناب فعلهم والتجنب فعله، ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله»^(٢).

الولاء والبراء في أنقى صورهِ عند خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام:

* مرّ في الآيات السابقة ﴿ رَبِّ إِنِّي أَخْلَلْتُ كَيْبَرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ يَبْعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣٦) .. لا آصرة إلا آصرة العقيدة.. العقيدة وحدها.

* وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ (١١٤) [التوبة].

* وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ (٣٦)

(١) «الظلال» (٤/٢١٠٩).

(٢) «شفاء العليل» لابن القيم (ص ٥٩).

إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ [الزخرف].

□ قال ابن القيم: «أي: جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبودٍ سِوَاهُ كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض، وهي كلمة: لا إله إلا الله، وهي التي ورثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة»^(١).

* وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلِّمْنَا لَكَ مَا تَشَاءُ وَارْحَمْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْآخِرَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ [الممتحنة].

هذه قصة أبي الأنبياء إبراهيم وصاحب الحنيفية الأولى، وفيه الأسوة الحسنة لا في العقيدة وحدها، بل في السيرة، وفي التجارب التي عاناها مع عاطفة القرابة ووشائجها، ثم خالص منها هو ومن آمن معه وتجرّد لعقيدته وحدها.. وتبرأ من كل وشيجة تنافي العقيدة.

فهي البراءة من القوم ومعبوداتهم وعباداتهم. وهو الكفر بهم، والإيمان بالله، وهي المفاصلة الحاسمة الجازمة التي لا تستبقي شيئاً من الوشائج والأواصر بعد انقطاع وشيجة العقيدة وأصرة الإيمان.. وفي هذا فصل الخطاب في مثل هذه التجربة التي يمرُّ بها المؤمن في أيّ جيل. وفي

(١) «الجواب الكافي» (ص ٢٩٤، ٢٩٥).

قرار إبراهيم والذين معه أسوة لخلفائهم من المسلمين إلى يوم الدين.

أما قول إبراهيم لأبيه ﴿لَا سَغْفَرَ لَكَ﴾ فقد قال هذا قبل أن يستيقن من إصرار أبيه على الشرك. قاله وهو يرجو إيمانه ويتوقَّعه ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] كما جاء في سورة أخرى.

فلا أسوة في إبراهيم والذين معه متحققة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، هؤلاء هم الذين يُدركون قيمة التجربة التي عاناها هذا الرَّهْطُ الكريم، ويجدون فيها أسوة تُتَّبَعُ، وسابقة تهدي.

فأما من يريد أن يتولى عن هذا المنهج، من يريد أن يجيد عن طريق القافلة، من يريد أن ينسلخ من هذا النسب العريق، فما بالله من حاجة إليه سبحانه فإن الله هو الغني الحميد^(١).

• عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب الله، وأبغض الله، وأعطى الله، ومنع الله، فقد استكمل الإيمان»^(٢).

التسليم المطلق لأمر الله شعار الخليل إبراهيم عليه السلام وودثاره:

* قال الله - عز وجل - في شأن خليله إبراهيم وولده عليه السلام: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئُ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ آيَاتٍ فَأَتَّبُكَ فَإِنَّظُرْ مَاذَا تَرَى^٥ قَالَ يَتَّبِعُكَ إِنِّي إِذْ تَبْتَئُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ^(١٠)﴾ [الصافات].

هذا إبراهيم الشيخ، والمقطوع من الأهل والقرابة، المهاجر من الأرض والوطن، ها هو ذا يرزق في كبره وهرمه بسلام طالما تطلع إليه،

(١) انظر: «الظلال» (٦/٣٥٤٢، ٣٥٤٣).

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والضياء، وصححه الألباني في «الصحيححة» رقم (٣٨٠)، و«صحيح الجامع» (٥٩٦٥).

فلما جاء غلامًا ممتازًا يشهد له ربه بأنه حلِيم، وها هو ذا ما يكاد يأنس به،
وصباه يتفتح، ويبلغ معي السعي، ويرافقه في الحياة.

ها هو ذا ما يكاد يأنس ويستروح بهذا الغلام الوحيد، حتى يرى في
منامه أنه يذبحه، ويدرك أنها إشارة من ربه بالتضحية. فماذا؟ إنه لا يتردد،
ولا يخالجه إلا شعور الطاعة، ولا يخطر له إلا خاطر التسليم.. نعم إنها
إشارة.. مجرد إشارة.. وليست وحياً صريحاً، ولا أمراً مباشراً. ولكنها
إشارة من ربه.. وهذا يكفي.. هذا يكفي ليلبي ويستجيب. دون أن
يعترض. ودون أن يسأل ربه.. ولكنه لا يلبي في انزعاج، ولا يستسلم في
جزع، ولا يطيع في اضطراب.. كلا، إنها هو القبول والرضا والطمأنينة
والهدوء.. يبدو ذلك في كلماته لابنه وهو يعرض عليه الأمر الهائل في
هدوء وفي اطمئنان عجيب.

﴿كَالْيَبْنِيِّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ آتِيَّ أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾، فهي كلمات
المالك لأعصابه، المطمئن للأمر الذي يواجهه، الواثق بأنه يؤدي واجبه،
وهي في الوقت ذاته كلمات المؤمن، الذي لا يهوله الأمر فيؤديه في اندفاع
وعجلة ليخلص منه وينتهي، ويستريح من ثقله على أعصابه!

والأمر شاق - ما في ذلك شك - فهو لا يطلب إليه أن يرسل بابنه
الوحيد إلى معركة. ولا يطلب إليه أن يكلفه أمراً تنتهي به حياته.. إنما
يطلب إليه أن يتولى هو بيده.. يتولى ماذا؟ يتولى ذبحه وهو - مع هذا -
يتلقى الأمر هذا التلقي، ويعرض على ابنه هذا العرض، ويطلب إليه أن
يتروى في أمره، وأن يرى فيه رأيه! إنه لا يأخذ ابنه على غرة لينفذ إشارة
ربه، وينتهي. إنما يعرض الأمر عليه كالذي يعرض المؤلف من الأمر.

فالأمر في حسه هكذا، ربه يريد. فليكن ما يريد على العين والرأس^(١) وابنه ينبغي أن يعرف. وأن يأخذ الأمر طاعة وإسلامًا، لا قهراً واضطرارًا، لينال هو الآخر أجر الطاعة، وليسلم هو الآخر ويتذوق حلاوة التسليم!

إنه يجب لابنه أن يتذوق لذة التطوع التي ذاقها، وأن ينال الخير الذي يراه هو أبقى من الحياة وأقنى.

فماذا يكون من أمر الغلام، الذي يعرض عليه الذبح، تصديقًا لرؤيا رآها أبوه؟ إنه يرتقي إلى الأفق الذي ارتقى إليه من قبل أبوه:

﴿قَالَ يَتَابِتْ أَفْعَلٌ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٠٢) ﴿إنه يتلقى الأمر لا في طاعة واستسلام فحسب. ولكن في رضا كذلك وفي يقين!! ﴿يَتَابِتْ﴾.. في مودة وقربى. فشبح الذبح لا يزعجه ولا يفزعه ولا يفقده رشده. بل لا يفقده أدبه ومودته.

﴿أَفْعَلٌ مَا تُؤْمَرُ﴾، فهو يحس ما أحسه من قبل قلب أبوه. يحس أن الرؤيا إشارة.

وأن في الإشارة أمرًا. وأنها تكفي لكي يلبي وينفذ بغير لجلجة ولا تمحل ولا ارتياب.

ثم هو الأدب مع الله، ومعرفة حدود قدرته وطاقته في الاحتمال، والاستعانة بربه على ضعفه، ونسبة الفضل إليه في إعانته على التضحية، ومساعدته على الطاعة، ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٠٢) .

(١) بل على العينين والرأس.

ولم يأخذها بطُولة. ولم يأخذها شجاعة. ولم يأخذها اندفاعاً إلى الخطر دون مبالاة.

ولم يظهر لشخصه ظللاً ولا حجماً ولا وزناً.. إنما أرجع الفضل كله لله إن هو أعانه على ما يطلب إليه، وأصبره على ما يراد به.

﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

يا للأدب مع الله! ويا لروعة الإيمان. ويا لنبل الطاعة، ويا لعظمة التسليم!.

ويخطو المشهد خطوة أخرى وراء الحوار والكلام.. يخطو إلى التنفيذ:

﴿فَلَمَّا أَسْلَمًا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾

ومرة أخرى يرتفع نبل الطاعة. وعظمة الإيمان. وطمأنينة الرضا وراء كل ما يتعارف عليه بنو الإنسان.

إن الرجل يمضي فيكب ابنه على جبينه استعداداً، وإن الغلام يستسلم فلا يتحرك امتناعاً. وقد وصل الأمر إلى أن يكون عياناً.

لقد أسلمها.. فهذا هو الإسلام.. هذا هو الإسلام في حقيقته.. ثقة وطمأنينة ورضا وتسليم.. وتنفيذ.. وكلاهما لا يجد في نفسه إلا هذه المشاعر التي لا يصنعها غير الإيمان العظيم.

إنها ليست الشجاعة والجرأة. وليس الاندفاع والحماسة. لقد يندفع المجاهد في الميدان، يُقتل ويُقتل. ولقد يندفع الفدائي وهو يعلم أنه قد لا يعود، ولكن هذا كله شيء، والذي يصنعه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هنا شيء آخر.. ليس هنا دم فائر، ولا حماسة دافعة ولا اندفاع في عجلة تخفي وراءها الخوف من الضعف والنكوص!.

إنما هو الاستسلام الواعي المتعقل القاصد المرید، العارف بما يفعل، المطمئن لما يكون. لا بل هنا الرضا الهادئ المستبشر المتذوق للطاعة وطعمها الجميل! وهنا كان إبراهيم وإسماعيل قد أدّيا، كانا قد أسلما، كانا قد حققا الأمر والتكليف.

ولم يكن باقياً إلا أن يذبح إسماعيل، ويسيل دمه، وتزهق روحه.. وهذا أمر لا يعني شيئاً في ميزان الله! بعد ما وضع إبراهيم إسماعيل في هذا الميزان من روحهما وعزمهما ومشاعرهما كل ما أرادته منهما ربهما..

وكان الابتلاء قد تم.. والامتحان قد وقع، ونتائجه قد ظهرت، وغاياته قد تحققت، ولم يعد إلا الألم البدني، وإلا الدم المسفوح. والجسد الذبيح. والله لا يريد أن يعذب عباده بالابتلاء. ولا يريد دماءهم وأجسادهم في شيء، ومتى خلصوا له واستعدوا للأداء بكليّاتهم فقد أدوا، وقد حققوا التكليف، وقد جاوزوا الامتحان بنجاح. وعرف الله من إبراهيم وإسماعيل صدقهما، فاعتبرهما قد أدّيا وحققا.

﴿ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١١٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَّاكَ بِخَبْرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١١٦﴾ ﴾

قد صدقت الرؤيا وحققتها فعلاً، فالله لا يريد إلا الإسلام والاستسلام بحيث لا يبقى في النفس ما تكنه عن الله أو تعزه عن أمره أو تحتفظ به دونه، ولو كان هو الابن فلذة الكبد، ولو كانت هي النفس والحياة.

وأنت يا إبراهيم قد فعلت، جُدت بكل شيء، وبأعز شيء، ووجدت به في رضا وفي هدوء وفي طمأنينة وفي يقين، فلم يبق إلا اللحم والدم، وهذا ينوب عنه ذبح، أي ذبح من دم ولحم! ويفدي الله هذه النفس التي

أسلمت وأدّت، يفديها بذبح عظيم، قيل: إنه كبش وجدّه إبراهيم مهياً. بفعل ربه وإرادته ليذبحه بدلاً من إسماعيل!. وقيل له: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٠٥﴾ يجزيهم باختيارهم لمثل هذا البلاء.

عَذَابُهُ فِيكَ عَذْبٌ وَبُعْدُهُ فِيكَ قُرْبٌ
وَأَنْتَ عِنْدِي كَرُوحِي بَلْ أَنْتَ مِنْهَا أَحَبُّ
حَسْبِي مِنَ الْحُسْبِ أَيْ لِمَا تُحِبُّ أَحَبُّ

ونجزيم بتوجيه قلوبهم ورفعها إلى مستوى الوفاء، ونجزيم بإقدارهم وإصبارهم على الأداء. ونجزيم كذلك باستحقاق الجزاء!.

ومضت سنة النحر في الأضحى، ويوم النحر، ذكرى لهذا الحادث العظيم، الذي يرتفع منارة لحقيقة الإيمان، وجمال الطاعة وعظمة التسليم، والذي ترجع إليه الأمة المسلمة لتعرف فيه حقيقة أبيها إبراهيم عليه السلام، الذي يتبع ملته، والذي ترث نسبته وعقيدته.

ولتدرك طبيعة العقيدة التي تقوم بها أو تقوم عليها، ولتعرف أنه الاستسلام لقدر الله في طاعة راضية واثقة ملبية، لا تسأل ربه لماذا؟ ولا تتلجلج في تحقيق إرادته عند أول إشارة منه وأول توجيه، ولا تستبقي لنفسها في نفسها شيئاً، ولا تختار فيما تقدمه لربها هيئة ولا طريقة لتقدمه إلا كما يطلب هو إليها أن تُقدّم! ثم لتعرف أن ربه لا يريد أن يعذبها بالابتلاء، ولا يؤذيها بالبلاء، إنما يريد أن تأتيه طائعة ملبية وافية مؤدية مستسلمة لا تقدم بين يديه، ولا تتألى عليه، فإذا عرف منها الصدق في هذا أعفاها من التضحيات والآلام. واحتسبها لها وفاء وأداء.

وقبل منها وفداها. وأكرمها كما أكرم أباه.

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.. فهو مذكور على توالي الأجيال والقرون، وهو أمة، وهو أبو الأنبياء، وهو أبو هذه الأمة المسلمة وهي وارثة ملته، وقد كتب الله لها وعليها قيادة البشرية على ملة إبراهيم. فجعلها الله له عقبًا ونسبًا إلى يوم الدين.

﴿ سَلِّمْ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ سلام عليه من ربه، سلام يسجل في كتابه الباقي، ويرقم في طوايا الوجود الكبير.

﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾ كذلك نجزيهم بالبلاء، والوفاء، والذكر، والسلام، والتكريم.

﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ ﴾.

وهذا جزاء الإيمان وتلك حقيقته فيما كشف عنه البلاء المبين.

ثم يتجلى عليه ربه بفضله مرة أخرى ونعمته؛ فيهبُّ له إسحاق في شيخوخته، ويباركه ويبارك إسحاق.. يبشره يعقوب ابن ابنه في حياته وابن الابن أعز من كل شيء.. لما هان عليه ابنه في ذات الله.. فعوضه الله وجازاه من جنس عمله، وتلاحق من بعدهما ذريتهما. ولكن وراثة هذه الذرية لهما ليست وراثة الدم والنسب.

إنما هي وراثة الملة والمنهج: فمن اتبع فهو محسن، ومن انحرف فهو ظالم، لا ينفعه نسب قريب أو بعيد ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٢﴾ ﴾.

□ قال ابن قيم الجوزية -رحمه الله-: «الخلَّة: هي المحبة التي تخللت

روح المحب وقلبه، حتى لم يبق فيه موضع لغير المحبوب، كما قيل:

قد تخللت مسلك الروح مني ولذا سمي الخليل خليلًا

وهذا هو السر الذي لأجله -والله أعلم- أمر الخليل بذبح ولده، وثمره فؤاده وفلذة كبده؛ لأنه لما سأل الولد فأعطيه، تعلقت به شعبة من قلبه. و«الخلّة» منصب لا يقبل الشركة والقسمة، فغار الخليل على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره، فأمره بذبح ولده، ليخرج المزاحم من قلبه، فلما وَطَّنَ نفسه على ذلك، وعزم عليه عزمًا جازمًا؛ حصل مقصود الأمر، فلم يبق في إزهاق نفس الولد مصلحة، فحال بينه وبينه، وفداه بالذبح العظيم، وقيل له: ﴿يَتَابِرْهِيمُ ۝١٠٤﴾ قَدْ صَدَقْتَ ﴿١٠٤﴾ أي: عملت عمل المصدق ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١٠٥﴾ ﴿١٠٥﴾ نجزي مَنْ بادر إلى طاعتنا فنقرّ عينه كما أقررنا عينك بامثال أوامرنا، وإبقاء الولد وسلامته ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلْتَأُ الْمُؤْمِنُ ۝١٠٦﴾ ﴿١٠٦﴾ وهو اختبار المحبوب لمحبه، وامتحانه إياه ليؤثر مرضاته فيتم عليه نعمه، فهو بلاء محنة ومنحة عليه معًا.

وهذه الدعوة إنما دعا إليها بها خواص خلقه، وأهل الأبواب والبصائر منهم، فما كان أحد يجيب داعيها، ولا كل عين قريرة بها، وأهلها هم الذين حصلوا في وسط قبضته اليمين يوم القبضتين. وسائر أهل اليمين في أطرافها..

فما كلُّ عينٍ بالحبيبِ قريرةٌ	ولا كلُّ مَنْ نُودِي يُجيبُ
ومَنْ لا يُجيبُ داعي هُداك فخلِّه	يُجيبُ كلُّ مَنْ أضحى إلى الغي داعيا
وقل للعيون الرمد إياك أن تري	سنا الشمس فاستغشي ظلام اللياليا
وسامح نفوسًا لم تهبها لحبهم	ودعها وما اختارت ولا تكُ جافيا
وقل للذي قد غاب يكفي عقوبة	مغيبك عن ذا الشأن لو كنت واعيا
خفافيش أعشاها النهار بضوئه	ولاءمها قطع من الليل باديا

فكن أبداً حيث استقلت ركائب الـ
 وأدلج، ولا تخش الظلام فإنه
 وسقها بذكراه مطاياك إنه
 محبة في ظهر العزائم ساريا
 سيكفيك وجه الحب في الليل هاديا
 سيكفي المطايا طيب ذكراه حاديا^(١)

سيد الموحدين رسول الله ﷺ :

□ قد نال رسول الله ﷺ الذروة العليا والمكانة السامقة في توحيده
 لربه والدعوة إلى التوحيد، ويكفيه شرفاً وفخراً ومكانة وضيئه أنه بلغ في
 توحيد الألوهية مبلغاً لا يلحقه فيه من البشر إلا خليل الرحمن إبراهيم،
 فقد كان لهما مقام «الخلّة» أعلى درجات المحبة.

□ وقد بلغ من العبادة أعلى مكانة، وخلع الله عليه نعت العبودية -
 وهي الذل التام والحب التام- في أشرف المواضع في القرآن الكريم.

* في مقام الدعوة إلى الله قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا
 يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًّا﴾ [الجن].

* ومقام الإسراء: قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ
 الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَّا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ
 السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء].

* ومقام إنزال الكتاب، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ
 وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف].

* وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا
 ﴾ [الفرقان].

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم.



* ومقام التحدي للكافرين. قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة].

* وبلغ رسول الله ﷺ من العبادات القلبية كالحب والخوف والإخلاص والرجاء والرغبة، والتوكل والصبر والحمد والشكر أعلى مقامات الكمال الإنساني، وكذا العبادات القولية والعبادات المادية والبدينية، يترجم ذلك كله قول الله ﷻ الذي يلمس أعماق القلب البشري ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام].

إنها تسيحة «التوحيد» المطلق والعبودية الكاملة تجمع الصلاة والاعتكاف والمحيا والممات، وتخلصها لله وحده رب العالمين.. في إسلام كامل لا يستبقي في النفس ولا في الحياة بقية لا يعبدها الله، ولا يحتجز دونه شيئاً في الضمير ولا في الواقع، وكان رسول الله ﷺ أول المسلمين.

* وقال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَىٰ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَاِزْدَةٌ ۚ وَزَرَّ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ [الأنعام].

إنها تسيحة التوحيد الرّخية النّديّة، يتجلّى من خلالها ذلك المشهد الرائع، مشهد الحقيقة الإيمانية كما هي في قلب رسول الله ﷺ وهو مشهد لا يُعبر عن روعته وبهائه وكماله وعلوه إلاّ التعبير القرآني الفريد.

* إنه توحيد رسول الله ﷺ لربه في أبهى وأنقى وأنصح وألطف صور التوحيد ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَخِذْ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسَلُ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام].

• وفي توحيد الأسماء والصفات كان النبي ﷺ أعلم الناس بربه وأسمائه وصفاته يعلم منها ما لم يعلمه البشر، ويتعبد ربه بها وبآثارها كأجل وأنقى وأطهر ما يكون التعبد «إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية».

• انظر أخي إلى سيد العابدين الموحدين الذاكرين الخاشعين ودعائه، إذا قام من الليل يتهجّد قال: «اللهم لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، لك مُلك السموات ومن فيهن، ولك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض [ومن فيهن]، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبون حق، ومحمد ﷺ حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، [أنت ربنا وإليك المصير]، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت [وما أعلنت وما أنت أعلم به مني]، أنت المقدم وأنت المؤخر، أنت إلهي لا إله إلا أنت، ولا إله غيرك، ولا حول ولا قوة إلا بك»^(١).

□ وكل أدعيته ﷺ فيها من الثناء على الله وأسمائه وصفاته أرق وأجمل تعبير نطق به فم.

□ ويفتح الله ﷻ عليه يوم القيامة وهو ساجد تحت العرش بمحامد ما حمد الله بها أحدٌ من البشر سوى رسول الله ﷺ.

(١) رواه البخاري واللفظ له [ما عدا ما بين الأقواس]، ومسلم، وأبو داود، وأبو عوانة، وابن نصر، والدارمي.

□ وكانت أنفاسه مشبوبة وممزوجة بالدعوة إلى التوحيد وحماية جانبه والتحذير من الشرك أشد تحذير، ظل النبي ﷺ بمكة الأعوام الطويلة يدعو إلى التوحيد، وترسيخ العقيدة وبيان فضل التوحيد وشرفه، يربي أصحابه على العقيدة السليمة، فخرج بهذه العقيدة أنقى جيل وأطهر جيل من الصحابة الموحدين ما عرفت الأرض مذ دحاها الله خلقاً أظهر وأفضل منهم خلا النبيين والمرسلين سادوا الدنيا بالتوحيد، وتحملوا مع نبهم في نشر دعوة التوحيد أشد أنواع البلاء وهم يبثون الدعوة إلى التوحيد في شعاب مكة وفجاجها وبقاع الأرض، ولما فتح الله على رسوله ﷺ مكة كسّر ما في البيت من أصنام، وأرسل أصحابه لهدم الأوثان في الجزيرة العربية حماية لجانب التوحيد: أرسل أصحابه لهدم اللات والعزى ومناة، وكسّر هو هبل والأصنام والأوثان التي كانت في البيت الحرام.

□ كل حياته ﷺ.. كل حركاته وسكناته صُبغت بالتوحيد والدعوة إليه.. والتحذير من الشرك واجتنابه وما يُقرب إليه وبغض المشركين والكافرين والبراءة منهم والنهي عن التشبه بهم، ومحبة المؤمنين وموالاتهم والدعاء لهم وتبشيرهم بمغفرة الله ورحمته إياهم. ومن نظر إلى كتب العقيدة يجد مصداق هذا، وأنه لو كُتبت المجلدات في علو همة الرسول ﷺ في التوحيد والدعوة إليه لما وفته حقه، فجزاه الله عنا وعن دعوة التوحيد خير ما جرى نبياً عن أمته ورسولاً عن البشرية.. ويكفيه شرفاً دعوته للتوحيد بين الثقلين الجن والإنس، والناس أجمعين.

□ لقد كانت دعوة التوحيد هي أس دعوة نبينا ﷺ:

فغالب آيات القرآن جاءت في تقرير عقيدة التوحيد، والدعوة إلى

خلاص العبادة والدين لله وحده لا شريك له، وتثبيت أصول الاعتقاد (الإيمان والإسلام).

وقضى رسول الله ﷺ غالب وقته -بعد النبوة- في تقرير الاعتقاد، والدعوة إلى توحيد الله تعالى بالعبادة والطاعة، وهذا هو مقتضى «لا إله إلا الله محمد رسول الله». فالدعوة إلى العقيدة تأصيلاً وتصحيحاً شملت الجزء الأكبر من جهد النبي ﷺ ووقته في عهد النبوة وبيان ذلك:

□ أن الرسول ﷺ قضى ثلاثاً وعشرين سنة في الدعوة إلى الله -هي عهد النبوة- منها ثلاث عشرة سنة في مكة، جُلُّها كانت في الدعوة إلى تحقيق «لا إله إلا الله محمد رسول الله» أي الدعوة إلى توحيد الله تعالى بالعبادة والألوهية وحده لا شريك له، ونبذ الشرك وعبادة الأوثان وسائر الوسطاء ونبذ البدع والمعتقدات الفاسدة.

□ ومنها عشر سنين في المدينة كانت مُوزَّعة بين تشريع الأحكام وتثبيت العقيدة والحفاظ عليها وحمايتها من الشبهات، والجهاد في سبيلها، أي أن أغلبها في تقرير عقيدة التوحيد وأصول الدين، ومن ذلك مجادلة أهل الكتاب وبيان بطلان معتقداتهم المُحرَّفة، والتصدي لشبهاتهم وشبهات المنافقين وصدُّ كيدهم للإسلام والمسلمين، وكل هذا في حماية العقيدة قبل كل شيء.

فأي دعوة لا تُولي أمر العقيدة من الاهتمام كما أولاها رسول الله ﷺ علماً وعملاً فهي ناقصة.

□ إن الرسول ﷺ إنما قاتل الناس على عقيدة التوحيد حتى يكون الدين لله وحده، على الرغم أن سائر المفاسد والشرور كانت سائدة في

ذلك الوقت، ومع ذلك فإن رسول الله ﷺ جعل الغاية من قتال الناس تحقيق التوحيد وأركان الإسلام فقد قال ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحَسَابِهِمْ عَلَى اللَّهِ»^(١). وهذا لا يعني أن رسول الله ﷺ لم يبال بالأمور الأخرى، من الدعوة إلى الفضائل والأخلاق الحميدة، من البرِّ والصلة والصدق والوفاء، والأمانة، وترك ضدها من الآثام والكبائر كالرِّبَا والزنا وقطيعة الرَّحِمِ، وحاشاه ذلك، لكنه جعلها في مرتبة بعد أصول الاعتقاد؛ لأنه يعلم -وهو القدوة ﷺ- أن الناس إذا استقاموا على دين الله وأخلصوا له الطاعة والعبادة حَسُنَتْ نِيَّاتُهُمْ وَأَعْمَالُهُمْ، وفعلوا الخيرات واجتنبوا المنهيات في الجملة.. إذن فمدار الخير على صلاح العقيدة، فإذا صلحت استقام الناس على الحق والخير.

□ إن من أول ما نزل به القرآن وأمر الله رسوله ﷺ أن يفعله هو أن يكبر الله ويعظّمه وحده، وأن ينذر الناس من الشرك، ويهجر ما هم عليه من عبادة الأصنام، ويصبر على ذلك كله، قال الله تعالى: ﴿بَنَاتِيهَا الْمُدَنِيُّ (١) قُرْآنِيذِر (٢) وَرَبِّكَ فَكَبِّر (٣) وَبَابِكَ فَطَهِّر (٤) وَالرَّجْزَ فَاهْجُر (٥) وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَنْتَكِر (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِر (٧)﴾ [المدثر].

(١) رواه البخاري -كتاب الإيمان- باب: «فإن تابوا وأقاموا الصلاة» -«فتح الباري» (١/٧٤/ح ٢٤)، و«صحيح مسلم» - كتاب الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله (٢/٥٣/ح ٢٢) إلا أن مسلماً لم يذكر «إلا بحق الإسلام».

وقد ذكر العلماء أن القرآن: ثلث أحكام، وثلث أخبار، وثلث توحيد^(١).

وهذا ما فسروا به قول النبي ﷺ: «قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن»^(٢).

وآيات الأحكام لا تخلو من ذكر للعقيدة وأصول الدين وذلك من خلال ذكر أسماء الله وصفاته، وطاعته وطاعة رسوله ﷺ، وذكر حكم التشريع ونحو ذلك، وكذلك آيات الأخبار والقصص أغلبها في الإيمان والاعتقاد، ونحو ذلك من خلال أخبار المغيبات والوعد والوعيد واليوم الآخر، وكثير من أمور التوحيد والاعتقاد.

فالقرآن الكريم غالب آياته في تقرير العقيدة، والدعوة إليها والدفاع عنها والجهاد في سبيلها.

فعلى الدعاة أن يدركوا الحقيقة من القرآن والسنة، ويعملوا بها، ويفعلوا كما فعل الرسول ﷺ وأصحابه، ويبدأوا بما بدأ به الرسول وصحبه الكريم والله الهادي إلى سواء السبيل^(٣).

(١) ممن قال بذلك ابن سريج وابن تيمية وابن حجر رحمهم الله: انظر «جواب أهل العلم والإيمان بتحقيق ما أخبر به الرحمن من أن «قل هو الله أحد» تعدل ثلث القرآن» لابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (١٧/١٣، ١٠١، ١٠٣) وانظر «فتح الباري» لابن حجر (٦١/٩).

(٢) أخرجه البخاري (٩١/٦)، ومسلم واللفظ له -كتاب صلاة المسافر- باب: فضل قراءة «قل هو الله أحد» الحديث (٨١١).

(٣) انظر: «بحوث في عقيدة أهل السنة والجماعة» (ص ٢٨ - ٣١) للدكتور ناصر عبد الكريم العقل -طبع دار العاصمة.

التمسك بالسنة وعقيدة السلف نجاة، والسير على درب أئمة السلف الحافظين للسنة الذابين عنها:

□ يقال عقيدة السلف، وعقيدة أهل الأثر، ويُطلق على عقيدة السلف «السنة» وهذا الإطلاق هو السائد في القرون الثلاثة الفاضلة.

علو الهمة في التزام منهج السلف والتمسك باعتقادهم:

هناك أسس ضخمة وثابتة للاتجاه السلفي حتى لا يلتبس الأمر على من يريد الاقتداء بهم وينسج على منوالهم.

أولاً: التوحيد هو أصل الأصول، وأصول التوحيد في المعتقد السلفي:

- الإيمان بصفات الله سبحانه وأسمائه على الوجه الذي يليق به دون تحريف أو تأويل أو تشبيه أو تمثيل أو تعطيل.

- إفراد الله سبحانه وتعالى وحده بالعبادة.

- الإيمان بأن الله وحده سبحانه وتعالى وليس لأحدٍ سواه حق التشريع للبشر في شؤون دنياهم كما قال جل وعلا ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠].

- نؤمن أن قضايا التوحيد الثلاثة قضايا لا تتجزأ ولا تقبل المساومة؛ لأنها أركان في فهم العقيدة السليمة.

والمنهج السلفي يأخذ هذه القضايا جملة، ويظهر قلوب المسلمين من الشرك فيها جميعاً.

ثانياً: اتباع لا ابتداع: وتقديم النقل عن العقل:

□ قال الشافعي: «حكمي في أهل الكلام أن يطاف بهم في القبائل

والعشائر ويضربوا بالجريد، ويُقال: هذا جزاء من ترك كتاب الله واتبع علم الكلام».

□ قال الشافعي: «إنما فسد المسلمون لما تركوا لسان الفطرة واتبعوا لسان أرسطوطاليس».

□ وقال أبو يوسف تلميذ أبي حنيفة: «العلم بالكلام هو الجهل، والجهل بالكلام هو العلم، وإن الرجل إذا سار رأساً في الكلام تزندق».

□ وقال الإمام مالك: «أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل، تركنا ما جاء به جبريل إلى محمد عليه الصلاة والسلام لجدل هؤلاء»^(١).

□ قال الشافعي: «لأن يُبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه - ما عدا الشرك - خيرٌ له من أن ينظر في الكلام»^(٢).

□ وقال أحمد بن حنبل: «لا يصلح صاحب كلام أبداً، علماء الكلام زنادقة»^(٣)، وقال الأوزاعي: «إذا أراد الله بقوم شرّاً ألزمهم الجدل ومنعهم العمل»^(٤).

□ وعن أبي يوسف: «من طلب المال بالكيمياء فقد أفلس، ومن طلب الدين بالكلام تزندق»^(٥).

وُنقل مثل ذلك الاعتقاد عن علي بن المديني، وأبي زرعة الرازي،

(١) انظر «مجموع الفتاوى» (٥/٢٩ - ٣١).

(٢) «تليس إبليس» لابن الجوزي (ص ٨٢).

(٣) المصدر السابق (ص ٨٣).

(٤) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» للحافظ اللالكائي (١/١٤٥).

(٥) المصدر السابق (١/١٤٧).

وأبو حاتم الرازي، وإسحاق بن إبراهيم، والقاسم بن سلام، والليث بن سعد، وسفيان الثوري وغيرهم من علماء الأمة الأجلاء، وكلهم ينهون عن النظر في كتب المتكلمين، ويأمرون بترك مجالسهم وهجرانهم»^(١).

بماذا تعوّض أهل الكلام لما تركوا تقديم النقل من الكتاب والسنة على العقل:

بالله يا أرباب المعقولات، ويا أهل الذاتي والعرضي، وأهل المقولات العشر والكليات الخمس!! ويا أهل المختلطات والموجهات والقضايا المسوّرات والمهملات، ويا أهل الشكل الأول والثاني والثالث والرابع وأصحاب القياس الحملي والشرطي، وأهل العقول المقدّمة بزعم أربابها على الوحي، بماذا تعوّضتم عن الوحي؟ بزبالات أذهان اليونان.. وأقيسة ومنطق أهل الكُفْران وما ثمرة عقولكم وحاصل معقولكم إلاّ الحيرة والاضطراب:

عاديتمُ المعقول والمنقولا	فعلى عقولكم العفاءُ فإنكم
الهْدَى لا تبتغون رسولا	وطلبتمُ أمراً محالاً وهو إدراكُ
بالحق أين العقل كان كفيلا	وزعمتمُ أن العقول كفيلةٌ
عقلٌ تروُنَ كليهما معقولا	وهو الذي يقضى فينقضُ حكمه
يلقى لديه باطلاً معلولا	وتراه يجزم بالقضاء وبعدّذا
بالوحي تأصيلاً ولا تفصيلا	لا يستقلُّ العقلُ دونَ هدايةٍ
حتى يراه بكرةً وأصيلا	كالطَّرْقِ دونَ النور ليس بمُدركٍ

(١) المصدر السابق (١/١٥١) وما بعدها.

وإذا الظلامُ تلاطمتْ أمواجه
فإذا النبوةُ لم يَنَلْكَ ضياؤها
نورُ النبوة مثلُ نورِ الشمس
طرقُ الهدى محدودةٌ إلا على
يا طالباً دَرَكَ الهدى بالعقل
كَمْ رَامَ قَبْلَكَ ذَاكَ مِنْ مُتَلَدِّذٍ
ما زالت الشبهات تغزو قلبه
وطمعت بالإبصار كنتُ مُحيلاً
فالعقل لا يهديك قط سبيلاً
للعين البصيرة فأتخذه دليلاً
مَنْ أَمَّ هَذَا الْوَحْيِ وَالتَّنْزِيلِ
دون التَّغْلُّلِ لَنْ تَلْقَ لَذَاكَ دليلاً
حيرانَ عاشَ مدى الزمان جهولاً
حتى تَشَحَّطَ بينهن قتيلاً^(١)

رجوع طوائف من المتكلمين إلى الحق:

□ قال الفخر الرازي في وصيته التي وردت في كتاب «عيون الأنباء»: «لقد اخترت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم؛ لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكُلية لله تعالى، ويمنع من إيراد المعارضات والمناقضات، وما ذاك إلا بالعلم؛ لأن العقول البشرية تتلاشى وتضمحل في تلك المضائق العميقة والمناهج الخفية»^(٢).

□ وقال - رحمه الله -:

نهاية إقدام العقولِ عقَالُ
وأرواحنا في وحشةٍ من جُسُومنا
وغاية سغي العالمين ضلالُ
وحاصلُ دنيانا أذىٌ ووبالُ

(١) «الصواعق المرسلّة» (٣/٩٧٧، ٩٧٨، ٩٧٩، ٩٧٩ - ٩٨٠).

(٢) «القائد إلى تصحيح العقائد» للمعالي اليماني (ص ٧٤)، و«عيون الأنباء»



ولم نستفد من بحثنا طولَ عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيلَ وقالوا
□ كذلك قال:

لقد طفتُ في تلكَ المعاهد كُلِّها وسَيَّرْتُ طرفي بين تلكَ المعالم
فلم أَرِ إِلَّا واضعًا كفَّ حائِرٍ على ذقنٍ أو قارِعًا سن نَادِمٍ^(١)

□ وقال ابن الصلاح: «أخبرني القطب الطوغاني مرّتين أنه سمع فخر الدين الرازي يقول: «يا ليتني لم أشتغل بعلم الكلام وبكى»^(٢).

فهذا قول كبير مُتَكَلِّمي الأشاعرة بلا منازع، والذي تدورُ على مقالاته مذاهبهم^(٣)!.

□ وكان أبو المعالي الجويني يقول: «لقد جُلت أهل الإسلام جولة وعلومهم، وركبتُ البحرَ الأعظمَ وغُصتُ في الذي نهوا عنه، كل ذلك في طلب الحق وهربًا من التقليد، والآن رجعت عن الكلِّ إلى كلمة الحق. عليكم بدين العجائز فإن لم يُدركني الحق بلطيف برّه فأموتُ على دين العجائز، ويختم عاقبة أمري عند الرحيل بكلمة الإخلاص فالويل لابن الجويني»، وكان يقول لأصحابه: «يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفتُ أن الكلام يبلغُ بي ما بلغ ما تشاغلُ به»^(٤).

□ وعن أحمد بن سنان قال: «كان الوليد بن أبان الكرابيسي خاليًا، فلما

(١) «إيثار الحق على الخلق» لابن الوزير (ص ٨).

(٢) «مقدمة اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» للرازي (ص ٢٣).

(٣) «المعتزلة بين القديم والحديث» (ص ٤٣) لمحمد العبد وطارق عبد الحلیم-

طبع دار بن حزم.

(٤) «تلييس إبليس» لابن الجوزي (ص ٨٥).

حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لَبْنِيهِ: تَعْلَمُونَ أَحَدًا أَعْلَمُ بِالْكَلامِ مِنِّي؟ قالوا: لا. قال: فَتَتَّهَمُونِي؟ قالوا: لا. قال: فإني أوصيكمُ أَتَقْبَلُونَ؟ قالوا: نعم. قال: عَلَيْكُمْ بِمَا عَلَيْهِ أَصْحَابُ الْحَدِيثِ فَإِنِّي رَأَيْتُ الْحَقَّ مَعَهُمْ»^(١).

□ أما أبو حامد الغزالي فإنه لم يجد له مغني في الكلام، وكان ذلك مما بعثه على الرجوع في آخر عمره، فأقبل على حفظ القرآن، وسماع الصحيحين، فيقال أنه مات و«صحيح البخاري» على صدره^(٢). وللغزالي كلام طيبٌ في قِلَّةِ غناء علم الكلام في كتابه «فيصل التفرقة بين الإيَّان والزُّندقة»^(٣).

□ ومن قواعد المنهج السلفي: عدم التفریق بين الكتاب والسنة.

علاَةُ الهمم الأئمة الأعلام الحافظون للسُّنَّةِ وعقيدة النبي ﷺ:

أئمة يُشار إليهم بالبنان حَفِظَ اللهُ بِهِمُ السُّنَّةَ عَقِيدَةَ النَّبِيِّ ﷺ وَصَحَبَهُ الْكِرَامَ، وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ.

□ منهم عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - : قال أبو المليح: «كتب

عمر بن عبد العزيز بإحياء السُّنَّةِ وإماتة البدعة»^(٤).

□ ومنهم الحسن البصري: قال: «لا يصحُّ القولُ إِلَّا بعمل، ولا يصح

قول وعمل إِلَّا بنية، ولا يصح قول وعمل ونبية إِلَّا بالسُّنَّةِ»^(٥).

(١) المصدر السابق (ص ٨٤).

(٢) «المعتزلة بين القديم والحديث» (ص ٤٤).

(٣) «فيصل التفرقة» (ص ٧٩ - ٨٣).

(٤) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للحافظ اللالكائي (١/٥٦).

(٥) المصدر السابق (١/٥٧).

□ **ومنهم يونس بن عبيد**: قال: «ليس شيءٍ أغرب من السُّنة وأغرب منه من يعرفها»^(١).

□ **ومنهم أيوب السختياني سيد شباب أهل البصرة**، كما سمَّاه الحسن البصري. قال حماد بن زيد: «كان أيوب عندي أفضل من جالسته وأشدّه اتباعاً للسُّنة»^(٢).

□ **ومنهم سفيان الثوري**: قال عبد الرحمن بن مهدي شيخ الإمام إحمد ابن حنبل: «الناس على وجوه: فمنهم من هو إمام في السُّنة إمامٌ في الحديث. ومنهم من هو إمامٌ في الحديث، فأما من هو إمام في السُّنة وإمام في الحديث فسفيان الثوري»^(٣).

تنبيه هام:

هذا أبلغ قول في أن المراد بالسُّنة هنا الاعتقاد وليس الحديث.

□ قال يوسف بن أسباط: «كان أبي قَدَرِيًّا وأخوالي روافض فأنقذني الله بسفيان»^(٤).

□ وكان الثوري يتشيع فخرج سفيان إلى البصرة فلقى أيوب وابن عون فترك التشيع^(٥).

ثم صار الثوري إمامًا عظيمًا في السُّنة والحديث.

(١) المصدر السابق (٥٨/١).

(٢) «شرح أصول الاعتقاد» (٥٨/١).

(٣) مقدمة «الجرح والتعديل» (١١٨/١) لابن أبي حاتم الرازي، و«شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٦٣/١).

(٤) «شرح أصول الاعتقاد» (٦٠/١).

(٥) المصدر السابق (٦٣/١).

□ وكتب عبد الرحمن بن مهدي في وصيته التي أوصى بها أهله وولده: أنظروا ما كان عليه أيوب ويونس وابن عون، واسألوا عن هدي ابن عون فإنكم ستجدون من يُحدِّثكم عنه»^(١).

□ ومنهم حماد بن زيد: قال عبد الرحمن بن مهدي: «لم أرَ أحدًا قطُّ أعلمُ بالسُّنة ولا بالحديث الذي يدخل في السُّنة من حماد بن زيد»^(٢).
أعلام أهل السنة بالأمصار:

□ قال عبد الرحمن بن مهدي: «ابن عون في البصريين إذا رأيت الرجل يحبُّه فاطمأن إليه، وفي الكوفيين: مالك بن مغول. وزايدة بن قدامة إذا رأيت كوفيًّا يحبه فارح خيره، ومن أهل الشام: الأوزاعي وأبو إسحاق الفزاري، ومن أهل الحجاز مالك بن أنس»^(٣).

□ وقال عبد الرحمن بن مهدي: «أئمة الناس في زمانهم أربعة: سفيان الثوري بالكوفة ومالك بالحجاز والأوزاعي بالشام وحماد بن زيد بالبصرة»^(٤).

□ وقال عبد الرحمن بن مهدي: «لم أرَ أعرف بالسُّنة وما يدخل فيها من حماد بن زيد، ولم أرَ أحدًا أوصف لها من شهاب بن خراش، وكان سفيان ينصت له إذا تكلم ولم أرَ أحدًا أبلغ من ابن المبارك»^(٥).

(١) المصدر السابق (٦٢/١).

(٢) المصدر السابق (٦٢/١)، ومقدمة «الجرح والتعديل» (١٧٧/١).

(٣) «شرح أصول الاعتقاد» (٦٢/١).

(٤) «مقدمة الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (٣١/١، ١١٨، ١٧٧).

(٥) «شرح أصول الاعتقاد» (٦٣/١).

□ ومنهم الإمام الأوزاعي: قال عنه عبد الرحمن بن مهدي: ما كان أحدٌ أعلمُ بالسُّنة من الأوزاعي»^(١).

□ قال الأوزاعي: «ندور مع السُّنة حيث دارت»^(٢).

□ ومنهم: أبو إسحاق الفزاري: قال عطاء الخفاف: كنتُ عند الأوزاعي وأراد أن يكتبَ إلى أبي إسحاق، فقال للكاتب: اكتب وابدأ به، فإنه والله خيرٌ مني.

قال الفضيل بن عياض: لربما اشتقتُ إلى المصَيِّصة ما بي فضل الرباط إلا أرى أبا إسحاق»^(٣).

□ ومنهم أبو بكر بن عياش: قال ابن المبارك: «ما رأيت أحدًا أشرح للسُّنة من أبي بكر بن عياش».

قال أبو بكر بن عياش: «السُّنة في الإسلام أعزُّ من الإسلام في سائر الأديان»^(٤).

□ ومنهم ياقوتة العلماء المعافي بن عمران: قال أحمد بن عبد الله بن يونس: امتحن أهل الموصل بمعافي بن عمران، فإن أحبُّوه فهم أهل السُّنة، وإن أبغضوه فهم أهل بدعة، كما يُمتحن أهل الكوفة بيحيى»^(٥).

□ ومنهم يحيى بن سعيد، وعبد الرحمن بن مهدي، وأحمد بن حنبل،

(١) «مقدمة الجرح والتعديل» (١/١٨٤)، و«شرح أصول الاعتقاد» (١/٦٤).

(٢) «شرح أصول الاعتقاد» (١/٦٤).

(٣) المصدر السابق (١/٦٥).

(٤) المصدر السابق (١/٦٦).

(٥) المصدر السابق (١/٦٦).

وإسحاق بن راهوية: قال قتبية: إذا رأيت الرجل يُحِبُّ أهل الحديث مثل يحيى بن سعيد، وعبد الرحمن بن مهدي وأحمد بن محمد بن حنبل، وإسحاق بن راهوية - وذكر قوماً آخرين - فإنه على السنة ومن خالف هؤلاء فاعلم أنه مبتدع^(١).

□ ومنهم: شيخ الإسلام سفيان بن عيينة، والإمام سعيد بن جبير، وشيخ الإسلام عبد الله بن المبارك، وابن أبي ذئب، وفقهاء المدينة السبعة، وشيخ الإسلام البخاري، والإمام أبو حاتم الرازي.

وقد ساق اللالكائي أسماء من وُسم بالإمامة في السنة والدعوة والهداية إلى طريق الاستقامة بعد رسول الله ﷺ إمام الأئمة، في «باب» من كتاب «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة»^(٢).

□ قال اللالكائي: «أما بعد فإن أوجب ما على المرء: معرفة اعتقاد الدين وما كلف الله به عباده من فهم توحيده وصفاته وتصديق رسله بالدلائل واليقين، والتوصل إلى طرقها والاستدلال عليها بالحجج والبراهين. وكان من أعظم مقول وأوضح حجة ومعقول كتاب الله الحق المبين، ثم قول رسول الله ﷺ وصحابته الأخيار المتقين. ثم ما أجمع عليه السلف الصالحون. ثم التمسك بمجموعها والمقام عليها إلى يوم الدين. ثم الاجتناب عن البدع والاستماع إليها مما أحدثها المضلون»^(٣).

□ ثم قال: «ثم إنه لم يزل في كل عصر من الأعصار إمامٌ من سلفٍ أو

(١) المصدر السابق (١/٦٧).

(٢) «شرح أصول الاعتقاد» (١/٢٩ - ٤٩).

(٣) «شرح أصول الاعتقاد» (١/٩).

عالمٌ من خلف قائمٍ لله بحقِّه وناصحٌ لدينه فيها يصرف همَّته إلى جمع «اعتقاد أهل الحديث» على سنن كتاب الله ورسوله وآثار صحابته، ويجتهد في تصنيفه ويُتعب نفسه في تهذيبه رغبةً منه في إحياء سنته وتجديد شريعته وتطرية ذكرهما على أسماع المتمسكين بهما من أهل ملته أو لزجر غالٍ أو مستغرقٍ يدعو إلى ضلالته أو مفتتنٌ بجهالته لِقلة بصيرته»^(١).

إمام أهل السنة وشيخ الإسلام حقاً أحمد بن حنبل في مواجهة أهل البدع المعتزلة في محنة «خلق القرآن»:

□ قال علي بن المديني: «إن الله أعزَّ الإسلام برجلين لا ثالث لهما: أبو بكر يوم الردة، وأحمد بن حنبل يوم المحنة، بل إن أبا بكر كان له أعوان ولم يكن للإمام أحمد أعوان».

ولإمام أهل السنة كتاب فريد هو كتاب «الرد على الزنادقة والجهمية، دافع فيه الإمام عن المنهج السلفي وعقيدة السلف، وأتى بالكلمات المضيفة في نصر عقيدة السلف في الأسماء والصفات، والرؤية، ورد فيه الإمام على المشكِّكين في القرآن.

□ قال الإمام: «وإنا لنرجو أن يكون الجهم وشيعته ممن لا ينظرون إلى الله ويُحجبون عن الله؛ لأن الله قال للكُفار ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين]، فإذا كان الكافر يُحجَّب عن الله، والمؤمن يُحجَّب عن الله فما فضل المؤمن على الكافر؟ والحمد لله الذي لم يجعلنا مثل جهم وشيعته وجعلنا ممن اتبع ولم يجعلنا ممن ابتدع والحمد لله وحده»^(٢).

(١) المصدر السابق (١/٢٦).

(٢) كتاب «الرد على الزنادقة والجهمية» للإمام أحمد بن حنبل، وانظر: «الصفات

محنة خلق القرآن:

«إذا ذُكرت «المحنة» في التاريخ الإسلامي، فإن أول ما ينصرف ذهن المسلم إلى المحنة التي تعرّض لها علماء أهل السنة في بداية القرن الثالث الهجري، وفي عهد الخليفة العباسي المأمون، وينصرف بالتحديد إلى الإمام أحمد بن حنبل كعلم بارز من أعلام أهل السنة، الذين ثبتوا في المحنة عندما أرادت الدولة فرض رأيها بالقوة.

كانت المحنة تدور حول قضية مركزية قوية تتعلق بالعبقيدة التي تبناها الخليفة المأمون وأخذها عن المعتزلة الذين أخذوها عن الجهمية؛ وهي قولهم أن القرآن مخلوق، وأصل هذا القول أن فرقة الجهمية تُعطل صفات الله وتنفيها وهذا يعني نفي صفة الكلام، ونفي أنه سبحانه ما زال متكلمًا حين يشاء، وجاء المعتزلة متأثرين أو مرتكسين تجاه المناقشات مع النصارى والملل الأخرى فقالوا: إن إثبات صفات الله يعني تعدد الآلهة!! وإذا قلنا: إن الكلام قديم، فهذا مثل ما يقول النصارى: إن كلمة الله غير مخلوقة وهي قديمة، وبما أن عيسى عليه السلام كلمة الله فهو قديم، إذن هو إله، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، فالنصارى وقعوا في الغلو والشرك والمتشابهات، وجاءت المعتزلة ووقعوا في المتشابهات وردود الفعل عندما ظنوا أنهم يدافعون عن عقيدة التوحيد أمام النصارى والملل الأخرى، وكان الإمام أحمد -رحمه الله- يقول لهم: إنما كان عيسى عليه السلام بكلمة «كن» ليس هو الكلمة.

وطال أمد المحنة زمن المأمون والمعتصم والواثق لتشمل أكثر علماء

السُّنَّة، بل كل مسؤول في الدولة ووصلت إلى أسرى المسلمين، فكان الأسير يُسأل عن حَلْق القرآن فإنَّ أجاب افتدي وإلا فلا!!

المأمون والقول بخلق القرآن:

جاء في أحداث ٢١٢هـ: «وفيها أظهر المأمون القول بخلق القرآن، وتفضيل علي بن أبي طالب، وقال: هو أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ^(١)، وكان المأمون يتخوف من إظهار هذه البدعة، قال ابن الجوزي: وكان يتردد ويراقب بقايا الشيوخ، ثم قوي عزمه وامتنح الناس^(٢)، وروى قاضي المأمون يحيى بن أكثم أن المأمون قال له: لولا مكان يزيد بن هارون لأظهرت أن القرآن مخلوق»^(٣).

وقد همَّ المأمون أيضًا أن ينادي في الناس ببراءة الذمة ممن ترحم على معاوية أو ذكره بخير^(٤) وكان الذي ثناه عن هذا العمل القاضي يحيى بن أكثم وقال له: بأن العامة لا تحتمل هذا، وهو الذي ثناه أيضًا عن أباحة متعة النساء، وذكر له حديث علي عليه السلام في تحريمها، فتراجع المأمون وأمر بتحريمها، ولهذا قال أبو إسحاق الأزدي القاضي وقد ذكر يحيى بن أكثم: «كان له يوم في الإسلام لم يكن لأحد مثله»^(٥).

هذه هي بدايات نضوج الفكرة عند المأمون، وكان المأمون قارئًا لعلوم

(١) «تاريخ الطبري» (٨/٦١٩)، و«سير أعلام النبلاء» (١٠/٢٨٦).

(٢) «السير» (١١/٢٣٧).

(٣) المصدر السابق (١١/٢٣٧).

(٤) «السير» (١٠/٢٨١).

(٥) «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٦/١٥١).

الأوائل «الفلسفة» وأمر بتعريب كتبهم»^(١).

«ابتليَ المأمون ببدعتين لم يُبتَلْ أحدٌ من أجداده بهما وهما: التشيُّع والاعتزال، فقد همَّ بسبِّ معاوية على المنابر فمنعه القاضي يحيى بن أكثم، وبايع لعلي الرضا وحضر البيعة بعض رؤساء المعتزلة، وهو معجب بشخصيات المعتزلة^(٢)، وكان من ندمائه ثمامة بن أشرس، قال له مرّة: «يا ثمامة قد علمت ما كنا دبّرناه في معاوية، وقد عارضنا رأي أصلح في تدبير المملكة»^(٣)، وكان المأمون معجبًا بالعلّاف وأحمد بن أبي دوّاد وبشر المريسي الذي أكثر القول في مسألة «خلق القرآن»^(٤).

بطانة السوء حول المأمون من كبار المبتدعة المعتزلة:

□ ومن بطانة السوء حول المأمون ومُحرّضي الفتنة من المعتزلة والجهمية بشر المريسي، وثمامة بن أشرس النميري البصري، وأحمد بن أبي دوّاد، وبرغوث.

ومن المداهنين للدولة المحرّضين على أهل السُنّة الجاحظ.

«أما بشر المريسي فهو الذي جرّد القول بخلق القرآن وكان مُرجئًا، أبوه يهودي يعمل صباغًا في الكوفة، وكان يقول: السجود للشمس والقمر ليس بكُفر، ولكنه علامة الكفر»^(٥).

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٠/٢٧٣).

(٢) «محنة الإمامين أحمد بن حنبل وأحمد بن تيمية» للدكتور محمد العبدية (ص ٤٩) - طبع دار الصفاة.

(٣) «الأخبار الموقفيات» (ص ٤١) للزبير بن بكار.

(٤) «.

(٥) «سير أعلام النبلاء» (١٠/٢٧٧).

- قال المروزي: «سمعت أبا عبد الله -الإمام أحمد- وذكر المريسي فقال: كان أبوه يهودياً، أي شيء تراه يكون»^(١).
- وقال أبو يوسف القاضي لبشر: «يا بشر، إمّا أن تتوب أو تُفسد علينا خشبة».
- وكان ثامة بن أشرس النميري البصري خصيصاً بالمأمون، يستشيريه في المسائل السياسية، وكان ظريفاً نديماً صاحب مُلح، فهو يستخدم الهزل للوصول إلى قلب المأمون»^(٢).
- وأمّا أحمد بن أبي دؤاد فهو الذي أعلن بمذهب الجهمية، وحمل السلطان على الامتحان بخلق القرآن، وهو الذي كان يقول للمعتصم بشأن الإمام أحمد: «ليس من التدبير تخليته هكذا يا أمير المؤمنين، هذا يناوى خليفتين، هذا هلاك العامة»^(٣).
- وكان «برغوث» من الجهمية يقول للمعتصم: «يا أمير المؤمنين كافر حلال الدم، اضرب عنقه يعني الإمام أحمد»^(٤).
- والجاحظ يستخدم الأدب للترويج لعقائد المعتزلة، وكان يتوسّل لإرضاء العباسيين بالسباب الدائم للعامة ومعاقبة.
- ويقول عن عام الجماعة (٤٠هـ): «بل كان عام فُرقة وقهر وجبرية»^(٥).

(١) «السير» (١٠/١٩٩).

(٢) «محنة الإمامين أحمد بن حنبل وأحمد بن تيمية» (ص ٥٢).

(٣) المصدر السابق (ص ٥٢ - ٥٣).

(٤) المصدر السابق (٥٣).

(٥) المصدر السابق (٥٣).

ويقول عن معاوية رضي الله عنه: «وقد أربت عليهم «معاصري معاوية» نابتة عصرنا ومبتدعة دهرنا، فقالت: لا تسبَّوه فإن له صحبة..»^(١).

□ ولابتداع المأمون واعتزاله كان حانقًا على علماء أهل السنة والجماعة، ويحاول أن يحطَّ من مكانتهم فيقول عنهم أنهم: «أهل السَّمْت الكاذب والتخشُّع لغير الله».

وفي رسالة له إلى واليه على بغداد إسحاق بن إبراهيم الخزاعي يوجه اتهاماته للعلماء: «فأمَّا ما قال المغرور بشر بن الوليد فقد كذب وكفر..»، وأما الذِّيَال بن الهيثم فاتَّهمه بسرقة أموال الأنبار، «وأما المعروف بأبي نصر التَّمَّار، فإن أمير المؤمنين شبَّه حساسة عقله بخسارة متجره» «وأما محمد بن حاتم وابن نوح فأعلمهم أنهم مشاغيل بأكل الرِّبَا..» وهكذا يمضي المأمون في اتهامهم فردًا فردًا، فيعمد للتشهير بعلماء أهل السنة بين العامة؛ لأنهم تيار سني مخالف للتشيع والاعتزال^(٢).

بداية المحنة:

في سنة ٢١٨هـ حين كتب المأمون وهو في الرِّقَّة من بلاد الشام إلى واليه على بغداد إسحاق بن إبراهيم الخزاعي: «.. وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة ممن لا نظر له ولا روية أهل جهالة بالله!! وعمى عنه وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده!!؛ وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى وبين ما أنزل من القرآن وأطبقوا على أنه قديم لم يخلقه ويحدثه ويخترعه وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا

(١) «رسالة في النابتة» (٢/١٠)، و«محنة الإمامين» (ص ٥٣).

(٢) انظر: «محنة الإمامين» (ص ٥٠).

جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ ﴿﴾ [الزخرف: ١] فكل ما جعله فقد خلقه، ثم هم الذين جادلوا بالباطل، ونسبوا أنفسهم إلى السُّنَّة ثم أظهروا أنهم أهل الحق والدين والجماعة فاستطالوا بذلك على الناس، وغرُّوا به الجهَّال، حتى مال قومٌ من أهل السَّمْت الكاذب والتخشُّع لغير الله إلى موافقتهم، فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة، وأحقُّ من يَتَّبِعُهُمْ في صدقة ولا يوثق بعلمه، فاجمع مَنْ بحضرتك من القضاة واقراً عليهم كتاب أمير المؤمنين، وابدأ بامتحانهم عمَّا يعتقدون في خلق القرآن، وأَعْلِمُهُمْ أَنِّي غَيْرُ مستعين بمن لا يُوثقُ بدينه..»^(١).

ولم يكتف المأمون برسالته الأولى بل شفعها برسالة ثانية وفيها يطلب من إسحاق بن إبراهيم أن يشخص إليه علماء سَمَاهُمْ. فأشخصوا إليه وامتحانهم فأجابوا بأن القرآن مخلوق خوفاً من السيف ويرسل برسالة ثالثة، وكأنه في عجلة من أمره يريد أن يُفْضِي بِكُلِّ ما في جعبته، ويحمل الناس على عقيدته المبتدعة فيقول عن مخالفه من أهل السنة: «وضاهوا به قول النصارى في ادعائهم في عيسى أنه ليس بمخلوق، إذ كان كلمة الله، وقد عظم هؤلاء الجهلة بقولهم في القرآن الثلم في دينهم، وسهَّلوا السبيل لعدو الإسلام»^(٢).

بعد هذا الكتاب أحضر إسحاق بن إبراهيم جماعة من الفقهاء والقضاة والمحدثين منهم: أبو حسان الزيادي، وبشر بن الوليد القاضي، وعلي بن أبي مقاتل، والفضل بن غانم، والذَّيَّال بن الهيثم، وسجادة

(١) «تاريخ الطبري» (٨/٦٣١).

(٢) المصدر السابق (٨/٦٣٥).

والقواريري، وأحمد بن حنبل ومحمد بن نوح.. وغيرهم، فقرأ عليهم كتاب المأمون مرّتين، فتلكأ بعضهم، وأجاب بعضهم صراحة أن القرآن كلام الله غير مخلوق، ثم أعاد عليهم الامتحان مرّة ثانية فأجاب القوم إلّا أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح فشُدّا في القيود، وأرسلوا إلى طرسوس، فلما بلغا الرّقة تلقّاهم خبر وفاة المأمون حيث تُوفيّ في قرية من قرى الثغور مع الروم، ودُفِنَ في طرسوس^(١)، فرُدُّوا إلى بغداد، وتُوفيّ محمد بن نوح في الطريق، وأدخِل الإمام أحمد في حبس والعامّة استمرّت المحنة زمن المعتصم محمد ابن هارون الرشيد، بل زادت وتأجّجت، وحمل أحمد بن حنبل إلى دار المعتصم، فناظروه وكلمّوه وهو يردُّ عليهم، وكأنّ المعتصم يريد أي إقرار منه ليطلقه، ولكن أحمد بن أبي دؤاد القاضي والشخصية الأولى عند المعتصم كان يؤرّزه على متابعة المحنة، وحتى لا يُقال إنّ عالمًا غلب الدولة، ويقول للمعتصم عن أحمد بن حنبل: هو والله ضالُّ مبتدع، وضرب الإمام ضربًا شديدًا حتى أُغمى عليه مرّات، وأحد المنافيين من حاشية المعتصم (ابن سماعة) يقول: «يا أمير المؤمنين اضرب عنقه ودمه في رقبتى»، فقال ابن أبي دؤاد: لا تفعل فإن قُتِل في دارك قال الناس: صبر حتى قُتِل فأتخذوه إمامًا»^(٢).

ومكث الإمام أحمد في السجن وهو الشيخ الطاعن في السنّ ثمانية وعشرين شهرًا، ثم حُلّي عنه ورجع إلى الحديث والإفتاء وحضور الجمعية والجماعة، حتى مات المعتصم وتولّى الواثق، فأمر بأن لا يجتمع عند أحمد

(١) بلدة شمال أنطاكية، أي ضمن حدود تركيا الآن.

(٢) «تاريخ الطبري».

أحدٌ، ولا يساكنه في بلده فاخفى الإمام حتى هلك الواثق، وانتهت المحنة بمجيء المتوكل الذي أعاد لأهل السنة اعتبارهم.

يا سبحان الله أحمد بن أبي دؤاد يناظر الإمام أحمد فيُفحمه الإمام، فيحرّض عليه المعتصم، ويضرب الإمام ثمانين سوطاً...!! لولا سياط على ظهر ابن حنبل الشيخ الطاعن في السن ما صار «إمام أهل السنة».

نصر أهل السنة على يد المتوكل :

لما تولى المتوكل الخلافة عام ٢٣٢هـ أظهر الانتصار للسنة فأمر «بالمنع من الكلام في مسألة الكلام، والكف عن القول بخلق القرآن، وأن من تعلم علم الكلام لو تكلم فيه فالمطبّق مأواه إلى أن يموت. وأمر الناس أن لا يشتغل أحد إلا بالكتاب والسنة لا غير»^(١)، كما أمر بإكرام الإمام أحمد ابن حنبل إكراماً عظيماً^(٢)، وقتل محمد بن عبد الملك الزيات الذي سعى في قتل أحمد بن نصر ومحنة الإمام أحمد، وأمر بدفن جثمان أحمد بن نصر - الذي كان ما زال مُعلّقاً مصلوباً منذ قتله الواثق.

وهكذا انتهت تلك السنوات التي استطال فيها المعتزلة وسيطروا على السلطة، وحاولوا فرض عقائدهم بالقوة والإرهاب خلال أربعة عشر عاماً كاملة»^(٣).

□ لله در أحمد بن حنبل من إمام كتب الله على يديه نصر أهل السنة،

(١) «البداية والنهاية» (١٠/٣١٣).

(٢) المصدر السابق (١٠/٣٣٨).

(٣) «المعتزلة بين القديم والحديث» (ص ١٢٥) لمحمد العبد وطارق عبد الحليم - دار ابن حزم.

وقمع أهل الكلام الذين قال فيهم الإمام أحمد: «لا تُجالسوا أهل الكلام وإن ذُّبوا عن السُّنة»^(١).

كـ فليس الأمر النتائج فقط، بل الوسائل معتبرة والسُنن. فله ما أحلاه من منهجٍ قويم.. ليست العبرة بالنتائج.. بل الطرق المؤدية إلى هذه النتائج أيضًا.

دفاع البخاري عن عقيدة السلف:

كـ ألف أمير المؤمنين في الحديث الإمام البخاري كتابه القيم «خَلْقُ أفعال العباد» تحدّث فيه عن القرآن الكريم، وردّ فيه ما زعمت المعتزلة من أن القرآن مخلوق بأسلوب يُشبهه جدًّا أسلوب شيخه أحمد بن حنبل في ردّه على الزنادقة والجهميّة.

□ وقد قال البخاري في هذا الكتاب: «نظرت في كلام اليهود والنصارى والمجوس فما رأيت أضلّ في كفرهم منهم، وإني لأستجهل من لا يكفرهم إلّا مَنْ لا يَعْرِفُ كفرهم».

دفاع الإمام الدارمي عن عقيدة السلف وردّه على الجهمية والمعتزلة:

الإمام عثمان بن سعيد الدارمي الفقيه المحدث المعروف، أخذ الحديث عن يحيى بن معين وعلي بن المديني ألف الدارمي كتابًا في «الرد على الجهمية» وصفه بعض أهل العلم بأنه من أقوى ما كُتب في هذا الباب أسلوبًا ومن أمتنها حُجّة. ويكفي فخرًا لهذا الإمام أن الإمام ابن تيمية كان يوصي بقراءة كتابين من كتبه، وهما: «كتاب الرد على الجهمية»

(١) «الصفات الإلهية» لمحمد بن أمان الجامي (ص ١٠١).

وكتاب النقض على بشر المريسي»، ويصفهما بأنهما من أجل الكتب المصنفة في السُّنة، وأنفعها لكل طالب سُنَّة مراده الوقوف على ما يكون عليه الصحابة والتابعون. كما أثنى عليهما الإمام ابن القيم بمثل ثناء شيخه ابن تيمية، وفي الكتابين المذكورين تقرير التوحيد والأسماء والصفات بالعقل والنقل ما ليس في غيرهما^(١).

□ وفي رده على بشر المريسي: «كان منهج الدارمي في عرض الصفات وسوقها منهجاً سلفياً واضحاً، إذ يُفصّل في الإثبات مع الإجمال في النفي على طريقة القرآن الكريم فمثلاً يقول: «يتكلم، ويرضى، ويسخط، ويغضب، ويحبُّ، ويبغض ويكره، ويضحك، ويأمر وينهى، ذو الوجه الكريم، والسمع السميع، والبصر البصير، والكلام المبين، واليدين.. إلخ» ثم قال -بعد أن ساق مجموعة من الصفات-: «فبهذا الرب نُؤمن، وإياه نعبُد، وله نصلي ونسجدُ، فمن قصد بعبادته إلى إله بخلاف هذه الصِّفات، فإنها يعبدُ غير الله، وليس معبوده بإله (كفرانه لا غفرانه)»^(٢).

نصر شيخ الإسلام ابن تيمية لمذهب السلف واعتقادهم:

□ قال الشيخ عماد الدين الواسطي عن شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن الله قد رَحِم هذه الأمة بإقامة رجلٍ قويِّ الهمة، ضعيف التركيب، قد فرَّق نفسه وهمة في مصالح العالم وإصلاح فسادهم، والقيام بمهماتهم، وحوادثهم، ضمن ما هو قائم بصدِّ البدع والضلالات وتحصيل مواد العلم النبوي الذي يصلح به فساد العالم ويردُّهم إلى الدين الأوَّل العتيق

(١) «اجتماع الجيوش الإسلامية» لابن القيم (ص ١١٠).

(٢) «الرد على المريسي ضمن عقائد السلف» (ص ٤٧) تحقيق نشار وعمار.

جَهْدُ إِمكانه»^(١).

برز ابن تيمية نجمًا في سماء عقيدة السلف داعيًا إلى تصحيح العقيدة، ومحاربة البدع وأنواع الشرك المنتشرة في عوام المسلمين، ونقد علم الكلام، وبين عوارزه، وكشف عن شطحات المتصوفة، وإلحاد وحدة الوجود، ودعا إلى التحاكم إلى الكتاب والسنة وتعظيم هدي الرسول ﷺ، ولألا يقدم قول أحدٍ على سُنَّته.

□ وقد امتحن الشيخ بسبب دعوته الصريحة والقوية، فأُوذِيَ حتى سُجِنَ بقلعة القاهرة والإسكندرية، وقلعة دمشق مرتين، وأخيرًا تُوِّيَّ بها في ٢٠ من شهر ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمئة (٧٢٨هـ).

□ كان ابن تيمية شديدًا في نقض الفلاسفة، وقد بدد أوهامهم، وحاربهم، وسفّه آراءهم وكانوا يخضعون لأرسطو وأفلاطون، ويقولون بقديم العالم.

□ وحارب متصوفة متأثرة بالفلاسفة أو هم أبناءهم بل هم هم.. كابن عربي وابن سبعين والعفيف التلمساني، والصدر القونوي.

□ وحارب جهمية جرئية يعطلون صفات الله الثابتة بالكتاب والسنة، وإليهم وجه جل اهتمامه.

□ وردّ على الأشاعرة الذين كانوا يزعمون التوفيق بين المعتزلة، وبين منهج السلف، ولكنهم لم يفلحوا.

□ وردّ على دجل الشيعة الرافضة وردّ على دجاجلتهم في كتابه القيم

(١) «العقود الدرّية» (ص ٣١٩).

«منهاج السنّة النبوية» وبين عوارهم وكذبهم وأنهم أخبث الطوائف المنسبة إلى الإسلام.

□ وردّ على الباطنية، وحارب التتار تحت راية الخلافة.

□ ورفض - رحمه الله - التأويل والمصطلحات الكلامية والفلسفية ومحاولة إخضاعها للمعاني التي جاء بها الكتاب والسنة، ودعا شيخ الإسلام دائماً إلى التعبير عن حقائق الإيمان بعبارات إسلامية بدلاً من تلك الألفاظ المحدثة، والتي فيها إجمال واشتباه محيّر.

□ ونقض المنطق وهدمه واستبعده.

□ قال الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ت ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م): «ما زلنا نلمح وراء كلّ داجية في تاريخ الإسلام نجماً مشرقاً يشرق، ونسمع بعد كل خفتة فيه صوتاً يُشرق، من عالم يعيش شاهداً ويموت شهيداً، ويترك بعده ما تركه الشمس من شفقٍ يهدي السارين المدلجين إلى حين.. وما علمنا فيمن قرأنا أخبارهم، وتقفينا آثارهم من علماء الإسلام، مثلاً شروداً في شجاعة النزال بعد الحافظ الربيع بن سالم، عالم الأندلس.. ولا علمنا فيهم مثلاً في شجاعة الرأي العام أكمل من الإمام أحمد بن تيمية.. فقد سنّها حرباً شعواء على البدع والضلالات أقوى ما كانت رؤسوخاً وشموخاً، وأكثر أتباعاً وشيوخاً يُظهرها الولاية القاسطون، ويؤازرها العلماء المتساهلون المتأولون»^(١).

□ يقول الأستاذ المودودي مرجحاً كفة شيخ الإسلام ابن تيمية في

(١) «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي» (١١٣/٤) جمعها الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي - طبعة بيروت سنة ١٩٩٧ م.

تجديده على كَفِّه حجة الإسلام الغزالي فكتب يقول:

«لقد تخلَّلت عمل الغزالي التجديدي - مع عظمتها التي أكسبته صفة «حُجَّة الإسلام» - نقائصٌ من الجهة العلمية والفكرية «تقسم على ثلاثة أنواع:

نوع منها: كان مأتاه ضعف الإمام في علم الحديث.

والنوع الثاني: كان منشؤه استيلاء العلوم العقلية على ذِهْنِه.

والنوع الثالث: وقع في أعماله لميلانه المتطرّف إلى التصفوّف.

ثم تكلم عن مشروع ابن تيمية لتجديد الدين وأحيائه، فرآه: «قد وُفِّق في توسيع دائرة العمل الذي تركه الإمام الغزالي بوجه أحسن وأتم.. فهو أولاً: انتقد المنطق والفلسفة اليونانية انتقاداً أشدّ وأدقّ مما فعله الإمام الغزالي.

ثانياً: أقام من الأدلة والبراهين على استقامة عقائد الإسلام وأحكامه وقوانينه ما كان يفوق أدلة الإمام الغزالي سوغائاً في العقل، وأحوى منها لروح الإسلام.

وثالثاً: لم يجتزئ برفع النكير على التقليد الجامد فحسب، بل ضَرَب المثل بمزاولة الاجتهاد على طريقة المجتهدين من القرون الأولى.

رابعاً: جاهد البدع وتقاليد الشرك وضلال العقائد والأخلاق جهاداً قوياً عنيفاً، ولاقى في سبيل ذلك أعظم المصائب. ومضافاً إلى هذا العمل التجديدي، جاهد بالسيف همجية التتار ووحشيتهم»^(١).

(١) «موجز تاريخ إحياء الدين وتجديده» لأبي الأعلى المودودي (ص ٧٣، ٧٦ -

٧٩) ترجمة: محمد كاظم سباق - طبعة بيروت. انظر مقدمة ابن تيمية -

رحم الله ابن تيمية الذي هزّ النفوس الجامدة، وحرك العقول الراكدة، وترك دويماً ملاً سمع الزمان، وسيكون له شأن أي شأن.

□ كان - رحمه الله - كأنه منذر جيش، وقد سأله أحد تلامذته أن يؤلف في الفقه، فقال: «الفقه أمره يسير، ولكن لما رأيت اضطراب الناس في العقيدة، أحببت توضيح منهج السلف في ذلك»^(١).

و قد أحسن وأجاد وأفاد فجزاه الله عن عقيدة السلف أحسن الجزاء.

عود على بدء نختم بذكر فضائل لـ «لا إله إلا الله» لم نذكرها من قبل^(٢) اقتطفناها من بستان شيخنا المقدم وأزاهيره:

مثلها بدأنا بفضل التوحيد ولا إله إلا الله نختم فصلنا ببعض الفضائل التي لم يرد ذكرها في البداية.
ومن هذه الفضائل:

أن الله تبارك وتعالى أمرنا بطاعات كثيرة أمرنا بالصلاة وبالصيام وبالْحج وبالزكاة إلى آخر هذه الطاعات، ويستحيل أن يوافقك الله تبارك وتعالى في شيء من هذه الطاعات، أنت تصلي لكن الله مستحيل أن يفعل ذلك، أنت تصوم تزكي تحج لكن الله؛ لأنه هو المعبود الغني عن عباده

والآخر لعائض بن سعد الدوسري - تقديم د. محمد عمارة (ص ٢٢ - ٢٨) -
مكتبة الإمام البخاري.

(١) «محنة الإمامين» (ص ٥٨ - ٥٩).

(٢) هذه الفضائل من تفریغات أشرطة «مسائل الكفر والإيمان» لشيخنا فضيلة الشيخ المقدم باختصار وتصرف، ومن كلام الفخر الرازي وابن القيم.

يستحيل أن يوافقنا في شيءٍ من هذه العبادات، لكن الله أيضًا أمرنا أن نقول لا إله إلا الله، ثم إنه وافقنا فيها، فهي العبادة أو الذكر الذي يوافقنا الله تبارك وتعالى فيه، فالله يوافقنا في الشهادة بنفسه بأن لا إله إلا الله كما نشهد نحن له بها تبارك وتعالى، يقول **وَعَلَّامٌ**: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران]. فكررهما في أول الكلام وفي آخره ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران]. كررها ليوظب العبد على تكرارها طوال عمره.

• قال **وَعَلَّامٌ**: «أكثرُوا من شهادة أن لا إله إلا الله قبل أن يُجَال بينكم وبينها ولقنوها موتاكم»؛ فلذلك نُندب إلى الإكثار من شهادة أن لا إله إلا الله، لا تزهد في هذا الثواب العظيم كلما سهّلت على لسانك كلما سهّلت عليك عند الموت حتى تُوفق إلى أن تحتَم حياتك بلا إله إلا الله.

* أيضًا هذه الشهادة العظيمة شهادة أن لا إله إلا الله تدمج أو تمزج المؤمن بأنواع من القرابة المطهرة بأشرف نسب في هذه الدنيا فلا إله إلا الله هي نسبة ينتسب الإنسان بها إلى عائلة محددة أو إلى طائفة من أكرم الخلق على الله تبارك وتعالى فأنت إذا قلت: لا إله إلا الله أصبح أبوك إبراهيم **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، والدليل قوله تبارك وتعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]، فلا إله إلا الله تمنحك ويعني تجد بها أبوة إبراهيم **عَلَيْهِ السَّلَامُ** ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ وتجعل أزواج النبي **وَعَلَّامٌ** أمهاتك ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] فتدخل أنت أيضًا في من كانت عائشة وحفصة وسودة وغيرها من أمهات المؤمنين أمهات له؛ لأنك أصبحت من المؤمنين وبالتالي فإن أزواج النبي **وَعَلَّامٌ** أمهات لك.

* أيضاً هذه الكلمة تمنحك أخوة المؤمنين، يقول تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠].

* أيضاً تعطيك استغفار أو تدخلك تحت استغفار النبي ﷺ الذي أمره الله به في قوله: ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيَاكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد: ١٩].

* وأيضاً تعطيك هذه الكلمة استغفار الملائكة تسبب لك استغفار الملائكة كما قال تبارك وتعالى: ﴿ وَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ [غافر].

• وأيضاً تعطيك شفاععة رسول الله محمد ﷺ كما جاء في قوله: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي».

□ أيضاً تصبح أنت مؤمناً يعني تنال هذا الشرف، وكل ما يترتب على هذا الوصف العظيم الذي تحوزه بنطقك بكلمة التوحيد.

□ طبعاً كلمة التوحيد لعظم معانيها تعددت أساميها، وتكلم العلماء في ذلك كلاماً كثيراً نحاول أن نجمله، فأول أسماء هذه الكلمة «كلمة التوحيد»؛ لأنها تدل على نفي الشرك على الإطلاق، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [البقرة: ١٦٣]. فأفاد قوله: لا إله إلا الله، هو التوحيد العام الكامل.

□ أيضاً تسمى «كلمة الإخلاص»؛ لأن الأصل في هذه الكلمة عمل القلب وهو كون الإنسان عارفاً بقلبه وحادية الله تبارك وتعالى.

□ وهي: «كلمة الإحسان» يقول تعالى: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا

أَلِإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾ [الرحمن]، يعني: هل جزاء الإيمان إلا الإحسان، وقوله: لا إله إلا الله يدل على اعترافه بأن كل ما سواه عبده ومربوبه، وقال **عَبَّادٌ**: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، اتفق المفسرون على أن المراد من قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ يعني: قالوا: لا إله إلا الله بقلوبهم أولاً بالتصديق بالقلب، ثم النطق باللسان، والعمل بالأركان فهو لاء هم الذين أحسنوا، فاتفق المفسرون على تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ للذين أحسنوا يعني: قالوا: لا إله إلا الله والدليل أيضًا أنه لو قالها ومات ولم يتفرغ لعمل آخر دخل الجنة، تكلمنا من قبل في معنى الإحسان كما ذكرنا «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، لو قال رجل: لا إله إلا الله، ثم مات كذلك الرجل الذي أتى من بادية بعيدة، فلما اقترب ظل يتفرس في القوم، ويسأل فاستقبله النبي عليه الصلاة والسلام، وقال: «من تريد؟» قال: أريد محمدًا رسول الله عليه الصلاة والسلام، فقال: «قد استقبلته»، يعني: هو الذي يكلمك، فسأله عن الإسلام، وكيف أصير مسلمًا، فأخبره بأن يفعل كذا وكذا وأن يشهد أن لا إله إلا الله فشهد بشهادة التوحيد، وقال كلمة الإحسان، ثم في لحظات وهو يمشي ببعيره بجمله بعدها قال: لا إله إلا الله وقع عثرت رجل البعير في حجر جردان -تجويف تصنعه الفئران بجحورها- لكن هذا كان تجويفًا كبيرًا في الأرض، فعثرت الدابة فوق الرجل على أم رأسه ومات في الحال فاجتمع عليه الصحابة فوجدوه قد مات، فتولى الصحابة **عليه** بأمر النبي **ﷺ** غسله وتكفينه ودفنه، وقال ما معناه: «هذا الرجل عمل قليلًا وأجر كثيرًا»، هذا رواه أحمد في «مسنده»، وفي نفس هذا المعنى أحاديث أخرى أيضًا من أهمها هو في البخاري، كذلك الرجل الذي أتى

وشهد شهادة التوحيد، ثم خرج في الجهاد فوراً فقتل شهيداً فدخل الجنة فبين النبي ﷺ أن هذا الرجل عمل قليلاً وأجر كثيراً، فمن قال هذه الكلمة ومات ولم يتفرغ لعمل آخر دخل الجنة، ودخل تحت قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ - الذين قالوا: لا إله إلا الله - ﴿الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾.

* وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت]. اتفقوا على أنها في فضيلة الأذان، هذه الآية ليست كما ينطبق إلى أذهاننا أنها فقط في الدعوة إلى الله لكن أساساً تدخل في يدخل فيها المؤذن، وقال عليه الصلاة والسلام: «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة»، هذه الآية في المؤذنين أيضاً: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ يعني: لا أحد أحسن قولاً ﴿مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ بالأذان ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [٣٣] وما هذه الفضيلة العظيمة إلا لاشتغال الأذان على لا إله إلا الله.

* وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١]، فكما أنه لا قبيح أقبح من كلمة الكفر فكذلك لا حسن أحسن من كلمة التوحيد، يقول تبارك وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [١] ﴿المؤمنون﴾، وقال: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [١١٧] في أول السورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [١]، وفي آخرها قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [١١٧] فالمؤمنون الذين قالوا: لا إله إلا الله يفلحون ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [١] ، أما الكافرون الذين استكبروا عنها ختمت السورة بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [١١٧].

* وقال تبارك وتعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [١٧] الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ [الزمر]. ولا شك أن أحسن القول هو لا إله إلا الله فهي كلمة

التوحيد كلمة الإخلاص كلمة الإحسان.

* وهي أيضًا «دعوة الحق»، يقول تبارك وتعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾

[الرعد: ١٤].

□ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هو قول: لا إله إلا الله، وقوله: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ يفيد الحصر، أي: له هذه الدعوة لا لغيره، يعني: لا يقال في حق أحد غير الله: لا إله إلا الله، فهذا معنى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ مبتدأ وخبر، دعوة الحق له، هذا الأسلوب يفيد الحصر، أن هذه الكلمة التي هي دعوة الحق ليست لأحد إلا لله؛ فلذلك قال ابن عباس في تفسيرها: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ أي: لا يقال: لا إله إلا الله إلا في حق الله تبارك وتعالى.

* هي أيضًا «كلمة العدل» التي قال الله تبارك وتعالى فيها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠].

□ قال ابن عباس رضي الله عنهما العدل شهادة أن لا إله إلا الله، والإحسان الإخلاص فيها.

* هي أيضًا «الطيب من القول» و«ال» هنا كما في قوله وَجَاءَ: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الحج: ٢٦]. هي ليست كما يقولون بجهودكم أو بأنسابكم أو بأموالكم ولا بأعراضكم ولا بعرض الدنيا، وإنما هي منة من الله ليست بجهدك وشطارتك كما يقولون هي منة من الله أن جعلك من أهل لا إله إلا الله فهي هداية كما تكلمنا من قبل على الهداية ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ (٢٤) ﴿﴾، فانظر كيف قال وَجَاءَ وكيف عبر عن الطيب من القول، كيف عبر عن لا إله إلا الله، بماذا؟ بالطيب من القول وأل هنا للاستغراق، ما معنى تفيد الاستغراق؟ يعني:

ممكن أن نستبدلها بكلمة «كل» ممكن أن تستبدل حتى تصيب هذا المعنى
تستبدل الألف واللام بكلمة كل يعني: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾
أي: هدوا إلى كل الطيب من القول يعني: كل طيب من الكلام ليس إلا
ذلك المشار إليه، كل طيب من الكلام ليس إلا الذي هدوا إليه وهو كلمة
لا إله إلا الله ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ فلا أطيّب ولا أظهر من
هذه الكلمة، ولذلك دائماً الطيب، عكس الطيب ايه؟ الخبيث، فتجد
المشركين لما استكبروا عن التوحيد وصفهم الله بالخبيث فقال تبارك
وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨] نجس: خبيث ﴿إِنَّمَا
الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ ووصف أهل التوحيد بماذا؟ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (١)
[الشمس] زكاها طهرها، طهر قلبه بماذا؟ بلا إله إلا الله، ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ
(٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت] على أحد التفسيرات لا يؤتون
الزكاة، يعني: ايه لا يؤتون الزكاة؟ يعني: لا يقولون: لا إله إلا الله، لا
يزكون نفوسهم بالتوحيد، ولذلك المشرك مهما نظف نفسه فهو من أخبث
خلق الله؛ لأن قلبه نجس فهو استكبر عن أن يؤمن بلا إله إلا الله، وأن
يقول: لا إله إلا الله فهو نجس خبيث كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ
نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨] فالنجاسة
الحاصلة بسبب كفر، لو واحد عايش سبعين سنة وهو يشرك بالله أحسن
وأخبث أنواع الشرك والكفر والعياذ بالله، ثم قال هذه الكلمة مرة واحدة
تزول بهذه الكلمة الطاهرة الطيبة نجاسة سبعين سنة من الكفر فتطهره
تماماً من نجاسة هذا العمر الطويل الذي قضاه في الإشراك بأن يقول: لا
إله إلا الله مرة واحدة يطيب، فانظر وتخيّل مثل هذا الخبيث الذي يبقى
عليه الإنسان سبعين سنة يزول بكلمة يقولها، نعم يزول بلا إله إلا الله،

لماذا؟ لأنها أطيب ما يقال على الإطلاق وأطهر.

□ أيضًا كما أنها هي كل الطيب ولا أطيب منها من القول كذلك سماها الله تبارك وتعالى «الكلمة الطيبة» وهناك حكمة من تسمية لا إله إلا الله بهذا الاسم الشريف «الكلمة الطيبة» الطيبة أو يعني حكمة هذه التسمية الطيبة يعني: هي الكلمة الطاهرة عن التشبيه، والتعطيل، كما أن اللبن خارج من بين الفرث والدم وهو مبرأ عنهما، كلمة بريئة من الشرك ومن التشبيه ومن التعطيل كلمة لا إله إلا الله فكما يخرج اللبن خالصًا من بين فرث ودم كذلك تخرج كلمة التوحيد خالصة من بين فرث التشبيه ودم التعطيل، أيضًا صاحبها يكون بها طيب الاسم في الدنيا، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ ، أي: المؤمنون للمؤمنات: ﴿الْخَيْثَاتُ لِلْخَيْثِينَ وَالْخَيْثُونَ لِلْخَيْثَاتِ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [النور: ٢٦] على بعض التفاسير الطيبات للطيبين يعني المؤمنات للمؤمنين أو المؤمنون للمؤمنات واضح، لكن هناك تفسير أشهر لعله أشهر وهو الطيبات من الصفات للطيبين من الناس، على أي الأحوال أيضًا مما يفيد أن صاحبها يكون طيب الاسم في الدنيا هذه الآية على هذا التفسير ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ وفي الآخرة أيضًا تفيد أن يسكن في مساكن طيبة أيضًا ﴿وَمَسْكَنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّةٍ عَدْنٍ﴾ [التوبة: ٧٢] طيبة بمعنى مقبولة، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] فما يصعد إليه من الكلم الطيب يقبله، وما لا فلا يصعد.

ويقول ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا»، فمعنى أنها تصعد ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ ﴿فَمَا أَنَّهُ كَلِمُ طَيِّبٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ الْكَلِمَ الطَّيِّبَ، لِمَاذَا؟ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»، أَيْضًا كَلِمَةً

طيبة أو هي الكلمة الطيبة، وقد شبهها الله تبارك وتعالى أيضاً بالشجرة الطيبة، قال المفسرون هي النخلة، النخلة هي أقرب مثل للعبد المؤمن، المؤمن ينفع الناس وغيره ونفسه على كل الأحوال لذلك أقرب ما يكون مثلاً منه هو النخلة، فالنخلة لا يرمى منها شيء ما من شيء في النخل إلا ويستفاد منه، فما هي أوجه الشبه بين المؤمن وبين النخلة؟

أولاً: لا تجري على كل لسان ولا في كل قلب كلمة لا إله إلا الله التي هي الكلمة الطيبة التي تنبت في قلب المؤمن ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ [إبراهيم: ٢٤] هنا في قلب المؤمن ﴿وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ فأول شيء أن كلمة التوحيد لا تجري على كل لسان، ولا في كل قلب فليس كل محل قابل لأن يهدى للإله إلا الله ليس كل محل، ولكن من اصطفاهم الله وطهر قلوبهم وزكاهم هم الذين تعمر قلوبهم بلا إله إلا الله، فربما تعرض على قلب آخر مشرك نجس فينبذها ويرفضها ولا تنبت فيه، لا تصلح معه واضح، فهي إنما تنبت في القلب الطيب. كلمة طيبة في قلب طيب لا تجري على كل لسان ولا في كل قلب، كذلك النخل لا ينبت في جميع البلدان بل في بعض دون بعض، أليس كذلك؟ النخل له تربة خاصة وأماكن معينة ينبت فيها دون بعض الأماكن الأخرى، كذلك كلمة التوحيد هي أعلى الكلمات والنخلة هي أطول الأشجار، الكلمة الطيبة أصلها ثابت في القلب وهو المعرفة وفرعها ثابت في السماء ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾، الشجرة الطيبة أيضاً النخلة ثابتة في الأرض وفروعها في السماء في العلو، الإيمان يثاب صاحبه في الدنيا لأجل إيمانه بأهلية الشهادة والولاية والأمانة، فكونك تدخل في أهل التوحيد بقولك: لا إله إلا الله فإنك تثاب على ذلك بهذه الكلمة الطيبة في الدنيا لأجل هذا

الإيمان وتصبح أهلاً للشهادة والولاية والأمانة فأنت تثاب عليها مرة في الدنيا بهذه الأمور وتثاب مرة في الآخرة وهي الجنة الدائمة والنعيم المقيم، وتثمر لك أيضاً هذه الثمرة الباقية والنعمة الدائمة في الآخرة، كذلك كلمة التوحيد وإن كان معها شيء من المعاصي لكنها تنفع صاحبها يعني كلمة التوحيد مثل الروح بالنسبة للبدن فالإنسان لو فقد ذراعه بتر ذراعه أو قدمه أو استأصل أي شيء من جسده مما يستقيم له الحياة ويظل حياً بعد ذلك، لكن إذا يعني الإنسان ممكن أن يعيش بلا عين يعيش بلا رجل يعيش بلا يد وهكذا لكن هل يعيش بلا روح؟! لا يمكن إنسان يحيا بغير روح، كذلك الإيمان قد تتخلف بعض أركانه قد يقع الإنسان في بعض الذنوب قد يضيع بعض الواجبات، ولكن ما دام معه في قلبه لا إله إلا الله فإنه يبقى إيمانه حياً، أما إذا خرجت لا إله إلا الله أو لم يقلها فهو ميت، كذلك المشرك الذي لم يقل لا إله إلا الله هو ميت في صورة حي، حياته مثل حياة البهائم والأنعام، نعم يأكل ويتنفس ويتحرك ويتكاثر ويخرج كل هذه الوظائف لكنه حي مثل ايه؟ كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف] فمن كان معه لا إله إلا الله فهو الحي، ومن حرمها فهو الميت، وإن بدا وغدا وراح في صورة الحي، يقول الله تبارك وتعالى لأهل لا إله إلا الله: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر] فالنخلة وإن حصل في وسط ثمرتها نواة لا خير فيها فإن قيمة الثمرة لا تنقص بسبب النواة، يعني هذه الثمرة البلح الذي تأكله سيكون في داخله هذه النواة أنت ربما لا تتفعل بهذه النواة واضح، لكن هل وجود هذه النواة يقدر في قيمة الثمرة أو في قيمة هذه النخلة؟ كلا،

كذلك إذا وجدت معك لا إله إلا الله فإن بقائها معك لا يقدر في إيمانك وإن قصرت في بعض المخالفات، الدين أوله التكاليف الشاقة أول الدين فيه تكاليف شاقة تصبر على أداء هذه التكاليف هذه المشقة تكون مثل الشوك لكن أعلاه الثمرة الحلوة اللذيذة وهي معرفة الله، ثم الجنة في الآخرة، كذلك النخلة أسفلها شوك والثمرة في أعلاها، فهذه بعض أوجه الشبه حاول الرازي رحمته في تفسيره أن يجمعها فيما معنى ما هي أوجه الشبه بين النخلة التي هي الشجرة الطيبة وبين الكلمة الطيبة التي هي لا إله إلا الله.

من در ابن القيم والآله :

□ قال الإمام ابن القيم رحمته: «قوله تعالى: ﴿لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم].

فشبه رحمته الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة؛ لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح، والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع، وهذا ظاهر على قول جمهور المفسرين: الكلمة الطيبة: هي شهادة أن لا إله إلا الله، فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة، الظاهرة والباطنة، فكل عمل صالح مرضي لله فهو ثمرة هذه الكلمة.

□ وفي تفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كلمة طيبة: شهادة أن لا إله إلا الله، كشجرة طيبة: وهو المؤمن. أصلها ثابت قول:

لا إله إلا الله في قلب المؤمن ﴿وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ ، يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء»^(١).

□ وقال الربيع بن أنس: «كلمة طيبة: هذا مثل الإيمان، فالإيمان: الشجرة الطيبة، وأصلها الثابت الذي لا يزول: الإخلاص فيه، وفرعها في السماء: خشية الله».

والتشبيه على هذا القول أصح وأظهر وأحسن، فإنه سبحانه شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل، الباسقة الفرع في السماء علوًّا، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين.

وإذا تأملت هذا التشبيه رأيت مطابقاً لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب، التي فروعها من الأعمال الصالحة صاعدة إلى السماء.

ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت، بحسب ثباتها في القلب، ومحبة القلب لها، وإخلاصه فيها، ومعرفته بحقيقتها، وقيامه بحقوقها، ومراعاتها حق رعايتها، فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها، واتصف قلبه بها، وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها، فعرف حقيقة الإلهية التي يثبتها قلبه لله، ويشهد بها لسانه، وتصدّقها جوارحه، ونفي تلك الحقيقة ولو أزمها عن كل ما سوى الله، وواطأ قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية طائفة سالكة سُبُل ربه ذُللاً، غير ناكبة عنها ولا باغية سواها بدلاً، كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلاً، فلا ريب أن

(١) أخرجها الطبري (٢٠٣/١٣)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٣٥)، الطبراني في «الدعاء» (١٥٢٧/٣).

هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الرب تعالى، وهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى.

وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلما كثيراً طيباً، يقارنه عمل صالح، فيرفع العمل الصالح الكلم الطيب، كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]. فأخبر سبحانه أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، وأخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها عملاً صالحاً كل وقت.

والمقصود: أن كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمن عارفاً بمعناها وحقيقتها نفيًا وإثباتًا، متصفاً بموجبيها، قائماً قلبه ولسانه وجوارحه بشهادته، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل من هذا الشاهد، أصلها ثابت راسخ في قلبه وفروعها متصلة بالسما، وهي مخرجة ثمرتها كل وقت.

□ ومن السلف من قال: «إن الشجرة الطيبة هي النخلة، ويدل عليه حديث ابن عمر في الصحيح»^(١).

□ ومنهم من قال: «هي المؤمن نفسه، كما قال محمد بن سعد: حدثني أبي حدثني عمي حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قوله: ﴿الْمُ تَرَكَيفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، يعني بالشجرة الطيبة: المؤمن. ويعني بالأصل الثابت في الأرض، والفرع في السماء، يكون المؤمن يعمل في الأرض ويتكلم، فيبلغ عمله وقوله السماء وهو في

(١) «صحيح البخاري» (١/١٧٥) في العلم، باب: قول المحدث: «حدثنا».

الأرض.

□ وقال عطية العوفي في قوله: ﴿الْمَ تَرَكَيفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، قال: «ذلك مثل المؤمن، لا يزال يخرج منه كلام طيب، وعمل صالح يصعد إلى الله».

□ وقال الربيع بن أنس: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾: «ذلك المؤمن، ضرب مثله في الإخلاص لله وعبادته وحده لا شريك له، أصلها ثابت، قال: أصل عمله ثابت في الأرض، وفرعها في السماء، قال: ذكره في السماء». ولا اختلاف بين القولين.

والمقصود بالمثل: المؤمن، والنخلة مُشَبَّهَةٌ به، وهو مشبه بها، وإذا كانت النخلة شجرة طيبة، فالمؤمن المشبه بها أولى أن يكون كذلك. ومن قال من السلف: «إنها شجرة في الجنة، فالنخلة من أشرف أشجار الجنة».

وفي هذا المثل من الأسرار والعلوم والمعارف ما يليق به، ويقتضيه علم الرب الذي تكلم به، وحكمته.

فمن ذلك: أن الشجرة لا بد لها من عروق وساق وفروع وورق وثمر، كذلك شجرة الإيمان والإسلام؛ ليطابق المشبه المشبه به، فعروقها: العلم، والمعرفة، واليقين، وساقها: الإخلاص، وفروعها: الأعمال، وثمرتها: ما توجه به الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة، والصفات المددوحة، والأخلاق الزكية، والسَّمْتُ الصالح، والهدى، والدَّلُّ المرضي، فيستدل على غرس هذه الشجرة في القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور.

فإذا كان العلم صحيحًا مطابقًا لمعلومه الذي أنزل الله كتابه به،

والاعتقاد مطابَقًا، لما أخبر به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله، والإخلاص قائم في القلب، والأعمال موافقة للأمر، والهدى والدُّلُّ والسَّمْتُ مشابه لهذه الأصول مناسب لها؛ علم أن شجرة الإيَّان في القلب أصلها ثابت وفرعها في السماء.

وإذا كان الأمر بالعكس، علم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة، التي اجْتَثَّتْ من فوق الأرض ما لها من قرار.

ومنها: أن الشجرة لا تبقى حية إلا بباداة تسقيها وتنميتها، فإذا قطع عنها السقي أوشكت أن تيبس، فهكذا شجرة الإسلام في القلب، إن لم يتعاهد صاحبها بسقيها كل وقت بالعلم النافع والعمل الصالح، والعود بالتذكر على التفكير، وبالتفكير على التذكر، وإلا أوشكت أن تيبس.

• وفي «مسند الإمام أحمد» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «إن الإيمان يخلق في القلب كما يخلق الثوب، فجددوا إيمانكم»^(١).

وبالجملة: فالغرس إن لم يتعاهده صاحبه أوشك أن يهلك.

ومن هنا تعلم شدة حاجة العباد إلى ما أمر الله به من العبادات على تعاقب الأوقات، وعظيم رحمته، وتمام نعمته وإحسانه إلى عباده، أو وظفها عليها وجعلها مادة لسقي غراس التوحيد الذي غرسه في قلوبهم.

ومنها: أن الغرس والزرع النافع قد أجرى الله سبحانه العادة، أن لا

(١) حديث صحيح: أخرجه الحاكم (٤/١)، وقال: رواه مصريون ثقات، ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي: رواه الطبراني في «الكبير»، وإسناده حسن. «مجمع الزوائد» (٥٢/١).

بد أن يخالطه دَعَلٌ ونبت غريب، ليس من جنسه، فإن تعاوده ربه ونقاه وقلعه، كمل الغرس والزرع، واستوى، وتم نباته، وكان أوفر لثمرته وأطيب، وأذكى، وإن تركه أوشك أن يغلب على الغراس والزرع، ويكون الحكم له، أو يضعف الأصل ويجعل الثمرة ذميمة ناقصة بحسب كثرته وقتله.

ومن لم يكن له فقه نفس في هذا ومعرفة به؛ فإنه يفوته ربح كبير، وهو لا يشعر.

فالمؤمن دائماً سعيه في شيئين: سقي هذه الشجرة، وتنقية ما حولها، فسقيها تبقى وتدوم، وتنقية ما حولها تكمل وتتم، والله المستعان وعليه التكلان. فهذا بعض ما تضمنه هذا المثل العظيم الجليل من الأسرار والحكم، ولعلها قطرة من بحر، بحسب أذهاننا الواقفة، وقلوبنا المخطئة، وعلومنا القاصرة، وأعمالنا التي توجب التوبة والاستغفار، وإلّا فلو طهرت منا القلوب، وصفت الأذهان، وزكت النفوس، وخلصت الأعمال، وتجردت الهمم للتلقي عن الله ورسوله، لشاهدنا من معاني كلام الله وأسراره وحكمه ما تضمحل عنده العلوم، وتتلاشى عنده معارف الخلق.

وبهذا تعرف قدر علوم الصحابة ومعارفهم، وأن التفاوت الذي بين علومهم وعلوم من بعدهم كالتفاوت الذي بينهم في الفضل، والله أعلم حيث يجعل مواقع فضله، ومن يختص برحمته.

ثم ذكر سبحانه مثل الكلمة الخبيثة^(١)، فشبها بالشجرة الخبيثة التي اجثت من فوق الأرض، ما لها من قرار، فلا عرق ثابت، ولا فرع عال، ولا

(١) وذلك قول تعالى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

ثمرة زاكية، فلا ظل، ولا جَنَى، ولا ساق قائم، ولا عرق في الأرض ثابت، فلا أسفلها مُغْدِق، ولا أعلاها مُوْتِق، ولا جنى لها، ولا تعلق، بل تُعَلَى.

وإذا تأمل اللبيب أكثر كلام هذا الخلق في خطابهم وكتبهم؛ وجده كذلك، فالخسران: الوقوف معه، والاشتغال به عن أفضل الكلام وأنفعه، -الذي هو كتاب الرب سبحانه-.

□ قال الضحاك: «ضرب الله مثلاً للكافر بشجرة اجثت من فوق الأرض ما لها من قرار، يقول: ليس لها أصل ولا فرع، وليس لها ثمرة، ولا فيها منفعة، كذلك الكافر لا يعمل خيراً، ولا يقوله، ولا يجعل له فيه بركة ولا منفعة».

□ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «ومثل كلمة خبيثة»: وهي الشرك، كشجرة خبيثة: يعني: الكافر، اجثت من فوق الأرض ما لها من قرار، يقول: الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر، ولا برهان، ولا يقبل الله مع الشرك عملاً، فلا يقبل عمل المشرك، ولا يصعد إلى الله، فليس له أصل ثابت في الأرض، ولا فرع في السماء، يقول: ليس له عمل صالح في السماء ولا في الأرض».

□ وقال الربيع بن أنس: «مثل الشجرة الخبيثة مثل الكافر، ليس لقوله ولا لعمله أصل ولا فرع، ولا يستقر قوله ولا عمله على الأرض، ولا يصعد إلى السماء».

□ وقال سعيد عن قتادة في هذه الآية: «إن رجلاً لقي رجلاً من أهل العلم، فقال له: ما تقول في الكلمة الخبيثة؟ قال: ما أعلم لها في الأرض مستقراً، ولا في السماء مصعداً، إلا أن تلزم عنق صاحبها، حتى يوافي بها

القيامة»^(١).

ولله در شيخنا الدكتور محمد إسماعيل المقدم إذ يقول:

«هي أيضًا «كلمة التقوى»؛ لأن صاحبها يتقي أن يصف ربه بما وصفه به المشركون، وهي واقية لبدنك من السيف، ولمالك من الاستغنام من أن يصير غنيمة للمسلمين، ولذمتك من الجزية، ولأولادك من السبي، فإن انضاف القلب إلى اللسان صارت واقية لقلبك عن الكفر، وإن انضم التوفيق صارت واقية لك من المعاصي ﴿وَأَزْمَهُمْ كَلِمَةُ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦].

هي أيضًا «الكلمة الباقية» فالتوحيد لا يزول بالمعصية كما نعلم وكما سنبين أن المعاصي تقدح في كمال الإيمان لكن لا تقدح في أصل الإيمان، فالتوحيد لا يزول بالمعصية، والمعصية تزول بسبب التوحيد؛ فلذلك هي الكلمة الباقية.

يقول تبارك وتعالى في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾ [الزخرف: ٢٨] لماذا؟ الآية تقول: ﴿فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾ [الزخرف] طبعا هنا هو لم يقل كلمة التوحيد لكن ذكر معناها الكفر بالطاغوت وتوحيد الله ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ هذا هو معنى الكفر بالطاغوت الذي هو أحد شقي الشهادة ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فهذا هو الإثبات إثبات التوحيد لله تبارك وتعالى والإيمان به، فهنا عبر عن لا

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ٢٢٤ - ٢٣٠).

إله إلا الله بمعناها، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾ ما هي هذه الكلمة الباقية؟ هي لا إله إلا الله نعم.

ويقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]. كل شيء هالك إلا وجهه، والله سبحانه وتعالى واجب الدوام والبقاء والقول تبع المقول فتبقى حقيقة لا إله إلا الله ثابتة البقاء والدوام.

□ هي أيضاً «القول الثابت» الذي قال الله ﴿عَلَّمَ فِيهِ﴾: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [٢٧]. [إبراهيم]. يضلهم فلا يستطيعون أن يقولوها.

□ وهي «كلمة الله العليا» ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠] وهي لا إله إلا الله، وكلمة الله عليا على الدوام؛ لذلك لم يعطفها على ما قبلها على كلمة الذين كفروا، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى لم يقل وكلمة الله هي العليا حتى لا تتعدى تبقى مفعول للجعل أو معطوف على كلمة الذين كفروا، لكن ابتداءً جملة جديد، وقال كلمة الله هي العليا.

وقال تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣] فالظهور والعلو هنا لماذا؟ لا إله إلا الله.

□ أيضاً هي «المثل الأعلى» كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾

[النحل: ٦٠].

□ قال قتادة: «هو قول لا إله إلا الله، فالمثل هنا معناه الصفة مثلما

يقول ﴿عَلَّمَ﴾ ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥] مثل الجنة

يعني صفة الجنة التي وعد المتقون، كذلك هنا ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ أي: الصفة، وهي لا إله إلا الله.

□ هي أيضًا: «كلمة السواء» يقول تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤] ما هي هذه الكلمة؟ لا إله إلا الله، بعض الناس وللأسف يسيئون استعمال هذه الآية ذوي القلوب المريضة من المنافقين ليداهنوا النصارى وإخوانهم الذين نافقوا فيقولون ويفهموا الناس: أن كلمة سواء يعني حل وسط، ما هي يعني أن تدخلوا في الإسلام وهذا هو المعنى ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ هي أن تدخلوا في دين الله في الإسلام، وتقولوا لا إله إلا الله واضح محمد رسول الله، مش كلمة سواء يعني حل وسط يرضي جميع الأطراف فهذا ما لا يجوز، والدليل على هذا قوله تبارك وتعالى بعدها ﴿أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران].

□ أيضًا هي «كلمة النجاة» كما قال ﴿عَلَّيْ﴾: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وأيضًا كما قال المؤمن: ﴿وَيَقَوْمٍ مَا إِلِيَّ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ﴾ [غافر] ما هي النجاة؟ هي قول: لا إله إلا الله.

□ أيضًا هي «العهد» الذي أشار إليه تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، يعني: أوفوا بلا إله إلا الله، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلْتُ﴾ [البقرة: ٤١]، فإذا يكون المراد من العهد هو الإيمان وهو قول: لا إله إلا الله.

□ وهي أيضًا «كلمة الاستقامة» ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ [فصلت: ٣٠].

□ وهي أيضًا «مقاليد السماوات والأرض» يقول ابن عباس في قوله: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٣]، قال: هو قول: لا إله إلا الله فبها تفتح أبواب السماء عند الدعاء، وأبواب الجنان لا تفتح إلا بها، وأبواب النيران لا تغلق إلا بها، وباب القلب لا يفتح إلا بها، وأنواع الوسواس لا تندفع إلا بها، فالمقاليد المفاتيح: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهو أن تقول: لا إله إلا الله لماذا؟ لأنه بلا إله إلا الله تفتح أبواب السماء عند الدعاء، وبلا إله إلا الله تفتح أبواب الجنة؛ لأنه لن يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة موحدة، فلا يمكن أبدًا مشرك يدخل الجنة محرمة، إن الله حرم الجنة على من لم يقل: لا إله إلا الله واستكبر عنها، فأيضًا أبواب الجنة لا تفتح إلا بها، وأبواب النيران لا تغلق إلا بها، وباب القلب لا يفتح إلا بها، وأنواع الوسواس لا تندفع إلا بها، فلذلك قال ابن عباس ^{في تفسيره} في تفسير قوله: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هو قولك: لا إله إلا الله.

□ هي أيضًا «القول السديد» كما قال تبارك وتعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]، سديدًا فعيل، الفعيل ممكن تأتي بمعنى فاعل، وممكن تأتي بمعنى مفعول، فإذا قيل: إنها سديد بمعنى فاعل يعني: قولوا قولًا يسد على صاحبه أبواب جهنم، أو إذا قلنا: سديد بمعنى مفعول كما تقول: جريح أو أسير يعني مأسور أو مقول كذلك سديد أي مفعول يعني: يسد صاحبه عن أن يضره شيء من الذنوب، ومنه سد يأجوج ومأجوج سد إنما هو لدفع ضررهم، فكذلك كلمة

التوحيد هي القول السديد؛ لأنك بها تسد على أن يضرك شيء من الذنوب.
 □ هي أيضًا «البر» ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
 وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧] إشارة إلى التوحيد المفهوم
 من لا إله إلا الله.

□ وهي «كلمة الصدق» ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ [الزمر:
 ٣٣] جاء بالصدق يعني: بلا إله إلا الله، فهذه بعض أسماء لا إله إلا الله
 وفضائلها...». انتهى الكلام الطيب من جمع شيخنا الطيب والمطيب
 مقدم أهل مصر فضيلة الشيخ محمد إسماعيل المقدم.
 □ والله درُّ القائل:

إِلَيْكَ وَإِلَّا لَا تُشَدُّ الرِّكَائِبُ وَمِنْكَ وَإِلَّا فَالْمُؤْمَلُ خَائِبُ
 وَفِيكَ وَإِلَّا فَالْغَرَامُ مُضَيِّعٌ وَعَنْكَ وَإِلَّا فَالْمَحَدَّثُ كَاذِبُ

